DT
96
.C3

02973197

DT 96
.C3

NOV 2 ' 1972

اللآلئ

في حياة المطران عبد الله قرالي

مؤسس الرهبانية اللبنانية ورئيس اساقفة بيروت

١٦٧٢ — ١٧٤٢

بقلم

الخوري بولس قرالي

القسم الاول

الراهب

١٦٧٢ — ١٧١٦

نشر تباعاً في المجلة السورية والبطريركية

مطبعة العلم . بيت شباب (لبنان) ١٩٣٢

اللآلئ

في حياة المطران عبد الله قرالي

مؤسس الرهبانية اللبنانية ورئيس اساقفة بيروت

١٦٧٢ — ١٧٤٢

بقلم

الخوري بولس قرالي

القسم الاول

الراهب

١٦٧٢ — ١٧١٦

نشر تباعاً في المجلة السورية والبطريركية

مطبعة العلم . بيت شباب (لبنان) ١٩٣٢

DT
96
.C3

الى صاحب السيادة

المطران بطرس الفغالي

الزائر الرسولي على الرهبانيات المارونية

والنائب البطريركي

اقدم

هذه اللآلىء من حياة راهب ومطران

حقوق النشر والترجمة محفوظة للمؤلف

فهرس المواد

صفحة

مقدمة ١

الفصل الاول — في حداثته ودعوته ٤

١ — وطنه صفحة ٤ ٢ — أسرته ٥
٣ — الطريقة الرهبانية ٧ ٤ — دعوته ٩
٥ — سفره الى لبنان ١١

الفصل الثاني — الرهبانية القديمة في لبنان ١٥

١ — دير طاميش صفحة ١٥ ٢ — طريقة العباد اللبنانيين ١٧
٣ — اول سعي في الاصلاح ٢٢ ٤ — دير مار سركيس اهدن ٢٤
٥ — مرت مورا ٢٧

الفصل الثالث — في رئاسة القس جبريل حوا ٣١

١ — الدرجة الانجيلية والاسكيم ٣١ ٢ — دير مار اليشع تاريخه ٣٣
٣ — وصف الدير الجديد ٣٨ ٤ — بوادر الخلاف ٤١

الفصل الرابع — في انتخاب القس عبدالله رئيساً عاماً ٤٨

١ — رجال الرهبانية الثلاثة ٤٨ ٢ — اقامة القس عبدالله رئيساً عاماً ٥١
٤ — تثبيت القانون ٥٣ ٥ — قسمة الرهبنة ٥٥
٦ — سيرة الرهبنتين ٥٩ ٧ — نهاية الاوهام ٦٢

الفصل الخامس — سيرة القس عبدالله ورهبانه الروحية ٦٣

١ — الجنود ٦٣ ٢ — القائد ٦٦
٣ — سلوكه مع الحكام ٧٠

الفصل السادس — في انتشار طريقة الرهبانية اللبنانية ٧٤

١ — الشجرة ٧٤ ٢ — تسمية الرهبنة باللبنانية ٧٦
٣ — الخلية ونحلها ٧٧ ٤ — عودة فرحات ٧٨
٥ — الرهبانية الباسيلية ٧٩ ٦ — راهبات البشارة ٨٠
٧ — الرهبانية الانطونيانية ٨١ ٨ — الرهبانية الارمنية ٨٣
٩ — الرهبانية الكلدانية ٨٥

الفصل السابع — في توسع الرهبنة اللبنانية بالديورة ٨٦

١ — آل حمادة ٨٦ ٢ — دير مار يوحنا رشميا ٨٨
٣ — دير مار انطونيوس سير ٩٠ ٤ — دير اللويزه مركزه ٩٤
٥ — القس اغناطيوس سلهب الحاقلاني ٩٥ ٦ — غاية الوقفية ٩٧
٧ — الدير الحالي ١٠٠

الفصل الثامن — دير قزحيا ١٠٣

١ — منظره الخارجي ١٠٣ ٢ — منظره الداخلي ١٠٦
٣ — تاريخه ١١٠

الفصل التاسع — دير رومية ١١٥

١ — اخطار واثمار ١١٥ ٢ — بناء الدير ١١٩
٣ — سفر الرهبان الى رومية ١٢٣ ٤ — بين عبدالله وحوا ١٢٦
٥ — الائتلاف والاختلاف ١٣٠ ٦ — عودة الرهبان ١٣٥

الفصل العاشر — نمو الرهبانية الاقتصادي ١٤٢

١ — تنظيم العمل ١٤٢ ٢ — الادارة المالية ١٤٦
٣ — احسان الحلبيين ١٤٩ ٤ — الزراعة ١٥٢
٥ — الصناعة ١٥٥

الفصل الحادي عشر — المحابس والتجارب ١٥٩

١ — المحابس وقانونها ١٥٩ ٢ — النبوة والتجربة الاولى ١٦٥
٣ — تنزيل البطريرك يعقوب ١٧١ ٤ — اعادة البطريرك يعقوب ١٧٦

خاتمة القسم الاول ١٨٥

فهرس الاغلاط

خطأ .	صواب	صفحة	سطر
انطونيرس	انطونيوس	١٩	١٧
تسلقت	تسلقته	٢٦	٢٤
تستند على	تستند الى	٢٩	٩
شرقيه	شرقه	٢٩	٢٣
الاّ تضاف	دون ان تضاف	٣١	١٤
الملحوظة	الملاحظة	٣٦	١٥
يستندوا عليها	يستندوا اليها	٥٦	٢
ارسانيوس شكري	ارسانيوس عبد الاحد	٧٦	٥
دعوة	دعوى	٨١	١٥
البطريرك مسعد	البطريرك الدويهي وبعده البطريرك مسعد	٨٥	٢٣
شلبي	شبلي	٨٧	٢٢
جاهلين	جاهلان	١١٨	٨
مكاناً	مكان	١٢٢	١٩
من	منا	١٢٤	١٠
ينهنك	ينهتك	»	١٢
(٣) دخل الرهبانية وقد	(٣) وقد	»	٢٢
نمو الرهبانية الاقتصادية	نمو الرهبانية الاقتصادي	١٤٢	١٤

خطأ	صواب	صفحة	سطر
الذي كانوا	الذين كانوا	١٤٨	١٧
قبل وفاته	قبل وفاة فرحات	١٥٠	٢٢
١٨٤٨	١٧٤٨	١٥١	١١
جالوا بها رومية	جالوا بها في رومية «		١٧
الاب يوسف أيوب	الاب فرنسيس أيوب	١٥٥	٢٣
ابن مباك	ابن مبارك	١٦٠	٢١
ومل	وملت	١٦٥	١٨
اربعة وعشرين سنة	اربع وعشرين سنة	١٧١	٧
بطول شرحها	يطول شرحها	١٧٥	٨
شهر سنة	شهر اب سنة	١٧٦	١٤
خطأ ٢	خطأ تاريخ ٢	١٧٨	٣٤
فطريركا وانطيوخيا	فطريرخادانطوخيا	١٨٠	١٤
حرف ه	حرف °	١٨٠	١٧
وان القس	واما القس	١٨٢	١٦
ان الاثبات لها	ان لا ثبات لها	١٨٣	٢٠

وغير ذلك من الاغلاط المطبعية التي لا تصعب معرفتها على القارىء وخاصة الناتجة عن سقوط بعض الاحرف في الطبع كالالف

اللآلى

في حياة المطران عبد الله قرالي

مقدمة

ان سيرة رجال الله من قديسين ورعاة وقواد لؤلؤة في تاج الطائفة المنتمين اليها ومفخرة للشرق المشرقين فيه ، فضلاً عن كونها قدوة صالحة للرعية ومشكاة مضيئة لرؤسائها

ولما كان رجل الله ورجل الشعب ورجل الرهبانية المطران عبد الله قرألي قد جمع في شخصه فضائل الصالحين واظهر همة وحكمة اكبر القواد والعاملين، وخلف للطائفة وللشرق اجمع رهبانية محكمة النظام عزيزة الجانب ما زالت منذ مائتي سنة تسعى للصلاح والاصلاح ، وترك تآليف لا تزال محجة الطلاب ونبراس التدين والاداب ، فكرت منذ الصغر في جمع الشواهد الناطقة بفضائله وأفضاله مع استطلاع اخبار واطوار معاصريه ومعاشريه واهم الحوادث التي اثر فيها واثرت فيه .

وفي صيف سنة ١٩٢٢ تفرغت لهذا العمل فزرت في لبنان الديورة والمعاهد التي أسسها أو أصلحها منقباً في بطون سجلاتها مستنطقاً اوراقها البالية الى ان فزت بمعلومات وافية عن حياته الرهبانية .

اما عن حياته الاسقفية اي العمومية فقد كان ينقصني الشيء الكثير . فعزمت على ركوب البحار الى مدينة رومية العظمى لتقليب اوراق دير الرهبانية فيها والتفتيش في خزائن المجمع المقدس هناك

ومن حسن حظي اني عرجت في خريف تلك السنة على الدار البطريركية في بكركي واستأذنت من اب الطائفة وابي غبطة البطريرك مار الياس الحويك في تصفح اوراق الخزانة الخطية والسجل البطريركي الخاص . فكان اذنه بركة اخرجت لي

من عمق بحر التاريخ جواهر جمّة « حتى كادت شبكتي تتمزق » فاكتفيت ببعضها وجمعتها في هذا الكتاب الذي سميته « اللآلي في حياة المطران عبد الله قرالي » لاني ضممت ونظمت في عقدي هذا اجمل جواهر حياته الروحية والرهبانية والاسقفية. فجاء ملخصاً لسيرته ولتاريخ الرهبانية والطائفة ولبنان في مدة نصف القرن الذي ظهر فيه ، اي من سنة ١٦٩٤ التي أمّ فيها لبنان للترهب الى سنة ١٧٤٢ التي توفي فيها.

وقد آليت على نفسي، كما هي خطتي في كل الموضوعات التاريخية التي ابحث فيها، ان لا اذكر في كتابي هذا شيئاً الا معززاً بالوثائق التاريخية. واليك اهم المصادر التي استقيت منها :

١ — مذكرات المطران عبد الله المحفوظة في دير الرهبان الحلبيين في رومية. وقد استنسخها لي حضرة صديقي العالم الخوري بولس عبود عن كراسة مكتوبة بخط يد المطران عبد الله نفسه. اخبرني استاذي العزيز واستاذ اللغة السريانية القس جبرائيل القرداحي انها كانت كاملة فنزع منها أحد رؤساء الدير الورقات السبع الاخيرة وارسلها الى دير اللويزه لاتمام نسخة منها كانت هناك. فضاعت. وقد قلبت كل مخطوطات هذه المكتبة المنقولة الان الى دير فيطرون فلم اظفر بها.

٢ — سيرة المطران عبد الله قرألي بقلم تلميذه القس توما البودي، نشر المأسوف على علمه الاب انطون رباط قسمها الاول في مجلة المشرق سنة ١٧٠٩، ولا يزال القسم الثاني منها مفقود.

٣ — ملخص تاريخ الرهبانية اللبنانية للمطران جرمانوس فرحات انتهى به الى سنة ١٧٢٤ وهو محفوظ بدير اللويزه. وقد اتمه بعده بعض الرؤساء خصوصاً البودي.

٤ — سجل الرهبانية اللبنانية، اي الرزنامة التي استصحبها معه الى رومية القس توما البودي. نسخها لسجل دير اللويزة المرحوم المطران يوسف دريان لما كان تلميذاً.

٥ — اوراق منثورة محفوظة في دير اللويزة بلبنان جمعتها ورتبتها بنفسي .

٦ — نبذة في استخلاص كنيسة دمشق المارونية سنة ١٧١٨ بقلم المطران جرمانوس فرحات ، نشرناها في مجلتنا السورية

٧ — مفكرات السمعاني في المجمع اللبناني ، وجدناها محفوظة في خزانة بكركي وسننشرها في مجلتنا .

٨ — اوراق شتى محفوظة في دير بكركي اغلبها في خزانتي البطريرك يعقوب عواد والبطريرك يوسف ضرغام الخازن

وقد انتهيت من هذا الكتاب في غرة حزيران سنة ١٩٢٣ وكنت على وشك نشره ، اذ تعرفت بحضرة الاب لويس بليبل صاحب تاريخ الرهبانية اللبنانية . فطلب الي بعض معلومات عن الرهبانية ليضيفها الى الوثائق التي جمعها في مدة ٢٥ سنة . فلبيت طلبه . وقد ذكرني مراراً في كتابه وسهي عنه ذكري احياناً . وانتظرت الى ان فرغ من طبع مجموعته ، فحذفت من كتابي نص المخطوطات المنشورة في كتابه واضفت اليه بعض معلومات استقيتها منه ، خصوصاً القسم الخاص بمدارس الرهبانية ورسالتها المأخوذ عن مجموعة للبودي محفوظة في دير الرهبان برومية . وقد كنت اطلعت عليها هناك سنة ١٨٩٤ ولم اتمكن من استنساخها .

والله الموفق الى الخير والهادي الى الصواب .

الخوري بولس قرالي

الفصل الاول

في حداثته ودعوته

١ — وطنه

وطنه حلب الشهباء، تلك المدينة العامرة المنبسطة في آخر سهول شمال سوريا كحلقة اتصال بينها وبين الاناضول وبغداد وما بين النهرين. غنية بتربتها ومصانعها وتجارتها، غنية بدورها وجوامعها وكنائسها، غنية بشعبها المقدام الذكي، غنية بافرادها المتفردين في كل فروع العلوم والفنون والسياسة.

امتزج الحلبي بالغربي من عهد الصليبيين امتزاجاً قوياً فاخذعنه مزيتي الاقدام والثبات مع رغبة شديدة في المعارف، لكنه بقي شرقياً في عاداته واخلاقه وطريقة معيشته مع كرم الضيافة والميل الى التمتع باللهو وحلال الدنيا وجمال الطبيعة والمخلوقات

كانت حلب في اواخر القرن السابع عشر مزدهرة بالآداب رائجة بالتجارة، وقد رفرف عليها لواء السلام واظلتها بحبوحة العيش. فتوافدت اليها الامم النصرانية خصوصاً الكاثوليكية، وشادت فيها المدارس والكنائس ودقت النواقيس واقامت الطقوس وتكاثر عددها حتى بلغ كل من الموارنة والسريان اربعة آلاف والارمن خمسة آلاف والروم ستة آلاف.

ولم يكن الموارنة بالجديدين في حلب لان اصلهم من شمال سوريا واوساطها، ولكن حالتهم فيها ضعفت كثيراً بعد خروج الصليبيين منها (راجع مقالة الخوري الاسقفي جرجس منش في برنامج خطار غانم ص ١٩٥ ومقالة الخوري ابرهيم حرفوش في المشرق ٦ : ٣٦٧). ولما راجت فيها التجارة وتوافرت الراحة في اواخر القرن الخامس عشر أمها كثير من الاسر اللبنانية. ولا تزال تعرف بينهم الى الآن أسر الحصروني والعاقوري والحدشيتي والبيروتي والطرابلسي والسرعلي وغيرها. وحكاية الاربعين اسرة النازحة من شمال لبنان لا بد ان تكون على شيء من الحقيقة. وكان

مطارين جبة بشري (شمال لبنان) يدّعون الولاية على موارنة حلب ويسمون انفسهم « مطارنة الشام وجبة بشري وحلب » كما كان يفعل المطران انطونيوس الذي زارهم سنة ١٥٢٧ (المشرق ٥ : ٨٩٧)

ولما تكاثروا وتّسعوا كنيستهم المبنية على اسم مار الياس الحي واثثوها بالفرش الفاخر والاواني الكنسية الثمينة واستنسخوا لها الكتب البيعية واوقفوا لها العقار. ثم شيدوا لهم مدرسة وألفوا لهم ابرشية ممتازة عن غيرها كان مركز اسقفها في لبنان. وكان هذا الاسقف يزورهم احياناً بنفسه او يوفد اليهم بعض الكهنة الاجلاء كالخوري اسطفان الدويهي، البطريرك والمؤرخ الشهير، والخوري بطرس التولوي اللاهوتي المتشرع الذائع الصيت، الذي جاء حلب واعظاً سنة ١٦٨٨ وظل رئيسا لكهنتها من سنة ١٦٩٨ الى ان توفي فيها سنة ١٧٤٥. وهو صاحب الفضل في تأسيس المدرسة المارونية التي حازت شهرة عظيمة واخرجت علماء كثيرين منهم صاحب الترجمة.

٢ — اسرته

ومن اقدم اسر حلب المارونية اسرة قرألي. والاسرة كالشجرة اذا توافرت فيها الهمة والمبادىء القويمة كانت لها كعصارة الحياة للنصبة، إن ساعدها الجو والتربة امتدت جذورها في الارض وانبسطت فروعها في الهواء. فزهت الوانا وامتلأت ثمراً وتغلبت على عواصف الايام وطوارىء الحياة، واستظلت في ظلها الوارف اسر عديدة غيرها كما تستظل الطيور باغصان الشجرة الباسقة.

وقد ذهب القوم مذاهب شتى في اصل هذه الاسرة واسمها وهم يلفظونه قراعلي ويكتبه بعضهم قرألي، وكلا الاسمين يدلان على لقب او اصل غير مسيحي. لان اللفظ الاول معناه في التركية « علي الاسود » والثاني « اليدالسوداء ». وقد ارتأى البطريرك بولس مسعد ان جدها من التركمان الذين احتلوا سواحل كمروان بعد خرابه

في بدء القرن الرابع عشر . وكان مقدماً للزوق فتنصر وهرب الى حدشيت في شمال لبنان وتفرعت منه اسرة سكتر التي نزحت فيما بعد الى حمانا في المتن وبقي فرع منها في بشري. ومن رأي الخوري جرجس منش ان اصلها من حلب وقد تقرب جدها من الحكام الاتراك فاطلقوا عليه لقب قرألي تحبباً فعم الاسرة كلها.

(المجلة السورية ١ : ٤١٧ — ٤٢٥ وخصوصاً ص ٤١٨)

وقد نزح فرع من هذه الاسرة الى قبرس وآخر الى دمشق وآخر الى الاسكندرونه . وانقرض الان الاصل من حلب واجتمعت الفروع كلها في القطر المصري ما عدا عائلة المرحوم يوسف ابن بولس قرألي ابن عم كاتب هذه السطور التي بقيت في الاسكندرونة. وسننشر في آخر هذا التاريخ ملحقاً مفصلاً عن فروع هذه الاسرة وافرادها والممتازين منها . ونكتفي الان باثبات ما جاء عنها في برنامج خطار غانم (ص ١٢٢) قال في ترجمة المطران عبدالله :

«عرفت هذه الاسرة بالتقى والتدين والغنى الطائل والجاه الوافر واشتهر بعض افرادها بالاخلاص في خدمة الدولة العلية وخدم بعضهم في قنصليات الحكومة الفرنساوية فاتخذتهم تحت كنف رعايتها . واشتهر منها رجال اكفاء خدموا الدين الخدمة الجلّى التي لا ينقضي فخرها . وهم الخبر المترجم والقس يوسف احد مدبري الرهبنة اللبنانية والقس عبدالله احد الكهنة العالمين . وامتاز منها ايضا اشخاص كرام في امور الدنيا بينهم شكري ترجمان قنصلية حلب النمسوية ، ومنتوره احد كتبة قنصلية حلب الفرنسوية ، ويوسف الذي كان ترجمان قنصلية فرنسا بحلب في آخر القرن الثامن عشر وسبق كل افراد اسرته في الغنى والجاه والشهرة والنفوذ لدى اولياء الامور والمضاء في الاعمال الخطيرة ، حتى انه كان عين اعيان النصارى واعظم وجهائهم. ومنهم ايضا نصرالله الكاتب الاديب صاحب رواية « كمال الجمال » وكتاب « كشف النقاب عن غامضات آيات الكتاب». وممن ينتمي الى هذا البيت الكريم أسر عديدة اخصها جُبتر وبركات وكاترون المعروفة بالتقى والغنى ، وحواء التي

اشتهر منها المطران جبرائيل والمطران جرمانوس، وحكيم اروتين التي اشتهر منها المطران ارسانيوس شكري والمطران بولس والمطران بولس الآخر، وبليط التي نبغ منها المطران غريغوريوس والورتبيت بولس صاحب كتاب الدعامة وكتاب النبراس، وحكيم جدّ التي عرُف منها انطون في فنّ الطب ويوسف الذي حاز الرتبة الثالثة وبقي في ترجمة ولاية حلب نحو ثلاث عشرة سنة . »

واول من عرف باسم قرألي او قراعلي عبد الاحد او عبود جد المطران عبد الله . اما والده فكان يدعى ميخائيل تزوج من هيلانه ابنة الحاج يعقوب بركات في نيسان سنة ١٦٦٨ فرزقا سبعة اولاد بنتين وخمسة ذكور ، منهم عبد الاحد صاحب الترجمة الذي اشتهر باسم عبدالله، وقد لازمه هذا الاسم في كل ادوار حياته .

ومن اخوة عبدالله الياس الذي ولد له تسعة بنين منهم يوحنا واقف الدار في محلة الصليبة ويوسف الذي ترهب وصار مدبراً اولا للرهبانية اللبنانية وسيأتي ذكره في حينه.

اما المطران عبدالله فقد ولد في حلب يوم ٨ ايلول من سنة ١٦٧٢ فسماه والداه عبدالاحد باسم جد الاسرة الاكبر تيمناً بان يكون ولدهما عبداً صالحا للاله الاحد. وكانا على جانب عظيم من التقى وعلى شيء من السعة فربياه احسن تربية واوسعا له ابواب المعارف الميسورة في ذلك العصر (نأخذ ما يتعلق بحداثة المطران عبدالله عن سيرته لتلميذه توما البودي المنشورة في المشرق ١٩٠٧ وعن مذكراته الخصوصية)

٣ — الطريقة الرهبانية

اذا قصدت النزهة في حرش بولوين بمدينة باريس وجدت امامك شارعا رحباً مرصوفا مكنوسا ومقسوما الى جملة اقسام مظللة بالاشجار الوارفة، يهتز فيها راكبو الجياد الاصيلة عجباً وتلمع فيها المركبات بخيولها المطهمة، وتكرّ عليها السيارات الرشيقة الزاهية، وقد جلس فيها علية القوم في أبهى حللهم وأبهج مناظرهم . وعلى الارصفة المحاذية لذلك الشارع ترى المشاة زرافات في حديث وهرج، ووحدانا شاخصين بعيونهم الى تلك المناظر البراقة ، وهم مئات والوف يموجون ويتزاحمون ويتقاذفون في شارع واحد الى غاية واحدة . حتى اذا بلغوا الحرش تدفقوا ،

كروافد النهر، الى الطرق التي تتشعب من الشارع الكبير كالاصابع من اليد المفتوحة .

لكن بعد مسير بضع دقائق تظهر لك دروب صغيرة زاحفة كالثعابين بين الخضرة وتحت ظل اشجار الحرش الباسقة . فاذا اخترت السير فيها افضت بك الى مريجات منفردة تبتسم لاشعة الشمس بعيدة عن غبار المركبات وضوضاء المواكب والراكبين والمتفرجين . هناك تجد اشجاراً نادرة ذات الوان رائعة وعطور غريبة يرتاح نظرك اليها و ينشرح صدرك لعزلتها . واذا جلست فوق بساط هذه المروج الاخضر الناعم وتأملت نضارة الوانها وزهاء زهورها واستنشقت شذاء نسيمها الرقيق واصغيت الى حفيف اوراقها وتغريد طيورها تحققت ان الطبيعة ترحب بك مبتسمة لك مخصوصاً متجلية امامك بابهى حللها ، وكاشفة لك عن اعز اسرارها . وكأنها تكافئك على هربك اليها من ضوضاء العالم ونبذك لتلك الظواهر المزخرفة طمعاً في الاستئناس بوحدتها والتمتع بجمالها والانفراد بغازلتها . فتشعر حينئذ وانت في قربها بلذة لا تجدها في ذلك الازدحام المزعج وتلك البهرجة الفارغة

هكذا دعوة الانسان . يندفع الشاب حتى يبلغ اشده في الطريق الرحبة التي يسلكها عامة الناس اي في سلك العلمانيين . ثم يختار احدى طرق العمل المفتوحة امامه كالتجارة او الصناعة او الخدمة . فيشتغل بتحصيل الثروة متوقعاً من ورائها الراحة وسعة العيش واللذة . ويابو بمعاشرة الاصدقاء والاقرباء والمواطنين ، فلا يلبث ان تتقاذف قلبه الالحاظ الساحرة وتتجاذبه الثغور الباسمة ، فيعلق و يعشق و يتمسك بأمنيته ظناً منه انها غايته القصوى وسعادته العظمى . وهكذا يلج باب الزواج والعائلة وهو الطريق الذي سلكه اجداده حيث يزدحم الالوف وتتعفر الصفوف

ولكن اين هذا وعيشة العزلة والعبادة وما فيها من سمو الغاية وسعة المجال وصفاء الاوقات وطهارة المسالك . فجوها ساكن هادىء وملاذها العقلية والروحية تفوق الملاذ العالمية عذوبة . وللراغب فيها من معاشرة المجتمعين في مروجها الواسعة الزاهية ذوي الاخلاق الرضية والفضائل العطرة والصدور الرحبة والمدارك السامية ما يعوضه اضعافاً من ملاذ العالم الممزوجة بالمرارة والقلق

٤ — دعوته

ما بلغ عبد الاحد الرابعة عشرة من سنه حتى ظهرت عليه سيماء الذكاء والدعة والحشمة واصبح محبوباً من اقرانه ومقبولا لدى كل من يعرفه (نأخذ ما يتعلق بحداثة المترجم عن مذكراته الخطية وعن سيرته للبودي المنشورة سنة ١٩٠٧ في المشرق) .فادخله والده المدرسة المارونية حيث تعلم القراءة والكتابة ومبادىء العلوم الاولية ثم ارسله الى مكتب الشيخ سليمان النحوي الشبير (المشرق ٦ : ٩٩) ليدرس عليه آداب اللغة العربية ويتضلع من صرفها ونحوها . فتعرف في هذا المكتب برفاق نادري المثال كجبريل فرحات وجبريل ابن الخوا ويوسف البتن . فصادقهم واخذ ينمو معهم في المعرفة والفضيلة . ثم اظهر له والده رغبة في ان يدرس اللغة الطليانية « ليدفعه في سلك التجارة ومعاطاة اشغال البندر »(هذا التعبير للبودي)فاطاعه مع اتجاه امياله نحو عيشة العبادة والانفراد . ولكن انّى له ذلك وليس في حلب ديورة للرهبان الشرقيين ؟ وكان يعلم بوجود رهبان ونساك في لبنان ، ولكن كيف الوصول اليها وهي على مسافة عشرة ايام من وطنه ، فضلاً عن جهله لحالها وسكانها ومناخها . وهل يسمح له والداه ان يهجرهما فيقطعا آمالهما فيه . فلبث متردداً . فتارة يفتح قلبه للعالم وملاهيه لعلّ قلبه يعلق فيه وينسى الرهبنة ، وطوراً يسمع في باطنه صوتاً خفياً يدعوه الى غاية اسمى ، فينكمش عن العالم وينكب على الدرس ومطالعة الكتب المقدسة وقصص القديسين والمتوحدين ، أو يمضي بعضاً من وقته بالحديث الروحي مع رفقائه المذكورين

ولكن لله في محبيه مواقف لا يحجم ان يسمعهم فيها صوته جلياً كما اسمعه لموسى في وسط العليقة لئلا يطول ترددهم في دعوته فيجتذبهم العالم الى صداقته . لما بلغ عبد الاحد الثامنة عشرة من عمره سمح الله بوقوعه في مرض شديد أوصله الى حافة القبر . فانفتحت عيناه على الآخرة ورأى ان الرهبانية هي الطريق الامينة التي توصله الى السعادة الحقيقية . فاخذ يشغل الايام الطويلة التي اضطر فيها الى ملازمة الفراش بقراءة الكتب الروحية وخصوصاً مطالعة كتاب سلم الفضائل للقديس يوحنا كليماكوس ،

وكتاب « بستان الرهبان » حيث كانت افكاره تسرح بانشراح « فيسمع صوت الرب في النسيم المتردد بين اشجاره الفردوسية» فوثق من دعوته الرهبانية وصمم على هجر الاهل والخلان سعياً وراءها في ربوع لبنان . وصار يتحين الفرص لاستئذان والديه فتقوم المصاعب في وجهه . خصوصاً ان مرضه وصبره ونجاته زاد تعلقهما به واصبح باجتهاده ورزانته موضوع آمالهما الاكبر بين كل اخوته .

فتريث واندفع مع رفاقه في تحصيل العلوم العالية على يد ملفان عصره وفخر زمانه الخوري بطرس التولوي استاذ العلوم المنطقية والشرعية والطبيعية والفلسفية واللاهوتية (يحصي الاب جرجس منش المطران عبد الله بين تلاميذ الخوري بطرس التولوي . المشرق ٦ : ٧٧٤ . راجع ترجمة هـذا العالم في المشرق ٦ : ٧٦٩ وما يليه) وكان يجتمع بهم يومياً ويخوض معهم في بحار هذه العلوم الواسعة الجميلة . واذا ما فاتحهم بامور العبادة والزهد في الدنيا كانوا يصغون اليه بانبساط ويؤمنون بلهف على كلامه وفي صدورهم جزوة من ناره . ولكن كان كل منهم يحجم عن التصريح بامنيته حرصاً على عرض قلبه . وللنفوس الابية حرمة يغارون عليها اكثر من غيرة العاشق

بقي على هذه الحال الى الحادية والعشرين . فلاحظ يوماً في جبريل حوا وميض ميل كميله فلم يتردد وكاشفه برغبته في ان يترهب في احد ديورة لبنان لينخرط في جندية الرب ويحمل نيره ويفتخر بشعاره ويمشي وراء رايته . فسر صديقه بذلك واظهر له مكنونات قلبه، فجاءت صورتها مماثلة لصورة معشوقته . وتعاهدا على السفر معاً الى لبنان بعد استئذان والديهما .

فسمح والد جبريل حوا لابنه بعد تردد قليل . ولكنه كالأب العاقل امره ان يقصد اولا الى ميناء طرابلس الشام بحجة التجارة ومن هناك يصعد الى كرسي البطريرك اسطفان الدويهي نسيبهم فيستشيره ويختبر حال البلاد وسكانها ومعيشة رهبانها، حتى اذا آنس من نفسه المقدرة على الثبات في الطريقة الرهبانية اقام هناك « ووعده والده ان يعينه مدى حياته» . (اللبودي في المشرق ١٠ : ٦٢٨)

ولما علم عبد الاحد بنجاح صديقه تشجع واطلع اباه على سره طالبا رضاه وبركته. فمانعه والده محتجاً بنحافة جسمه وشدة برد الجبال وشظف عيش رهبانها ، فضلاعن

جهله لامور العالم ومرارة الغربة وصعوبة أسر النفس ولجمها عن المحالات . وكانت الطبيعة تتكلم بلسان والده بكل ما لديها من حنان ، وتعرض على الشاب اشهى ما عندها من المشوقات العالمية . لكن عبد الاحد لم يصبُ اليها بل ارتمى على قدمي والده وتوسل وبكى في سبيل امنيته المرّة حتى رق قلب والده. والمحب يندفع في ارضاء محبوبه وإن داس على قلبه . لكنه شرط عليه ان يبقى الى فصل الربيع الدافئ، فيسافر مع الحجاج قاصداً الاراضي المقدسة بحجة زيارتها شأن كل مسيحي . ثم يعود بطريق البحر ويعرج على لبنان كمن يرغب في السياحة وترويح النفس . حتى اذا رأى بأم عينه وخبر بنفسه حالة البلاد والديورة وشعر بمقدرة على سكنى الجبال واحتمال معيشة الرهبان لبث هناك . والاّ رجع الى حضن والديه كمن عاد من الحج . هكذا كانت حكمة الاقدمين .

ففي شهر تشرين الاول من سنة ١٦٩٣ سافر جبريل حوا الى لبنان حاملاً تجارته ، راغباً في الارباح السماوية عن حطام الدنيا . ولم يكن أحد مطلعاً على سره غير والديه وصديقه عبد الله ، الذي وعده بان يوافيه الى هناك . لكن يوسف البتن احد اترابهما احس بنوامرتهما الروحية فجاء الى عبد الله وطلب ان ينضم اليهما فقبله فرحاً

٥ — سفره الى لبنان

وفي ربيع سنة ١٦٩٤ قاما للحاق بصديقهما بصحبة الحجاج عن طريق دمشق. فقطعا السهول والجبال والانهر الى ان وطئت ارجلهما الاراضي المقدسة حيث تتبعا آثار المسيح في اورشليم وتبركا من قبره وبكيا عند جلجلته واستمدا منه القوة على حمل صليبه والاقتداء بسيرته . ثم قصدا يافا ومنها ركبا البحر الى جبل لبنان .

ظلت الرياح تقذف بمركبهما ، وشطوط حيفا وعكا وصور وصيدا تستقبلهما وتودعهما الى ان اطلا على بيروت عروسة البحار المدللة . وهي منبسطة على الرمال الذهبية وقد اسندت رأسها الى الجبل واتشحت بحلة رمادية موشاة بخطوط خضراء زادت شمس الربيع الوانها نضارة وزهاء . وكانت الامواج المزبدة تداعب قدميها ومظلات النخل والصنوبر ترفرف فوقها كأنها ملكة لبنان ، وهي تنظر باسمة الى اليم الفيروزي ، والمراكب والقوارب تروح وتجيء امامها كالخدم والحشم حاملة

اليها والى القرى جواريها الملبوسات الناعمة والمفروشات الفاخرة والمأكولات اللذيذة

ثم اقلع بهما المركب قاصداً مدينة طرابلس . فأخذت جبال كسروان وجبيل والبترون تمر امامهما بقراها وروابيها وأوديتها كأنها مناظر متحركة حتى بلغا قلعة المسيلحة. وهي طود عظيم تقدم غير هياب في وسط اليم وفي بطنه كهوف ونواويس وآثار هياكل لجبابرة الفينيقيين اهل هذه البلاد الاولين . وقد سكن بعدهم في العصور النصرانية هذه المغاور نساك انقطعوا فيها عن البشر لا يرون امامهم الا جدرانها وسقوفها العابسة وهواتها العميقة ودهاليزها الحالكة ثم وجه البحر العجاج المتلاطم تحت ارجلهم ، وفوقه في السماء المنبسطة ، وجه الرب الصبيح

منظر مضيق الشقعة وقلعة المسيلحة

وما زالا متفرسين في هذا الرأس الضخم معجبين بعظمته وجبروته حتى لفت سمعهما ضجيج هائل قام حول جزر صغيرة بارزة على وجه البحر . فاذا بالامواج تتألب عليها وتدور حولها مزبدة مرغية ، وقد علا صياحها وهاجمتها من كل جهة ولطمتها لطمات عنيفة متواترة . فكانت المياه تتطاير فوق رؤوس الصخور شعاعاً وشهباً ثم

تتناثر في الفضاء، وتنصبّ عليها منحدرة من نخاريرها سيولا غزيرة، أو تتساقط بَرَداً على صفحة البحر الزرقاء.

ولما بعد المركب عن هذا المنظر المهيب وهذا الضجيج المزعج صار سكون وهدوء. ثم انكشف لهم فجأة مشهد اعظم مما سبق كأنه كان مخبوءاً وراء ستار. ففي الصف الاول ظهر ثغر طرابلس يبتسم لوجه اليم الازرق الزاهي كاشفاً عن أسنان لؤلؤية هي صفوف بيوته البيضاء. ووراء هذا الثغر جنائن غناء تغطي بقعة واسعة متموجة بالاشجار تصل المدينة بالجبل. وقد تسلقت البيوت كتف الجبل وازدحمت كي تشرف من اعلاه على هذه المناظر الخلابة. وخلفها على مسطح عال تنبسط سهول زغرتا والكورة الغنية. وفي آخر هذه السهول تبدأ سلسلة من الجبال صاعدة بشكل هلال عظيم رسمه الباري على لوحة السماء خطاً واسعاً يضم غابات واودية وتلولا ومئات من المزارع. وقد التف اعلاه حول غابة الأرز الشهيرة متخذاً الوانا وردية في النور وبنفسجية في الظل بلغت الغاية من الرقة. وترصعت اخاديده بالثلوج كصفوف اللآلي

فكان نظر المسافرين يدور في هذه البقعة حائراً معجباً حتى اذا بلغ الى قمتها تاه في السحب اللامعة الشفافة التي تجللها وتصلها بالافق الذي لا نهاية له.

فاخذا يتساءلان هل هما في يقظة ام تحت سلطة الاحلام. ولكن هل تستطيع مخيلة البشر ان تتصور ما ابدعت في صنعه يد الخالق قبل ان تجده في الطبيعة. وكأنه عز وجل احب ان يبقي لبني آدم صورة من جنة عدن التي طرد منها أبويهم فاوجد لهم هذه البقعة للذكرى. فتذكرا حينئذ ان في اعالي هذه الجبال مكاناً يدعى « اهدن » اي جنة عدن، كانا سمعا بوصفها وهي التي يقصدانها. فعاد نظرهما يرفرف محلقاً في اعلى تلك القمم باحثاً عن موقعها. فالتقى جبة الجنوب على علو شاهق بقرن « قيطو » الشامخ، وازاءه شمالا قمة جبل « سيدة الحصن » الذي كان واقفاً في الفضاء مستديراً كالتاج. والصخور مصطفة على جبينه كالحجارة الكريمة. فعرفا انه تاج اهدن عروس هذه البلاد.

وبعد ان نزلا الى البر ركبا قاصدين وادي قنوبين القريب من الارز، حيث كرسي البطريرك الماروني. فاجتازا اولا غابة واسعة من شجر الزيتون اوصلتهما الى قرية زغرتا العامرة مشتى اهدن. وهي كناية عن جزيرة يحيط بها نهران متزعان يسقيان بساتين وحقولاً تدر لها الخيرات من كل صنف. وكان يوم وصولهما عيد جسد الرب والبلدة مائجة بالشعب المعيّد. وزاد بهجة العيد فرحهم بلقاء رفيقهما جبريل حوا. فتصافحوا واخذ كل فريق يسرد على الآخر حوادث الايام التي مرت به بعد فراقهم وما لاقوه من الغرائب والعجائب. ثم اتفقوا على السفر حالاً الى شيخ هذه البلاد البطريرك اسطفان الدويهي.

ولما مثلوا بين يديه واظهروا له رغبتهم في الترهب قال لهم « انتم ذوو تنعم. ومعاش الجبال قشف والحروب في البلاد وسفك الدماء متصل. فهل يمكنكم احتمال هذا؟ ثم انكم لعاجزون عن شغل الفلاحة وتحمّل معيشة الرهبان القاسية » فاجابوه بتواضع وثبات كما اجاب بطرس سيده: نعم يا سيد اننا قادرون ان نحتمل » وطلبوا منه بالحاح رضاه ومساعدته (راجع اللبودي في المشرق ١٠ : ٦٢٩) فمال الى قبول طلبهم ولكنه اشار عليهم ان يختبروا اولاً بانفسهم طريقة رهبان البلاد ويختاروا الدير الذي يلائمهم. فمكثوا لديه زماناً زاروا في اثنائه اكثر ديورة البلاد. وكانوا يرون في رهبان دير قنوبين مثالاً حياً لغيرهم.

ودير قنوبين مغارة عظيمة سدّت بالبناء، واقعة في الجنب الايمن من وادي قديشا تحت غابة الارز العظيمة. يعزى تأسيسه الى أحد تلاميذ القديس تاودوسيوس منظم الطريقة الرهبانية الذي توفي في آخر القرن السادس للمسيح (راجع مقالة الاب لامنس اليسوعي في ديورة لبنان. المشرق ٤ : ٣٦٥) وفي جداري هذا الوادي العميق كهوف وحفر عديدة مأهولة بالنساك تراها فاتحة اشداقها المعتمة في فضاء ذلك الوادي العميق وقد كثرت حولها الحشائش والنباتات والاشواك المتدلاة

في الفضاء. وملأ عجيج النهر فراغ هذا الوادي وامتزج باصوات تسابيح المئات من العباد صاعداً معها الى السماوات ليحرك قلب الآب الازلي شفقة على مخلوقاته

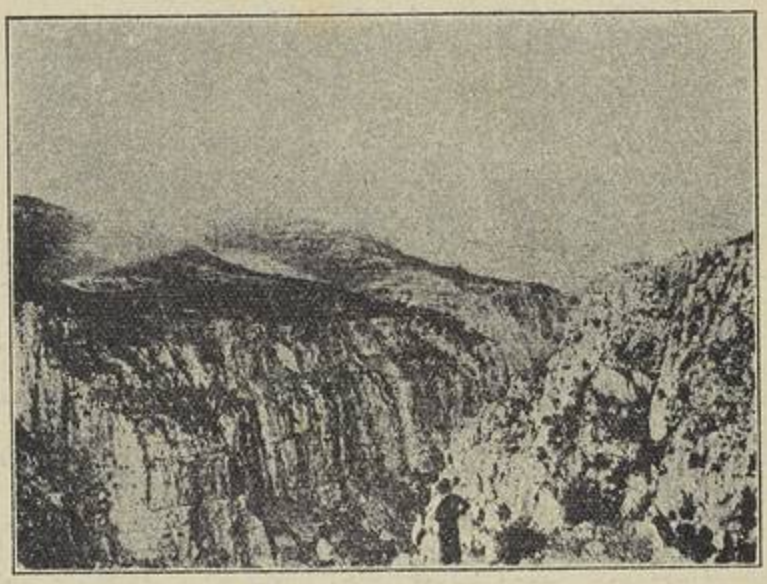

شفير وادي قديشا فوق قنوبين

الفصل الثاني

الرهبانية القديمة في لبنان

١ — في دير طاميش

اذا رغبنا في الوقوف على اهمية الاصلاح الذي تم على يد المطران عبد الله قرالي مؤسس الرهبانية اللبنانية وجب علينا معرفة الحالة التي كانت عليها الرهبانية قبله

كانت روابي لبنان تحمل على رؤوسها عدداً لا يستهان به من ديورة رهبان وراهبات ، وتضم اوديته بين اجنحتها مساكن كثيرة لهم ، وكانت صخورها تأوي بين شقوقها نساكاً كثيرين انقطعوا فيها عن الناس وحرموا انفسهم راحة البيوت

المنظمة والملاذ المستحلة . ولم تكن رابطة بين هذه الديورة ولا قوانين ولا أنظمة لساكنيها . المعروفين « بالعباد » . وكانت الديورة مزدوجة اي مقسومة بين الرهبان والراهبات ، اللواتي كن يقمن بخدمة الرهبان في الطبيخ والغسيل وما شاكل ذلك ويشاركنهم في الكنيسة والمعاش والخضوع لرئيس واحد .

وكانت فضائل سكان الدير وبساطتهم تبعد عنهم كل الظنون السيئة .

ولم يكن الحلبيون يفكرون عند مجيئهم الى لبنان بادنى تغيير في طريقة ديورة لبنان ، لكنهم لم يكونوا مطلعين على حقيقة امرها . فلما سنحت الفرصة لعبدالله بمعرفتها رأى ان في اختلاط النساء بالرجال خطراً عظيماً على فضيلة الطرفين وان في عدم التقيد بنذور واضحة وقوانين وانظمة مقررة فرصة واسعة لعدو الخير لاقلاق ضمائر الرهبان وتحويل نياتهم في عمل الخير والعبادة عن محجتها ودفعها بسهولة في الطريق العوجاء . فضلا عن ان استقلال هذه الديورة بعضها عن بعض يفقدها القوة الادبية والاقتصادية التي هي اكبر ضامن لنجاح الجمعيات وحفظ كيانها ومساعدتها على اعمال الخير العظيمة .

وقد جرب عبد الله طريقة هؤلاء العباد للمرة الاولى في دير طاميش كرسي المطران جبرائيل البلوزاوي اسقف حلب ، الذي انشأه سنة ١٦٧٣ واكثر له الارزاق حتى اصبح من اعظم ديورة كسروان . وقد بناه بقرب كنيسة قديمة لمريم العذراء مشيدة على اطلال معبد « ارطاميس » ابن الزهرة ، فعرف بدير طاميش . وهو واقع في قاطع كسروان على كتف وادي نهر الكلب الايسر وقائم على تل ضخم نبتت فيه شجيرات العفص والسنديان بين صخور رمادية مستديرة تخالها عن بعد قطيع غنم يرعى في المروج .

واتفق ان جاء المطران جبرائيل الى دير قنوبين حيث كان الحلبيون فتعرف بهم وسر سروراً كبيراً بعزمهم على الترهب في لبنان ودعاهم الى ديره طاميش . ولنسمع الآن عبد الله يقص علينا في مفكراته ما جرى له ولرفيقه يوسف البتن في

هذا الدير . ولا بد ان القراء يفضلون طلاوة حديثه و بساطته على كلامنا . قال :

« فارسلني المطران جبرايل ازور دير طاميش في كسروان فمضى معي اخي يوسف وشماس المطران وكان يدعى موسى الذي فيما بعد ترهب معنا وسيجيء ذكره في حينه . ومكثنا في دير طاميش باقي الصيف نحو ثلاثة اشهر وكان فيه تسعة رهبان والمطران وكثرة من الراهبات يسكن ناحية عن الرهبان . وكان ترتيبهم كباقي رهبان البلاد لا ينذرون النذر الرهباني انما يلبسون زي الرهبانية في اي يوم اتفق كنحو رأي المتقدم في الدير ، مع صلاة قليلة يصليها عليهم الذي يلبسهم الاسكيم. وعلى الغالب كانت المطارين تلبس الاسكيم الرهباني لا رؤساء الرهبان . وكان التزامهم بنذورات الرهبنة شكل تسلم ومفهوم العقل فقط من غير اقرار النية . والرئيس الذي يرأسهم في غياب المطران لم يكن اسمه عندهم رئيس بل يدعونه باسمه. وهكذا رؤساء كل الديارات لم يكونوا يدعونهم الا باسمهم قس فلان. وكلمة «ابونا الرئيس» لم يكن لها وجود في بني مارون اصلاً »

«ولم يكن عندهم ايضاً حدود لتجربة المبتدئين ولا حركات سجدات الرهبان للرؤساء وقوانين التأديب الرهباني بل كانوا سائرين بسذاجة صالحة للصالحين وخطرة لغير الصالحين .»

«وكان مطبخهم وكرارهم وغسل ثيابهم والخياطة بيد الراهبات الساكنات بحذائهم في مكان عزلة ، كما هي عادة بلادهم، والكنيسة مشتركة بينهم »

٢ — طريقة العبّاد اللبنانيين

واتماماً للفائدة رأينا ان نورد للقراء وثيقتين توضحان طريقة هؤلاء الرهبان العباد نأخذ الاولى منهما عن كتاب رحلة الاب ايرونيموس دنديني الى لبنان سنة ١٥٩٦ مقتطفين ما قاله في هذا الصدد عن الترجمة الفرنسوية لهذا الكتاب التي نشرها الاب ريشار سيمون في باريس سنة ١٦٧٥ (فصل ٢٣ ص ١٠٤) قال :

« لا يوجد هنا تميز في الرهبنات والقوانين كما في بلاد الغرب بل كلها على نوع

واحد . ومن رأيي ان هؤلاء الرهبان بقية من النسّاك القدماء الذين كانوا يعيشون بعيدين عن العالم في صحارى سوريا وفلسطين . لانهم لا يسكنون في حقول زاهية او فوق روابي جميلة ولا في مدن مزدحمة بل في اماكن منعزلة من هذه الجبال وفي كنف صخور عظيمة او في كهوف احرى بسكنى الحيوانات منها بالانسان »

« اما لبسهم ففي غاية من الفقر والخشونة . فهم يتشحون بثوب خشن ردىء غير مفصّل ويضعون على رؤوسهم قلنسوة سوداء تنحدر حتى اوساطهم دون ان تغطي الاكتاف . ومعيشتهم بسيطة جداً . يقتاتون مما تنبته الارض عفواً ولا يأكلون لحماً مطلقاً حتى في المرض وخطر الموت . ولا يشربون الخمر الا نادراً . وليس لهم قوانين خصوصية او تنظيمات مكتوبة يتقيدون بها كما في رهبنات الغرب . ولا ينذرون نذور الرهبنات اي الفقر والعفة والطاعة . لكنهم اذا دخلوا الدير يقرأ عليهم أحد المتقدمين بعض الوصايا والنصائح ويفهمهم ان الواجب عليهم حفظ العفة . وهذا كاف لان يتقيدوا بالعفة تقيداً شديداً حياتهم كلها . حتى انه لا يسمع عنهم من هذا القبيل شيء يثير الشكوك فيهم ويخدش سمعتهم . مع انهم يتجولون بحرية من محل الى آخر ويمضون بعض الاحيان اياماً عدة بين ذويهم . واذا ضجر احدهم من دير انتقل الى غيره بدون استئذان الرئيس »

« ولهم املاك واراض يتصرفون بها في حياتهم كما يشاؤون ويورثونها عند مماتهم من يريدون . ولا ريب ان هـذا خلل طرأ على عاداتهم . وهم لا يترشحون الى الوظائف ولا يأتون عملاً مفيداً للشعب كالوعظ والتدريس وسماع الاعترافات والارشاد وغير ذلك . فكأنهم لم يترهبوا الا لخلاص انفسهم »

« ويلقبون ذواتهم برهبان القديس انطونيوس مع ان هذا القديس لم يؤسس رهبنة . ويشتغلون في الزراعة اقتداء بالنساك القدماء الذين كانوا يصرفون قسماً كبيراً من نهارهم في شغل الحقول والعمل اليدوي تجنباً للكسل وتحصيلاً لمعاشهم. وهم ذوو ضيافة خصوصاً في دير قنوبين حيث المائدة مفتوحة السنة كلها ليس للموارنة

الذين لهم اشغال مع اهل الدير فحسب بل لعموم المسيحيين كافة ، حتى وللاتراك (المسلمين) انفسهم . وللضيوف ان يمكثوا في الدير ما شاؤوا »

وقد عثرنا في مخطوطة محفوظة في مكتبة حضرة الاب برنردوس غبيره الحكيم ، رئيس الرهبانية الانطونيانية سابقًا، على اشعار زجلية نظمها الخوري كامل نجيم ، أحد رهبان دير ريفون ، حوالي سنة ١٦٩٠، اي قبل مجيء المطران عبد الله الى لبنان باربع سنين، ذكر فيها كيفية تأسيس هذا الدير والذين ساعدوا في انشائه ، ثم انتقل الى ذكر فرائض العباد . واليك فقرة من هذه المنظومة نثبتها للقراء مع ركاكتها لانها وثيقة ثمينة توضح لنا كيفية معيشة هؤلاء الرهبان ونفسيتهم وتدلنا على ما كانت عليه اللغة العربية في لبنان في تلك الازمنة القديمة قال :

من يتبع درب القديس مار انطونيوس النفيس الرب ينجيه من ابليس
ومن حيل الشيطان

وضع لنا يا اخوة قوانين وهم يحفظونا من المجانين ويكونوا لنا معينين
في هذا الدهر الفاني

وبعد ذلك ننال الملكوت ونسجد دَوم لاسم الثالوث ونسبح لرب الجبروت
مع الآباء الرهبان

الذين حفظوا الرهبنة مع القوانين والمسكنة سكّنهم ربنا الجنة
انطونيرس والرهبان

كذلك من يريد يكون معهم وفي السماء يرافقهم يقبل القوانين متلهم
طاعة وعفة يا اخواني

والفقر ايضًا هو المسكنه ثلاثة قوانين للرهبنة يخلصوا الراهب من اللعنة
ويسكنه في الاجنان

ومن يريد يدخل بالمحاربه لازم يقعد بالتجربه لئلا تأتيه الكربه
ويصير من الندمان

وبعده ينذر على نفسه النذورات بحضرة رئيسه لئلا الشيطان يوسوسه
ويرميه في الطغيان

واما القديس البار مار انطونيوس المختار كوكب النجم المزهر
زايد عن الرهبان

كما هو باين من الاخبار ومن قصص باقي الابرار زاد هو عن جميع الاحبار
بالقوانين والاحسان

امتناع عن اللحم دايم قانون رابع دوم صايم نذر مختص ايضاً قايم
ومن يخالفه يكون سكران

ويقطع الاربعاء والجمعة ويصوم دايم الى التاسعة وصلواته تكون متشفعة
في من يتبعه من الآن

وايضاً خمسين يوم صيام مفروضة بتلك الايام والصلاة دايم دوام
يشكر ويسجد حقاني

في خامس عشر من تشرين يبدا بالصيام والقوانين ويطرد ايضاً المجانين
اعني بتشرين الثاني

وثاني صيام هو اربعين يوم بتاني الغطاس ايها القوم وهو صيام المسيح الى اليوم
يعيننا الله الرحمان

وايضاً اصوام الميلاد وبطرس وبولس يا اجواد يرزقنا الله العباد
وشفاعته يا اخواني

وقطاعة السيدة مريم تكون شفيعته بالعالم لينجو من جميع المظالم
ومن حريق النيران

ومن يتشبه بالقديس مار انطونيوس الحبيس ويخلصنا من ابليس
في صلوات الطوباني

قضا عمره في الصيام غياب الشمس كل الايام والصلاة ايضا قيام
نهاره وليله سبران

ومن جهة اللبس يا اخوة عبا عاللحم وقلسوه وبشتيك وزنار جلد حقوه
والنوم عالحصير كان

ولما يرقدوا الرهبان لا يحلوا زنار يا اخوان والقلسوه ايضاً كمان
ولا ينام عند العلماني

وايضاً لا يكثر الدوران ويأخذ حظره (حذره) من النسوان لئلا يوقع بالتوهان
ويستسلم للشيطان

وفي الديورة تكون سكنته تحت الطاعة مع اخوته ولا يكسل يقاع في شبكته
اعني مصيدة الطغيان

والصلاة تكون في اوقاتها في ليلها مع أشياتها ؟ ونهارها مع فرضاتها
تنال فيه الجنان

وقراية كتب المقدسين وايضاً قصص القديسين والرهبان المحبوسين
ليشفعوا فينا يا اخواني

وابداً على عريس لا نصلي ولا نصير اشابين بالكلي (بالكلية) ولا نحضر عرس بالحملي
ولا نركب خيل يا اخواني

والخمر لا تكثر شربه لئلا يرميك في السكربه ويرميك العدو في الضربة
وتسقط في النيران

ولا تكثر الحديث يا انسان لئلا توقع بالنقصان وتبقى من رفقة الشيطان
وتصير من الخسران

واهرب من مجد الباطل والاّ توقع في العاطل ومن الكبريا ايضاً ماطل

واحظر من الطغيان

واحظرك من الناس ورفقتهم ومن عطاهم ومعاملتهم ومن الدوران بينهم

تخسر كل الازمان

ومن الموت لا تكونوا غافلين وفي امور الله متكاسلين الاّ دايم متيقظين

في عبادة الرحمان

والمحبة لله وللقريب ونكون نحسن للغريب بالاكل والشرب ايها الحبيب

يكون لك كنزاً غير فاني

لان هكذا قال سيدنا بهؤلاء الوصيتين علمنا كمان الانبياء وناموسنا

وهم يرضوا الرحمان

فمن هذه الزجلية نستدل ان العباد كانوا عارفين بالنذور الثلاثة وحافظين لها وكذلك مادة « التجربة » التي يجب ان تسبق النذور بحضرة رئيس الدير . وان الفرايض والصيامات والتقشفات كانت معدودة من نصائح القديس انطونيوس ابي الرهبان وكانوا يزيدون عليها الانقطاع عن اللحم كل الحياة « كقانون رابع » . وقد رأيت انهم كانوا يمضّون اغلب ايام السنة في الصوم وقد عددها الخوري نجيم، وقال انهم كانوا يلبسون العباءة على اللحم ، على سبيل الاماتة لخشونتها ، وانهم كانوا يرقدون على الحصيرة من غير ان يحلوا حزامهم لما في ذلك من المضايقة . وكانوا يقيمون بصلوات النهار والليل في مواعيدها ويمتنعون عن تكليل العريس وحضور الافراح والبيات عند العلمانيين وركوب الخيل . ولا يشربون الخمر الا نادراً كما جاء في رحلة دنديني :

٣ — اول سعي في الاصلاح

رأى عبد الله معيشة هؤلاء الرهبان فرضي بها لتقشفها مع ما كان فيها من النقائص آملا ان يتوصل الى اصلاحها في نفسه وحمل رفقائه في المستقبل على الاقتداء به .

لكنه لم يقبل قط مجاورة الراهبات لما رأى في ذلك من الخطر على راحة ضميره، فتوصل مع حداثة عهده في الدير الى اقناع رفقائه بابعادهن. فوافقه على ذلك وكاد ينجح في ذلك لولا تشبث المطران. فقد كان الدير كرسيه وملكاً له وكان يستعين برهبانه على ادارة املاكه وقضاء اشغاله و بالراهبات على ترتيب المعيشة الداخلية. وكان هذا حال كل ديورة لبنان التي كانت مستقلة الواحد عن الآخر وخاضعة لاسقف المحل او للرئيس الخاص دون ان يكون هناك ادارة عامة او نظام معروف. ولنعد الى مفكرة عبد الله. قال:

« فمال خاطري وخاطر اخي يوسف للسكن عندهم بعد مشورة اخينا جبريل المقيم في دير قنوبين بشرط ان المطران يخرج الراهبات من الدير لاننا رضينا بمعاشرة الرهبان دون مساكنة النساء. ولذلك راسلنا المطران جبرايل على رفعهن من الدير فأبى. فاشتدت معنا الرهبان على هذا الرأي. والشماس موسى ومعه ثلاثة انفار من اجراء الدير عزموا على ان يترهبوا معنا وكان رأيهم كرأينا وتشددوا على المطران كثيراً ليرفع الراهبات فما امكن ذلك. وكان يحتج بان الدير يخرب بخروج الراهبات منه. ولما رأينا غرض المطران عدلنا عن الرهبنة في طاميش ورجعت انا وحدي لعند اخي جبريل الى دير قنوبين وبقي اخي يوسف في طاميش ينتظر مراسلتي. ولما كان اواخر السنة التي هي سنة ١٦٩٤ صار ضيقات في بلاد الجبة من الحكام وخرج البطرك اسطفان من قنوبين وجال في بلاد جبيل والبترون يزور القرى ويجبي البطركية واخذنا معه انا واخي جبريل بمنزلة شمامسة نخدمه. وكان لنا غرض وهو ان نزور ديورة بلاد جبيل والبترون ونميزها لعلها توافقنا للسكنى فيها. وفي تلك السنة كان حكامها مشايخ بيت الخازن حكام كسروان »

وما يجدر هنا التنبيه اليه حكمة وحسن نية عبد الله لانه اذ رأى عدم الفائدة من تشدد الرهبان على اسقفهم وخاف ان يتحول طلب الاصلاح الى عصيان على رياسته فضل الانسحاب وعاد الى دير قنوبين حيث كان رفيقه جبريل ينتظره

٤ — دير مار سركيس اهدن

وتابع عبد الله حكايته قائلاً :

« وكان ابتداء سنة ١٦٩٥ وفي اواخر الشتاء لحق السيد البطريرك خوف من باشة طرابلس فاختفى ورجعنا انا واخي جبريل الى دير قنوبين ومكثنا فيه الى ابتداء الصيف . وقدم الينا السيد البطريرك فاخذنا منه الاذن وصعدنا اكملنا الصيف في دير مار سركيس رأس النهر في قرية اهدن . وارسلنا اتينا باخينا يوسف من دير طاميش . وفي هذا الصيف كله لم نكن نفتر عن التفتيش والفحص عن مكان نسكنه وتدابير نتدبرها . وفي شهر ايلول استقر الرأي بيننا وبمشورة المطران جرجس مطران اهدن ان نسكن دير مرت مورا في اهدن »

* * *

اهدن قصبة عامرة في اعالي لبنان الشمالي ترتفع عن البحر نحو الف وستمائة متر تجدها نائمة في كنف جبل سيدة الحصن كالطفلة في حجر ابيها . وهو يحميها من الرياح الشمالية ويعرّضها طول النهار لاشعة الشمس الدافئة . بيوتها انيقة مبنية بالحجر الابيض المنحوت ومزخرفة بالرخام البنفسجي المستخرج من مقلع قزحيا الواقع غربيها. تجد هذه البيوت في القسم الاسفل من البلدة حقيرة متلاصقة متساندة كما يجب ان يتضامن ضعفاء الحال . وتراها في القسم الاعلى جديدة مستقلة عن بعضها شأن حديثي النعمة المعتدين بانفسهم . وهي تنظر بعجرفة من ذلك الارتفاع الى ما تحتها من البيوت الواطئة الفقيرة ، وتتنعم دونها برؤية اشجار الحور الرشيق القوام المجتمع حولها ، وبحفيف اوراقه الفضية وبالمناظر الواسعة التي تمتد تحت انظارها .

وتمتاز اهدن عن سائر قرى لبنان بوفرة خيراتها . فاملاكها واسعة ومياهها غزيرة تسقي نحو ستمائة فدان منها . فتخرج لها ينابيعها ما تحتاج اليه من الخضر وتقدم لها جنائنها الفواكه واحراشها الحطب والاخشاب ، وسهولها الحبوب ومراعيها اللحوم والالبان . واذا دهم الشتاء اهلها باريا حه وسيوله وثلوجه انحدروا الى مشاتهم

« زغرتا » فوق طراباس حيث تنتظرهم خيرات وافرة .

والاهدنانيون رشيقو القامة اقوياء العضل شديدو البأس ، تملكوا اراض واسعة في الجرد والساحل وحافظوا عليها بقوة سواعدهم . ولهم ولع شديد بخيلهم واسلحتهم ودينهم ، وخصوصاً بوطنهم الذي يفاخرون بجماله وتاريخه جميع البلدان المجاورة .

اما دير مار سركيس الذي قضى الحلبيون فيه صيف سنة ١٦٩٤ فقد كان البطريرك اسطفانوس الدويهي رممه حديثاً مع طاحونه كما يستفاد من حاشية [1] علقها بيده على كتاب اناجيل مخطوط سنة ١٤٤٩ م ومحفوظ بين كتب سيادة المطران عبد الله خوري النائب البطريركي الماروني . والدير والطاحون واقعان شرق اهدن على مسافة ميلين منها عند مخرج نبع مار سركيس الذي اطلق عليه اسم شفيع الدير .

قصدنا رؤيتهما عصر احد الايام في صيف سنة ١٩٢١ فتبعنا قناة النبع حيث تصطف اشجار الجوز والصفصاف والدلب والحور ومشينا تحت ظلالها والمياه الفضية تركض تحت اغصانها مسرعة نحو القرية . وعلى شمالنا جبل منتصب فوقنا يهددنا بالصخور الواقفة في اعلاه ، وقد تشبثت على منحدره الزلق اشجار الصنوبر التي كان النسيم يلعب بمظلاتها ويعبق من روائحها المسكية . وقد شغل صدر الجبل بدرجات الحافات اجتمعت عليها غرسات الكرمة . فمنها الدوالي انبسطت نائمة على سطحها وارخت جدائل شعرها على ظهر هذه الحافات ، ومنها العرائس تعشقت شجر الصنوبر فالتفت حول قامته وتطاولت الى عنقه فضمته باذرعها ونثرت شعورها في الفضاء ، فتسلمها النسيم .

وكانت الجنائن الغناء تكسو عن يميننا بقية منحدر الجبل فتخالها بساطاً عظيماً مفروشاً حتى الوادي صفت عليه الاشجار المثمرة اشكالاً والواناً كأنها الباقات . وكأن الفواكه المعلقة على هذه الاشجار من تفاح ومشمش وردي وخوخ بنفسجي ورمان ارجواني ودرّاق واجاص ذهبي هي زهور في رؤوس تلك الباقات .

وما زلنا نتمشى ممتعين البصر بتلك المناظر مستأنسين بصوت خرير المياه الذي

---

(١) راجعها في مجلة المشرق ٥ : ٥٥١ وفي تاريخ الدبس ص ٣٩٨

كان يشبه همس صديق يسر الى صديقه حديث اشواق وفرح باللقاء ، حتى دخلنا غابة كثيفة من الشربين ملأت رائحته افئدتنا وسحرتنا رشاقة قاماته . وهو صفوف متراصة كالجيش اقتمت خضرته ونسجت العنكبوت اشباكها بين اغصانه . وما سرنا في تلك الغابة بضع دقائق حتى خلنا انفسنا بعيدين اميالاً عن الاحياء لوعورة مسالكها ووحشتها

ثم ارتفعت فجأة اصوات مياه سادت تلك الخلوات . واذا بشلالات ترتمي بين الاعشاب والاشواك العالية وبجانبها بناء صغير ، هو طاحون الدير ، تسلقت الحشائش جدرانه القديمة ودار تحته دولاب ينسف الماء حوله رذاذاً ويغني موالاً طويلا ذا نغمة واحدة لا تتغير راقصاً حول نفسه . وقد ازدحمت حوله اشجار الصفصاف والشربين تهز رؤوسها طرباً ، وعلى افنانها ترقص العصافير الخفيفة متلاحقة من غصن الى آخر متناجية . وكان هناك زوج من الابقار اقترب من باب الطاحون ومد رأسه الى الداخل منصتاً بانشراح الى موّاله ومؤمناً عليه

ثم صعدنا قليلا فخفت ضجيج الطاحون وتبدد بين اشجار الغابة وظهر لنا فجأة دير مار سركيس الشهير وحوله اشجار جوز عظيمة . بهت حمرة سطحه القرميدي بين خضرتها . واعتلت السطح قبة رشيقة بيضاء تعلقت في عنقها اجراس لها اصوات شجية ، اذا قرعت اهتزت لرنينها الجبال المجاورة حبوراً وردّدت الاودية والاحراش صداها

والكنيسة قديمة مبنية فوق كنيستين اقدم منها . وفي صدرها صورة الشهيدين سركيس وباخوس القائدين ممتطيين حصانيهما . وقد تجدد الدير على طرز جميل سنة ١٩١٢ وهو يطل بواجهته الشرقية على النبع ويتسلط من جهة الجنوب على واد خصيب مغطى بالاشجار المثمرة يرتمي النهر تحت ظلالها

ثم صعدنا من ساحة الدير ببضع درجات فانكشفت لنا القناة وقد اتسعت بين الصخر والوادي . ولما اقتربنا من النبع رأيناه قد شق الصخر الجلمود واندفق منه بشدة ثم تفرع الى شلالات صغيرة ترتمي على الصخور ، او الى ضفائر فضية تسرع فوق الحصى البلورية ثم تجتمع كلها في القناة وتسير معاً نحو القرية

اما الجبل فقائم عمودياً فوق النبع ضاماً جنبيه ليحرسه . وقد تسلقت اشجار

الشربين حتى بلغت اعلاه ووقفت على كل شرفاته ونتوءاته . وفي اسفله اخربة دير قديم لمار عبدا مختبئ، تحت جنحه ومبني فوق رفرف من صخوره . وحوله باقات التين والحشائش من كل صنف نابتة في الصخر ومتدلية في الفضاء

واجتمعت حول النبع جماعة من الصفصاف المستحي ارخت شعررها حتى الارض لتستر قاماتها والماء يبل سوقها جذلاً متمتماً . وقد جلس القوم حول موائد صفت في ظلها ، فاتوهم ببنت الحان في زجاجات رشيقة العنق غطسوا اجسامها في الماء البارد على لآلي الحصى، فبشت. ثم جاؤوهم بالاراكيل وفي بطونها الورود وانزلوها في الماء الرقراق ، فامتزجت رائحتها بعبير الزهور وخريرها بهدير المياه . ثم احضروا لهم المأكولات والمخالات فشربوا عليها ارطالا

فجلسنا ننظر الى المياه المتدفقة من كل جانب وهي ترقص طرباً ، وننصت الى اصواتها الشجية التي كانت تشبه اصوات ارغن جمع انغاماً متنوعة متفقة فيطرب لها الجماد والخضرة فكيف لا يطرب لها الانسان. وكان النسيم يتردد ثملاً بين الاغصان والجلاس كصاحب البيت بين ضيوفه ، فينعش صدورهم ويسحر عقولهم ويثير في قلوبهم اشواقاً هيولية لا قرار لها لكنها لطيفة لذيذة ، ويخلق في رؤوسهم تصورات خيالية لا شكل لها لكنها جميلة واسعة زاهية . . . فيذوق الانسان في هذه البقعة العدنية طعم السعادة في الفردوس الارضي

٥ — دير مرت مورا

تاريخه — دير « مرت مورا » اي القديسة مورا قديم جدا . يستفاد من حاشية عثر عليها البطريرك الدويهي في كتاب انجيل كان محفوظاً في كنيسة البجه (مقاطعة جبيل) ان بناءه انتهى سنة ١٣٣٩ م . وهذه الحاشية بخط القس يعقوب رئيس الدير المذكور [١] وقد جدد البطريرك المذكور بناءه سنة ١١٩٠ كما يتضح من فقرة الحاشية التي علقها على انجيل سنة ١٤٤٩ م المذكور اعلاه [٢] وهذا نصها :

« وكذلك عند ما ترهب ابو ميخائيل انطانيوس ابن اصنون مسكنا بيده وعمرنا له دير مرت مورا. فكان كله خراب ما خلا الكنيسة . وعمرنا السوق الشمالي

(١) راجعها في المشرق ٥ : ٥٥١ وفي الدبس ص ٣٩٨ (٢) ص ٣٠٠ من المجلة

والخزانة التي بين كنيسته والشير اقبية وفوق منهم عليتين »

وقد عثرت بين اوراق دير اللويزة على الحجة ، التي سلم بموجبها اهالي اهدن الدير المذكور الى الحلبيين ، مؤرخة في شهر آب سنة ١٦٩٥ وممهورة بامضاء الراهب انطونيوس المذكور واولاده و بعض من كهنة واهالي اهدن وثلاثة اساقفة هم المطران جرجس (بيمين) مطران اهدن وجبرايل (الدويهي) مطران صيدا ويوحنا (حبقوق) مطران قزحيا [١]

ويظهر ان الامطار والثلوج التي تكثر في اهدن في فصل الشتاء خربت هذا الدير بعد قليل لان المطران عبد الله يقول في مذكراته انهم لما تسلموه « كان منهدماً كله الا الجزء القليل منه . وكان فيه راهب واحد غير كاهن كبير السن اسمه انطونيوس دخل فيما بعد في شركتنا . واخذنا في البنيان وترميم الدير مدة شهرين [٢] وكانت النفقة من مال القس جبريل والشماس يوسف البتن وانا لم اكن املك شيئاً من المال البتة » [٣] . ووجدنا في سجل الرهبنة اللبنانية المحفوظ في دير اللويزه [٤] « ان المصروف على عمار كنيسة هذا الدير وقلاليه وغير ذلك بلغ ٦٨٣٢ غرشاً . »

وصفه — وقد اصبح هذا الدير الحلقة الاولى من سلسلة الديورة المنضمة بعدئذ الى الرهبانية الحديثة . وهو واقع في اسفل اهدن في طرفها الجنوبي وواقف على صخر منتصب فوق قرية عينطورين [٥] بمئة متر تقريباً . وعلى جانبي الدير القديم

---

(١) راجع نصها في تاريخ الرهبنة للاب بليبل ص ٣٢ وقد اهمل حضرته ذكر الاساقفة وربما وضعت اختامهم بعد هذا التاريخ في صورة اخرى لم يطلع عليها .

(٢) يقول الاب بليبل (ص ٣٢) انهم حاطوا الدير بسور

(٣) يظهر ان صاحب الترجمة لم يجلب معه من المال غير الضروري لسفره . وذلك حبا لفضيلة الفقر . ولا نوافق المرحوم الاب رباط على انه كان « من عائلة فقيرة » لان اللبودي مواطنه ومعاصره يقول عن والديه « انهما كانا موسرين بالمال والثروة الدنياوية مشهورين بعمل الاحسان » (المشرق ١ : ٦٢٦) ويقول عنه فرحات صديقه وزميله في حلب ولبنان انه كان « ابن اناس اكابر في حلب » المجلة السورية ١ : ٤٨٧ (٤) ص ١١ حيث نقرأ « بيان المصاريف التي صرفتها الرهبنة من سنة ١٦٩٦ الى كمال سنة ١٧٣٨ منقولة عن رزنامة الرهبنة التي جابها معه الاب توما اللبودي اب عام الرهبنة حين اتى الى رومية سنة ١٧٤١ »

(٥) اسمها مركب من كلمتين سريانيتين معناهما عين الجبلين لانها واقعة بينهما .

تصطف الحقافي متدحرجة نحو القرية المذكورة وتحمل على اكتافها المزروعات وتبتسم بالوانها الزاهية الناعمة تحت نظر الصخور الحمراء العابسة. اما مساكن القرية فحقيرة اخنى عليها الدهر وجاءت الحرب الاخيرة فتركت اكثرها خرابًا. لكن الطبيعة حنت عليها لا بل احبتها ودللتها فوشحتها بثوبها الفخم المخملي وكستها حتى عنقها بالعرائش والحشائش المتسلقة. واجتمعت حولها اشجار الحور والجوز فغاتتها بقاماتها الرشيقة وبسطت عليها ظلالها الوارفة. وللطبيعة اسرار واميال غريبة وامانة تخجل انانية الانسان. فقد حفظت ذكرى مجد هذه القرية الاصيل ولم تهجرها في عهد مسكنتها بل حاطتها بعطفها وظرفها كما تطوق الفتاة عنق جدتها بذراعيها البضتين

وتستند بيوت عينطورين على كتف وادي قزحيا الايمن. اما شقيقتها «كفرصغاب» فقد اتكأت على كتفه الايسر ودنت بعض بيوتها من جدار الوادي العميق حتى اشرفت على شفيره. وكأنها خافت من منظره المهيب فتراجعت بقيتها متقهقرة الى الشرق.

وينتقل نظرك منها الى بلدة «بان» جارتها ويجتاز منها الى مصيف «الحدث» مارًا فوق وادي قديشا الذي تشعر به عميقا واسعًا. وتعد قرية الحدث من اصح مصايف لبنان لوقوفها على نتوء مستطيل يطل غربًا على البحر وشرقًا على وادي قديشا والارز الشهير. ولهذه القرية غابة من الارز الحديث العهد تعرف «بارز البطرك» تكسو ظهر جبل يعلو واديي قديشا وتنورين، مفتخراً بقامته وغابته على كل الجبال المجاورة.

واذا انحدرت لزيارة دير مرت مورا وجدته مهجوراً وحيداً. لم يبق منه غير قبوين متلاصقين معقودين بالحجارة يغطيهما سطح واحد. وفي داخل الاول منهما مذبح من حجر وفي زاويته حزن للمعمودية وباب تعبر منه الى القبو الثاني الذي كان يؤلف على ما يظهر الدير القديم المشيد من البطريرك الدويهي. وتجد شرقيه

آثار القلالي التي بناها الحلبيون . فاذا جلست اليها شعرت بعزلة وهدوء هذا المكان، الذي اختاره مؤسسو الرهبنة . لكنك تعتاض عن وحشته بالمشهد الواسع الذي ينبسط تحت نظرك والقرى العديدة التي تمثل لك العالم . ولا تلبث ان تسمع بقربك خرير ماء يتسرب بوداعة تحت الاعشاب كأنه يتحاشى ان يشوش عليك سكون هذا المكان . ثم تراه يتحول الى جذع شجرة هرمة من الجوز تكمشت جذورها في الصخور وارتفعت عن الهوة حتى كشفت الدير والوادي . فاذا دنت ساعة الغروب تطاولت اخيلة فروعها العارية ولمست جدران الدير القديم وكأنها تلاطفه . ولا عجب فهي اليفته الوحيدة في هذه الوحدة والصديقة الوفية التي لازمته اكثر من مئتي سنة بينما لا تدوم صداقة الانسان بضع سنين . لكن الايام قد ثقلت عليها فهرمت وتضاءلت وتناثرت اوراقها وانتخرت ثمارها وتكلكلت قشرتها وحلكت . وزادتها الوحشة والشيخوخة وذكرى ايام العز الزائلة حزنًا وانقباضًا .

الفصل الثالث

في رئاسة القس جبرائيل حوا

١ — الدرجة الانجيلية والاسكيم

ان النفوس الكبيرة السامية والقلوب الواسعة التي اختارها الله لحاشيته او لرعاية ماشيته ، لا تشبع الا من بهاء جماله وكمال اوصافه ، ولا ترتوي الا من خمرة حبه . فتراها تتجنب بكل ارتياح ملذات هذا العالم وتزدري وعوده وآماله وما فيه من بهرجة وسعة ولهو ولذة وحب وحنان . وتجد في عبادة خالقها والعزلة بقربه وخدمة مخلوقاته لذة وفائدة تفوقان ملاهي العالم الزائلة ولذاته الفارغة وآماله العقيمة . لان من يتكرس لله يعرف انه بهذه الطريقة يرضي باريه ويضمن ابديته وينفع قريبه بمثاله وارشاده واحسانه ومواساته . فكأنه ارضى الله والناس . وامامه مجال واسع تسبح فيه افكاره حرة من كل قيد بعيدة عن كل ما يشوشها. وما ادراك ما في هذا من اللذة الصافية . وهو واثق من ان اوقاته تثمن له باعلى الاثمان ، وانه لا تنسى له مشقة او عاطفة الا وتقيد في حسابه الاخير ، ولا تضيع له ثانية من عمره ولا نبضة من قلبه او فكرة من عقله في سبيل الله الا تضاف الى ثروته الروحية وتخزن له في الاهراء السموية .

فالفرح الذي يتولى قلبه يوم يلبس الاسكيم الرهباني، اي يوم يعد من اخصاء الله ، او الثوب الاسود الاكليريكي، اي يوم يعتبر من امنائه واولياء شعبه، لا يعادله فرح في هذه الدنيا .

وقد فاز عبد الاحد ورفيقاه بكلتا الامنيتين في وقت قصير وفرصة غير منتظرة واليك ما يقوله في مذكراته :

« في هذا الصيف (سنة ١٦٩٥) حضر عندنا والد أخي جبريل ووالدته

وكانا راجعين من زيارة القدس الشريف وطلبا من السيد البطريرك ان يرسم ولدهما اخي جبريل قسيساً ليفرحا به قبل افتراقهما منه . فقبل السيد البطريرك سؤالهما . ولما تحقق اخي جبريل ذلك جاء الي وطلب رضائي بذلك فأنعمت له واظهرت له اني اسر بذلك جداً فاجعله معلم اعترافي عوضاً عن ان اعترف عند كهنة القرى . حينئذ تمت رسامته من يد السيد البطريرك الذي رسمه اولا ورسمني انا ايضاً معه شمامسة انجيلية [١] وفي اليوم الثاني سامه وحده قساً من غير ان يلبس الاسكيم الرهباني بل بقي مثل كهنة العوام »

« ولما كان تشرين الثاني صار في البلاد خوف من الطائفة الحمادية [٢] فتركنا دير مرت مورا ونزلنا الى دير قنوبين نشتي فيه . فأخذ السيد البطريرك يحثنا على لبس الاسكيم المقدس . فأطعناه ولبسنا الاسكيم من يده نحن الثلاثة اي القس جبريل واخي يوسف وانا الحقير . ولم ننذر كما ننذر اليوم . بل وضع الاسكيم [٣] على رؤوسنا بعد صلاة قليلة كما هي عادة اديرة البلاد وكان ذلك في اليوم العاشر من تشرين الثاني من السنة المذكورة [٤] »

« وبعد ان لبسنا الاسكيم اجتمعنا وحدنا وتكلمنا في اقامة رئيس علينا . فاقمنا

---

(١) تقضي هذه الرتبة في الكنائس الشرقية على من يناله التقيد بالعفة حياته كلها

(٢) المتاولة من آل حماده وكانوا حكام تلك الجهات . راجع حوادث تلك الايام في المشرق ٤ : ٨٣٠ والدبس ص ٤٣٠ (٣) هو وشاح اسود يضعه الرهبان على رؤوسهم وينحدر على الكتفين . راجع ما جاء في الفصل السابق (ص ١٨) وتجد رتبة الاسكيم القديمة في مخطوطة محفوظة في خزانة بكركي نسخت سنة ١٦٥٠ اما الرتبة الحالية فهي للمطران عبد الله كما جاء في تاريخ الرهبانية للمطران فرحات حيث يقول في حوادث سنة ١٧٠٥ ما يلي : والرئيس (المطران عبد الله) كتب شرطونية لبس الاسكيم واثبت صورة النذورات الاربعة فيها ، وتثبيت القانون مؤسس على هذه الاربع نذورات »

(٤) اصبح هذا اليوم عند الرهبان اللبنانيين موعد اجتماع المجمع العام الذي يلتئم كل ثلاث سنين لانتخاب الرئيس العام والمدبرين وبقية رؤساء الرهبنة وموظفيها الكبار .

القس جبريل [١] . ولم نمكث الا زمانا قليلا وسافر السيد البطريرك نحو بلاد كسروان خوفاً من باشة طرابلس [٢] ونزلنا نحن الى طرابلوس في ابتداء سنة ١٦٩٦ واستأجرنا بيتاً في دير اليسوعية وشتينا فيه [٣]

« وفي اول الربيع صعدنا الى دير مرت مورا واكملنا في الصيف باقي البنيان اللازم . وفي هذا الصيف كتبنا نحن الثلاثة تمسكا على انفسنا بان من افترق من اخوته لا يأخذ معه شيئاً من المال . وختم المطران جرجس التمسك المذكور » [٤]

٢ — دير مار اليشع . تاريخه

« ثم تذاكرنا في حال الدير والشتاء والثلج الكثير الذي يصير فيه ورأينا ان الاوفق لنا ان نمتلك موضعاً دافئاً للشتاء غير ديرنا . وكان اهالي قرية بشري يدعوننا الى اخذ ديرهم مار اليشع الكائن في الوادي المقدس . فسار الاب الرئيس اليه وانا معه وتملك الدير المذكور برضى اهالي القرية . ونقل الاب الرئيس اليه البعض من الرهبان الذين قدموا ليترهبوا معنا [٥] واخذ معهم الشماس يوسف بمنزلة رئيس في غيابه لان الرئيس العام هو الذي كان يسوس دير مار اليشع ووكلني انا في سياسة دير مرت مورا . ولما حضر عبد الصليب انتدبني الرئيس لسيامة الكهنوت . فاقتبلت وضع اليد من السيد المطران جرجس [٦] »

وهذا الدير قديم جداً . ذكر الدويهي [٧] «ان بطرس اسقف بشراي كان في سنة ١٣١٥ مترئساً على دير القديس اليشاع في وادي نهر قديشا»

اطلعنا في صيف سنة ١٩٢٣ على سجل هذا الدير الذي نظمه حضرة القس

---

(١) لانه كان كاهنا اي اكبرهم درجة . (٢) راجع تاريخ الدويهي ص ٢٥٦ .

(٣) لارتفاع اهدن عن البحر وقساوة بردها . (٤) المطران يمين الشهير وسيأتي الكلام عنه . ولا بد ان يكون الساعي في هذا الامر عبد الاحد نفسه لانه لم يجلب من بيت ابيه شيئا من المال وكان خائفا من انسحاب جبريل حوا لانه غير مقيد بنذر الفقر . فاستعاض من النذر بهذا التمسك

(٥) يذكر سجل الرهبانية ان القس جبريل حوا البس الشابين الياس الحلبي ويعقوب (زوين) الغزيري الاسكيم الرهباني في ١٠ تموز سنة ١٦٩٦ . (٦) اذا سيم كاهنا في ١٤ سبتمبر سنة ١٦٩٦ وكان عمره ٢٢ سنة (٧) ص ١٢٧ .

بطرس خوري الرعشيني احد رؤسائه المتأخرين [١] فوجدنا فيه حججا قديمة مع خلاصة تاريخ هذا الدير للاب المذكور نأخذ عنها ما يلي

ان القس جرجس بن حرواص من قرية عرجس بنى الدير القديم في سفح الوادي في عهد المقدم يوحنا سنة ١٥٣٣ . ولما رقي الى درجة الاسقفية جعله مركزاً لاسقفية بشري . وفي سنة ١٥٤٧ وُقفت عليه « مزرعة مارنوهرا » على جناح وادي قديشا الايسر تحت قرية بقرقاشا ، المشيد عليها الدير الحالي

وفي سجل الدير حجة قديمة بخط المطران حنا البشراوي يذكر فيها وقفية عربة التوتا . وخلاصة حكايتها ان ابنة المقدم عاشينا [٢] ام جمال الدين حضرت الى الاسقف المذكور وهو في حلب واعترفت له انها اخذت من دير مار اليشع ، لما كان مهجوراً ، بعض أشياء تصرفت فيها هي وابنها وهي « اربعون رأس معزى وفردة فدان (ثور) بخمسة عشر قرشاً وطنفسة (سجادة) جديدة بستة قروش وسطلين وماعونين و بلاسين جداد [٣] و بدله وحوايج الكنيسة بربعين قرش [٤] وانها تريد توفي ذمتها وما عاد لها قدرة توفي الدير فتعطيه عوضاً عنها الطاحون التحتانية وارض عربة توتا كلها والكروم التي قدام الطاحون » وهذه الاراضي تؤلف مزرعة واسعة غنية بيعت في اواخر القرن الماضي لعمار الدير الحالي .

وسكن هذا الدير الناسك الفرنسوي الشريف فرنسوا دي شاستويل وتوفي و دفن فيه سنة ١٦٤٤ . وقد كتب السائح دلاروك سيرته [٥]

وفي سنة ١٦٩٦ تسلم الرهبان الحلبيون هذا الدير مع كل اوقافه واثاثه . حتى ان وكلاء وقفه اعطوهم ما كان فائضاً لديهم من مدخوله . واليك الحجة التي كتبها لهم آل بشري نقلا عن سجل هذا الدير وهي وثيقة تمثل بعض عادات تلك الايام

---

(١) الان وكيل البطركخانة المارونية في شبرا بمصر (٢) الذي قتله اخوه رزق الله حوالي سنة ١٥٧٠ راجع الدبس ص ٢٧٨ (٣) البلاس بساط يحيكه البدو من شعر المعزى . (٤) حسب القس بطرس المذكور ان قيمة هذه الاشياء بلغت ٦١ قرشا من عملة تلك الايام . (٥) راجع رحلته الى لبنان المطبوعة في باريس سنة ١٧٢٢ مجلد ٢ ص ١٧٣ راجع ايضا الدبس ص ٣٩٢

«وجه تحريره هو اننا اتفقنا مع ريس رهبان الحلبيين ان يرسل الى دير مار اليشع الذي في قريتنا بشراي رهبان من رهبانهم ليسكنوا في الدير المذكور حتى لا يخلو الدير من رهبان . ولا يكون عليهم مال ميري ولا نطالب منهم درهم الفرد من نوع التكاليف العايدة الى الميري ولا من غيرهم . فان ارادوا يشدوا بقر في القرية من غير التزام نأخذ منهم على تبديل الشنبل نصف قرش لا غير واذا جددوا كرم ، ما نأخذ منهم خراج ولا نكلفهم عليه شيء . وعلى هذا قول الله ورأي الله لا نغير ولا نبدل وصار هذا الشيء برضانا وطيب خاطرنا نحن اولاد القرية عموم»

«تحريراً في يومين خلت من شهر شوال سنة ١١١٧ الموافقة لسنة ١٦٩٦ مسيحية»

باقي اهالي	بطرس رميا	مقر بذلك
القرية عموم	وقرايبه	كيروز وقرايبه

روى لي حضرة الاب يوسف الشدياق احد كهنة بشري نقلا عن تقاليد قديمة ان احد الافرنج قصد الى بشري للانفراد وسكن غرفة كانت بلصق الدير [1] . ولما توفي جاء احد اقاربه من الرهبان الكرمليتان واحتل الغرفة المذكورة واستولى على كتبه . ثم جاء بآخرين من رهبانيته فسكنوا الدير . وكانوا يصعدون كل يوم أحد الى بشري لالقاء الوعظ . فقدم لهم البشراويون دير مار سركيس المنقور في الصخر شرق قريتهم ليكفوهم عناء الصعود اليهم ويستفيدوا من خدمتهم الروحية وتعليمهم للاحداث . لكن الرهبان المذكورين ظلوا طامعين في دير مار اليشع لوفرة اوقافه . ففكر البشراويون ان يسلموه نهائيًا الى الرهبان الحلبيين ليتولوا تعليم اولادهم ويردوا مطامع الافرنج في الدير

وقد عثرت في سجل الرهبانية الحلبية على وثيقة اخرى سلمها البشراويون الى الحلبيين يظهر من مضمونها ان الداعي لكتابتها منع مزاحمة الكرمليتان لهم على بعض املاك الدير المذكور واليك نصها :

---

(١) هل التقليد يشير الى الناسك الفرنسوي المار ذكره .

« وجه تحرير الاحرف هو انه قد قاطعنا وشارطنا قرابتنا القس جبور [١] وباقي رهبانهم ومن تخلف بعدهم واتفقنا واياهم على شروط اولاً لا يسكن الوادي احد لا راهب ولا علماني لا رجل ولا امرأة . ولا يسلك فيها درب ولا احد يتصرف بشيء مما لهم ولا يحاشرهم في اراضي ولا في شجر ولا في عريش ولا في غيره دون توت الدير بتصريف اولاد السيصانية . وجميع الباقي في الوادي بتصريفهم من غير الذي في يد الافرنج الذي في يدهم . وغيظ بادرية الفرنج مرفوع والا يعرفوا حدودهم. وان عمروا في الكنيسة او في الدير او برا الدير فليس لاحد تعلق مع رهبان الحلبية بشيء لا من الضيعة ولا من غيرها وان احد قارشهم فعلينا المدافعة والمشافعة ولا نخلي احد يطالبهم ام ينكد عليهم . وعلى هذا قول الله ورأي الله اننا لا نبدل ولا نغير معهم هذا الشرط لا نحن ولا اولادنا وعلى هذا صار الرضا ما بيننا وبينهم والله على ذلك وكيل . حرر في ١ نيسان سنة ١٦٩٨

شدياق مخايل	يزبك كيروز	شدياق انطونيوس
حنا رحمه	بطرس رميا	عبود ابن جبيلي
ابو مخايل سكر	ابو جرجس رعد	

وقرأنا في سجل الرهبانية الملحوظة الآتية : [٢] « ان المذكور كان ديراً بالاسم لان ما كان فيه من العمار كان حقيراً . وكانت كنيسته مغارة تحت الصخر فبنته الرهبنة وفتحت فيه مدرسة لتعليم الاولاد اللغتين السريانية والعربية وما يجب معرفته من الديانة الكاثوليكية وذلك مجاناً . وتكلفت . ٥٣٦ قرش على ترميم الكنيسة وعمار الدير كي يصلح لسكنى خمسة وعشرين راهباً »

وفي سنة ١٧٠٠ حمل الرهبان الحلبيون اهالي بشري على ان يجددوا لهم باسمهم

---

(١) جبرايل حوا الذي كان يدعي القرابة مع البطريرك اسطفان الدويهي وان اسرته خارجة من اهدن ولكننا لا نعرف وجه قرابته مع ال بشري ومقدميها الشدايقة . وربما كانت سياسته التقرب من الجميع . وقد اخبرني حضرة الاب فرنسيس فخري البشراني من الرهبنة البلدية ان بيت حوا ينتمون الى اسرة فخري البشرانية (٢) ص ٨ منه .

وقفية مزرعة مارنوهرا المار ذكرها الموقوفة على الدير في سنة ١٥٤٧ . فسلموهم بها حجة تاريخها ٢٨ نيسان سنة ١٧٠٠ . وقد فاز المطران عبدالله من محمد عيسى حماده حاكم جبة بشري بنميقة يظهر بها رضاه عن هذه الوقفية « ويعاهد نفسه مع الرهبان على الشرط الذي اشرطوه اهالي بشري » والوثيقة ما زالت محفوظة في سجل الدير وهي موجهة الى اعز الاحباء القسيس عبدالله (قرألي) والقسيس جبرايل [1] .

وفي سنة ١٧٢٩ اوقفت الست سنتا الخازن على هذا الدير مزرعة مار تادرس .

وفي سنة ١٧٣٩ احترق جانب من الدير كما جاء في رسالة وجهها في هذه السنة الاب توما البودي الى القس يوسف قرألي الموجود في رومية [2] يخبره فيها «ان احد اجراء الدير كان نائماً في العلية التي يدخلون منها الى ممشى مار انطونيوس ، فابقى السراج المعلق منيراً . فانقطع خيط السراج ووقع على صندوق داخله كتب واوراق لاولاد المدرسة فاشتعلت واحترقت القلاية الكبيرة المعدة للضيوف والرواقة التي في اعلا الدرج والقلالي التابعة للعلية وقلالي صف مار انطونيوس مع الحاصل الذي فوق الغرف والمعاجن والكراسي . وكانت اكثر الغلال هناك . فكانت الخسارة نحو ثلاثة آلاف قرش من دون العمار »

ويظهر ان مزرعة مارنوهرا او جزءاً منها كان في سنة ١١٨٤ هـ (١٧٧٠ م) من اراضي « البكليك » المخصص لمعاش الامراء . فجدد الامير يوسف شهاب وقفيتها على الرهبنة وسلمها بها حجة مؤرخة في جماد الاول من تلك السنة .

وفي النبذة التي كتبها القس بطرس الخويري تجد اسماء رؤساء هذا الدير من سنة ١٧٩٣ الى سنة ١٩١٣ مع بعض حوادث تتعلق به . وقد ذكر فيها ان احواله المالية تأخرت في اواخر القرن التاسع عشر وكادت املاكه تباع لاحد الممولين في سنة ١٨٧١ . فارسل المطران امبروسيوس نطين الدرعوني الذي كان رئيساً لدير الحلبيين

---

(١) فرحات رئيس الدير في تلك السنة . (٢) راجعها في بليبل ص ٣٢٢

في رومية مبلغ ٢١٠٠٠ قرش لوفاء ديونه فاستفكت املاكه . (١)

وفي سنة ١٨٧٤ ترأس عليه القس جرمانوس الدلبتاوي فنقله الى مزرعه مارنوهرا في رأس الوادي ، على الجناح الايسر منه ، وشيده على صخر عظيم داخل في ذلك الوادي ومستقل عما حوله . واقام في وسط الدير كنيسة جميلة على اسم مارنوهرا ونقل الرهبان الى البناء الجديد هاجراً دير مار اليشع في الوادي

وفي سنة ١٩٠١ اقيم القس يوسف السمعاني الحصروني رئيساً عليه فقسم املاكه بين الديرين وتولى هو الجديد وترك القديم للقس جرمانوس الرئيس السابق . ففكر المذكور في ترميمه وتنظيمه فمحا معالم هذا الدير الاثري الذي عاش فيه آباء الرهبانية الاولون .

وقد زرناه في سنة ١٩٢٥ فلم نجد من هذه الآثار سوى غرفة المطران قرألي وبعض هياكل الكنيسة . وهو مهجور الآن ينظر حزيناً من قعر واديه الى الدير الحديث ذلك البناء الشاهق المتعجرف المنتصب فوق الصخر ، وقد تقبع بسطح قرميدي احمر لا تتركه الحاظ الشمس كيف ما اتجهت .

٣ — وصف الدير الجديد

ومركز الدير الجديد يقع في نفس من يشاهده موقع الارتياح والعجب . فقد انبسط باجنحته الاربعة فوق ذلك الصخر العظيم وانفرد عن القرى المصطفة حوله

---

(١) راجع « المذكرات التاريخية في الرساله المارونية في مصر » للاب يوحنا نطين المطبوعة في سنة ١٨٩٣ في ليفورنو باللغة الطليانية ص ٢٤ . وقد اخبرني سيادة المطران ميخائيل اخرس رئيس اساقفة حلب الماروني عن اصل المال الذي تبرع به المطران امبروسيوس لدير مار اليشع قال : ان الخوري ميخائيل الكلداني الحلبي قد وسط المطران امبروسيوس المذكور لدى بعض انتشار الايمان المقدس ليسمح له بالتجول في جهات اميركا لجمع الحسنات لبناء كاتدرائية حلب المارونية . وتعهد له ان هو فاز له بهذا الاذن ان يتنازل له عن ثلثي المجموع . فجمع الكلداني من اميركا اثنين وعشرين الف ليرة ذهباوسلم ثلثيها للمطران امبروسيوس والبقية حفظها لتشييد كنيسة حلب . وترى للان في دير الرهبان الحلبيين في رومية صورة كبيرة زيتية للاب ميخائيل الكلداني اقرارا منهم بمعروفه

على ارتفاع مختلف . وهو منحوت الحجارة متين البنيان عليه مسحة من العظمة والجمال والقوة . وقد زخرفته النوافذ الخضراء وتعلقت فيه الشرفات فوق فضاء الوادي الهائل،وغطاه سطح عظيم من قرميد احمر زهت الوانه بين خضرة تلك الجهات وزادته الشمس تيهاً . فان تأملت تلك الخضرة الكثيفة التي تحيط به من الجهات الثلاث وقد ظهرت فيها القرى نقوشاً مختلفة الالوان ، خيل اليك انها شال ثمين مخملي التف حول عنق ذلك الدير الجميل ، وأن بيوت القرى الانيقة حصرون وبزعون وبقرقاشا وبقاع كفرا على جناح الوادي الايسر ، وبشري وحدشيت على جناحه الايمن ، وشي دقيق في ذلك الشال مرسوم بخطوط رمادية وحمراء وبيضاء على قماشه الزمردي البهيج .

واذا وقفت على شفير الصخر المبني عليه الدير والقيت نظرة الى بطن الوادي المفتوح تحت قدميك راعك ذلك المشهد الجامع بين الهيبة والوعورة والظرف .فترى اولاجداري الوادي الجبارين انتصبا عمودياً على ارتفاع نحو اربعمائة متر ، وقد غيرتهما الايام بلون احمر قاتم محروق وانفتحت فيهما المغارات والكهوف ، واصطفت عليهما رفوف الخضرة من حشائش شائكة متسلقة وعرائش متدلية متدللة تخالها اشناب هذين الجبارين . وقد تقطرت المياه من الينابيع العديدة المتفجرة فوق كتفي الوادي وتسربت على وجهي الجدارين فبلت بشرتهما المحروقة وتساقطت من اشنابهما . فعلت ذلك غير هيابة كانها عالمة بطيبة سريرتهما مع توحش هيئتهما . فلقد آوت هذه الصخور في شقوقها وهذه المغارات في بطونها نساكاً هادئين وعباداً وديعين ، وأضافت رجالا مطرودين مظلومين من مقدمي ورؤساء الشعب اللبناني الباسل ،الذي

لبث ثلاثة عشر قرناً متشبثاً في هذه الاودية المظلمة والجبال الوعرة حرصاً على دينه وحريته

واذا حولت نظرك الى الشمال واجهتك قرية حدشيت ، منبت اسرة المترجم ، وقد تجمعت بيوتها القديمة فوق صخر آخر يتقدم في لجة الوادي العميقة كأنه جبهة باخرة عظيمة واقفة في ميناء مدينة جبلية . وقد كست المزروعات ذلك الجبل من سفحه الى قمته ، وتدفقت المياه من اعاليه وانحدرت جداول لامعة بين تلك الخضرة ، حتى اذا وصلت الى القرية دخلتها بضجيج ودارت مسرعة بين بيوتها ، ثم قصدت الى نتوء ذلك الصخر وقفزت من علوه الشاهق الى الوادي العميق المظلم ، الذي لا ترى العين قراره .

وشرق حدشيت قصبة بشري الشهيرة احتلت بيوتها كتف الوادي الايمن وحمت مدخله . بيوتها متراصة متكاثفة تشغل معظم سفح الجبل المتفرع من جبل الارز وقد كسته ايضاً الخضرة ثوباً مخملياً وتلألأت فيه خيوط الجداول الفضية. فاذا حولت الشمس اليه وجهها أبرقت اسرته وتجلى في الفخم واجمل حلله

وان تفرست في اسفل الطود الذي يحمل القرية وهو اجرد محمر اللون عابسه رأيت، على مسافة نحو ثلاثمائة متر تحتها ، دير مار اليشع القديم مختبئاً في احد الكهوف ساداً بجداره فتحة ذلك الكهف . وقد اتخذت حجارته القديمة العهد لون الصخر واصبح جزءاً منه، لولا كواته الصغيرة ، الظاهرة فيه كنقط سوداء ، لما ميزته عنه .

وبين الدير والنهر نتوء ترابي عفت عنه السيول الجارفة وتمسكت فيه اشجار الشربين التي تظهر لك من علوك الشاهق كحراب مشكوكة في صدر الوادي . وتحتها نهر قديشا يتخبط بين الصخور ، وقد ازدحمت الاشجار والمزروعات على ممره فانتفخ عجباً وملأ بعجيجه فراغ ذلك الوادي العظيم .

٤ — بوادر الخلاف

وجدت الرهبانية الحديثة في اول نشأتها اقبالا وتنشيطا ، مع انها لم تكن مؤلفة سوى من اربعة اشخاص ثلاثة من الحلبيين وراهب وطني . لكن المبادىء التي ساروا عليها منذ البدء والصفات التي تحلوا بها والخدمات التي قدموها للشعب جعلت الرؤساء الروحيين يقومون بمساعدة جمعيتهم ، والمشغوفين بعيشة الانفراد والصلاة يتراكضون للانضمام تحت لوائها والشعب يتسابق لتقديم ديورته لها . واول مواردها جاءها من باب التعليم .

وسترى فيما بعد ان الحلبيين كانوا في مطلع القرن الثامن عشر رجال النهضة الادبية وخصوصاً العربية في لبنان وسوريا . جاؤوا الى لبنان فوجدوه خالياً من المدارس والمعلمين وعطشاً الى العلم فأنشأوا بجانب كل دير مدرسة حتى عمت المدارس لبنان كله وكانت تكثر كعدد الديورة التي تنشئها الرهبنة او تضمها اليها . لان العباد الذين كانوا يعيشون منفردين مستقلين لا نظام لهم ولا قانون رأوا ان راحتهم الروحية وخلاص نفوسهم وتثقيف عقولهم مضمونة تحت لواء هذه الرهبنة المنتظمة ، فكانوا يقدمون لها ديورتهم واوقافهم و يدخلون في سلكها فرحين مطمئنين

واول مدرسة فتحتها الرهبنة كانت بجانب اول دير تملكته اي دير مرت مورا في اهدن . وقد تولى عبدالله بنفسه تعليم احداث هذه القرية ولم يتكلف الرهبان ، لفقرهم وضيق ديرهم ، اقامة بناء خاص بها بل رأوا استخدام ما بناه الله وسقفه ، وهو شجرة جوز بقرب الدير كان عبدالله يصف تلامذته تحت ظلها . فكان منظر الوادي النضر وقبة السماء الواسعة مع طلاقة الهواء ونقاوته تعيضهم من غرف ضيقة وجدران كالحة ، فتتغذى نفوسهم بالعلوم وصدورهم بالهواء البليل وعيونهم بسعة المناظر . وقد عاشت هذه المدرسة الخضراء الى عهد قريب ، بعد ان أوت تحت ظلالها اجيالا

كثيرة من التلاميذ وعمرت خمسة اضعاف اعمارهم . وقد حرقتها اخيراً يد اثيمة فاقتلعت . وكان عبدالله يقود صغاره في اوقات الصلاة الفرضية الى كنيسة الدير فيقومون بالتسابيح الالهية ويترضون باصواتهم الملكية العزة الالهية عن اهاليهم ، وينصرفون بعد صلاة الغروب الى بيوتهم .

وكان في اهدن اسقف نابه غيور فاضل عالم يدعى المطران جرجس بن يمين اشتهر بالوعظ والارشاد حتى لقب « بالكاروز » فعلق على هذه الرهبنة الصغيرة آمالا كبيرة للوطن والطائفة، وقام بتشييد مدرسة في زغرتا مشتى اهدن على اسم القديس يوسف ، تشرفت بان يترأسها في اول امرها المطران عبد الله قرألي ثم المطران جرمانوس فرحات . وقد سلمها مؤسسها بعد انخراطه في سلك الرهبانية اليسوعية الى الآباء اليسوعيين الذين عهدوا بها بدورهم بعد الغاء رهبنتهم في سنة ١٧٧٣ الى الآباء العازاريين كما هو مشهور [1]

فلما جاء الشتاء بامطاره وزمهريره نزل الاهدنيون الى مشتاهم في زغرتا ولحقهم عبد الله وقضى ذلك الشتاء في تدريس الاولاد، ثم عاد معهم في الصيف التالي الى اهدن وثابر على التعليم الى ان استبدله الرئيس بغيره في آخر الصيف .

وقد كان الرئيس في حاجة اليه لوضع القانون الرهباني كما قال عبدالله في مذكراته:

«وفي هذه السنة (١٦٩٧) تم جمع القانون اثنين وعشرين باباً وتحرر فيه رسوم العوائد: ان الرؤساء جميعهم يستقيمون ثلاث سنين ويعقد المجمع العام لتغيير الرئيس العام او تثبيته . اما الرؤساء الصغار فعزلهم وتثبيتهم يكون بيد المدبرين ، وكانوا يسمون مؤازرين، وفيما بعد استحسنا ان نسميهم مدبرين . وعدد هؤلاء المدبرين اربعة يختارهم المجمع ويثبتهم مثل الرئيس العام وهم يعزلون ويثبتون الرؤساء الصغار ويشتركون مع الرئيس العام في تدبير الرهبنة العمومي والامور المهمة . وتحرر ايضاً ان

---

(١) راجع عنها ذيل المجمع اللبناني ص ٦٩ . وقد جاهد البطريرك يوسف حبيش كثيراً في استخلاصها مع مدرسة عين طورا من يد الاباء العازاريين فلم يفلح كما تشهد اوراق هذه القضية المحفوظة في خزانة بكركي

يكون المجمع العام في اليوم العاشر من شهر تشرين الثاني تذكرة لاول يوم الرهبنة . واكملنا الصيف والشتاء في مثل هذه التدابير والترتيبات . وفي هذا الشتاء ارسل الاب الرئيس غيري ليعلم الاولاد في زغرتا . ونزلت انا مع الاخوة الى دير مار اليشاع »

وقد قرروا ايضاً ان لايقبلوا راهباً اسكيميا في رهبنتهم الا اذا سلمهم ديره[1] فكان هذا القرار مع فتح المدارس بجانب الديورة من اكبر اسباب نجاح الرهبانية الحديثة .

وتابع عبدالله كلامه :

« ودخلت سنة ١٦٩٨ . وعند ابتداء الربيع رجعت مع البعض من اخوتي الى دير مرت مورا الى تمام الصيف . وفي اليوم العاشر من تشرين الثاني انعقد المجمع العام لعزل الرئيس او تثبيته . فأصابت الرئيس . وتولى الرياسة جديداً . واقام المجمع اربعة مدبرين . وبعد فراغ المجمع اجتمع المدبرون واقاموني رئيساً على دير مار اليشع واقاموا القس جبريل فرحات رئيساً على دير مرت مورا »

قال فرحات في تاريخه : « وكان دير مار اليشع خراباً فعمروه وتملكوه واقاموا عليه رئيساً عبد الاحد بن قرعلي بعد ان صير قساً . وكان هذا رجلا مفعماً من الله حكمة وافرازاً ونسكا ذا عقل ثاقب وعلم راسخ فصيح اللسان بليغ المعاني محبوباً من كل من يراه . وفي هذه السنة غيروا شكل اثوابهم وقلسواتهم عن شكل اثواب وقلسوات غيرهم من الرهبان الموارنة »

ولكن عدو الخير انتفع من قلة خبرة الموظفين الجدد واستبداد الرئيس بالسلطة ليثير فتنة كادت تقتل الرهبانية في مهدها لو لم يتداركها عبدالله بحكمته ، فاصبحت القوانين الموضوعة للنظام سبباً للقلق والاضطراب . وما زاد الفتنة اضطراماً الاحتكاك بين الاخلاق ، وحدة مزاج الرئيس . فنشأ عن هذا الاحتكاك تباعد بين القلوب ثم شرر ، كما ينتج من اجتماع مجربين كهربائيين مختلفين . وقد حاول عدو البشر ان يستغل هذا هذا الشرر ويحوله الى لهيب مخيف . فلنسمع عبد الاحد يقص علينا ذلك بسذاجة وتواضع القديسين قال :

---

(١) بليبل ٢٦

« ومن بعد هذا المجمع ابتدأ يقوى الخلاف بين الرئيس والرهبان في معنى سيرة الرهبنة . وذلك ان الرئيس لما رتب مع الرهبان القوانين والعوائد وانتخبوا من الرهبنات ما تحسن لرأيهم ورسموا باقامة المدبرين كما سبق القول واستعمل المدبرون وظيفتهم وكانوا يمانعون الرئيس عن بعض اشياء يريدها ، فاستثقل الرئيس امرهم واستصعبه وكان يتزايد يوماً فيوماً ببغض وظيفة المدبرين ويحتملها بصبر . ومرات كثيرة كان المدبرون يظلمونه بزيادة الفضول عليه فيما هو ليس من وظيفتهم. ومرات كثيرة كان هو يتعاطى في تدابير لا تليق بمقام رياسته لان طبعه كان يحب تدبير كل شيء وأن يشور على كل واحد في ما يعمله حتى الطباخ والاسكاف والبستاني . . . ويصعب عليه السكوت والجلوس في قلايته . وبالجملة بما اننا كنا مبتدئين غير مجربين كان الغلط يصدر من الجميع لعدم معرفتنا الفضيلة وفقدنا اماتة النفس . ولم يكن معنا من يرشدنا لعمل الكمال . ولم تزل دودة البغضة ترعى كرمنا قليلا قليلا والدمدمة والتذمر الرهباني يزيد وقتاً دون وقت الى ان بغض الرئيس وظيفة المدبرين والمدبرين بغضاً تاماً . واكثر الرهبان نقضوا طاعته لكن خوف الله والناس كان يسندنا عن السقوط التام وكنا نسلي ونعزي بعضنا بعضاً . وحيناً كنا نتناسى كل حال ونرغب الطاعة ومشيئة الله وحيناً ننغلب للضجر والقلق »

« ودخلت سنة ١٦٩٩ ونحن بمثل هذا الحال لكن لم نترك احد العلمانيين يعرف سرنا ما عدا البعض من الرهبان المرسلين . وبعضهم صار لنا سبباً لضرر اكثر . وذلك ان الاب الرئيس كان يتردد على الرهبان اليسوعية [1] ويفشي لهم افكاره والمذكورون كانوا يخبرونه عن رهبنتهم وان الرئيس العام لا ينعزل وليس له مدبرون وسلطانه مطلق . ويزعمون ان هذا الرأي الصائب . ومن كلامهم كان يزيد الرئيس ببغض المدبرين ويجتهد ان يكون سلطانه في تدبير الرهبنة

---

(١) في طرابلس

مطلقاً . وكنت انا من اكبر المعاندين رأيه هذا . ولما رأى ان مقصده لا يتم قال : « انا راضي بهذا القانون وهذه السيرة مثلكم » وأشار علينا ان نسعى عند السيد البطريرك ليثبت لنا القانون وننذر عليه ويبطل كل قيل وقال . فرضخنا لقوله وسرنا الى قنوبين عند السيد البطريرك وطلبنا منه ان ينعم علينا باثبات القانون . فاثبته بحضور البعض من السادة المطارنة وكتب في صورة التثبيت مع جملة الكلام هذه الجملة وهي : اننا لا نبرىء اولادنا الرهبان من قوانين مار انطونيوس [1] ولاجل هذه الجملة لم نقتبل نحن هذا التثبيت واعتذرنا لدى السيد البطريرك « ان قوانين القديس انطونيوس كثيرة ومختلفة واكثرها تخص الرهبان المتوحدين لا اصحاب الديورة الجامعة وان نحن قبلنا هذه الجملة يتولد لنا منها اتعاب كثيرة يمكن حدوثها من الروساء التي تجي فيما بعد ومخاطرات غير هذه » . وصرنا نتوسل الى السيد البطريرك ان يعفينا من هذه الجملة فما امكن . ولما لجينا عليه اغتاظ وابطل التثبيت وامر بخزقه ورجعنا الى ديرنا حزينين » .

« وكان اسم رهبنتنا جيداً ممدوحاً من الناس . وجاء الينا جملة من الشباب ليترهبوا والبعض من النساء رغبن ايضاً الرهبنة تحت قانوننا . فمال خاطر الاب الرئيس الى رهبنة النساء [2] واخذ خاطر المدبرين وكنت انا احدهم وارسلني الى حلب لاشحذ له مالاً لعمار دير الراهبات وان اتكلم مع بعض نساء حلبيات يطلبن الرهبنة . فسرت حسب امره الى حلب وجمعت شيئاً من صدقات المؤمنين ولم اتكلم مع واحدة من النساء لاجل الرهبنة الا قليلا جداً لاني رأيتهن باردات جداً . ورجعت عائداً الى الرئيس في شهر كانون الاول . وعند وصولي الى طرابلوس وجدت القس جبرايل فرحات رئيس دير مرت مورا [3] هناك في منزل الرهبان [4]

---

(١) قصد البطريرك الدويهي بذلك ان تكون الرهبنة الحديثة متقيدة ايضا بقوانين القديس انطونيوس المتبعة في الرهبنات الشرقية لئلا يكون للرهبنة الحديثة صبغة الرهبنات الافرنجية التي اخذت عنها اكثر قوانينها تحت تأثير الاباء اليسوعيين . (٢) اي الى انشاء رهبنة للنساء على مثال الرجال

(٣) لحق فرحات برفقائه الى لبنان ودخل رهبنتهم في سنة ١٦٩٦ اي بعد وصولهم بسنتين

(٤) هذا يدل على وجود انطوش للرهبان الحلبيين في طرابلس من ذلك العهد

واطلعني على سره انه يريد الخروج من رهبنتنا ويدخل غيرها [1] لشدة الضجر الواقع عليه . وكان يشكو من الريس والرهبنة وباقي حجج المتضجرين . ولما استقصيت سبب ضجره وبدءه رأيت ان الرئيس قصد ان يفتح ديراً في كسروان وان يبعثه اليه . فاعتمد على ذلك وجمع كتبه وحوائجه ليمضي وكان الرئيس مجدّاً على ذلك قبل رجوعي من حلب خوفا لئلا اعترضه ويبطل الرأي بافتتاح الدير . فاعترضه اخونا شماس يوسف البتن لانه كان الواحد من المدبرين وكان يبغض تدبير الريس وقال له « ليس الواجب ان نفتح ديراً جديداً ونفترق من الاب القس جبرايل فرحات في غيبة القس عبدالله » وصار بينهم في ذلك منازعة . ومن قبل هذه المنازعة صغرت نفس الاب جبرايل فرحات وعزم على الانفصال عنا وصار يشتكي من اشياء كثيرة . فوعظته كم كلمة ليرجع فاجابني لا تطرق حديداً بارداً وزعم « ان كنت محبي اتبعني فيما اريد افعله » [2] فاجبته « غير ممكن ان افارق رئيسي واخوتي » [3] ثم تركته وانا بشدة من الحزن عليه . وصعدت من طرابلوس الى ديرنا مار اليشاع لعند الاب الرئيس والرهبان فوجدتهم مبتدئين في بنيان بيت المائدة والقلالي »

« ولما دخلت سنة الف وسبعمائة ظهر الخبر لكثيرين في افتراق القس جبرايل فرحات وعرفوا ذلك بالرمز لانهم رأوه متعلقاً في الرهبان المرسلين في طرابلوس ولا يريد فرقتهم ولا الخروج من طرابلوس . وصار من قبل فرقته عند الرهبان سجس وتذمر على الرئيس لان القس جبرايل فرحات كان له اعتبار عند الرهبان من حيث انه رئيس دير وعالم باللغة العربية والشعر والفصاحة وصاروا يسندون سبب خروجه الى تدبير الرئيس . ولم يكن كذلك بالتمام لان الرئيس كان السبب ، وعدم احتمال القس جبرايل فرحات كان ايضاً السبب . لان الرئيس لم يكن

---

(١) الرهبانية اليسوعية . (٢) هذا يدل على توثق المحبة بين فرحات وعبدالله . (٣) لاحظ ثبات عبدالله فانه لم يرض ان يجاري صديقه الذي كان من رأيه وحزبه ويترك رئيسه الذي كان مخالفا له في الرأي .

يفعل شيئاً مع المدبرين بالرغم والقهر بل بالمسارقة كان يحارب وظيفتهم وكان قصده الاعظم بافتتاح الدير في كسروان ، على ما نظن وظهر لنا ،ان يفرق ما بين المدبرين ويبددهم لان القس جبرايل فرحات كان ايضاً احد المدبرين وله نحوي ميل ومطابقة الرأي فعزم الرئيس على ان يبعده عني وعن اخينا يوسف خوفا من التعصب ضد رأيه ، ولكي بسهولة يتمكن من اتلاف وظيفة المدبرين وتبطيل مجمعهم لان هذا كان رأيه سابقا وبقي لاحقا . ومن هذا رجعت الفتنة والقلق ما بيننا وبين الرئيس وصار يتظاهر الرئيس ببغض المدبرين كثيراً من حيث وظيفتهم . وصرنا نحن نظن فيه الخبث ونستعد لمحاربة رأيه كثيراً . اخيراً صار الرئيس يقول « اننا نريد نعمل رهبنتنا مثل رهبان اليسوعية في كل شي دون اكل اللحم وصلاة نصف الليل ولبس الاسكيم » وكان يزعم « ان هذا مجد الله الاعظم [1] » ووقع بيننا الخلط والتبلبل . ولم نكن نحن نمشي معه بواجب الطاعة ولا كان هو يمشي بواجب السياسة المناسبة لذلك الوقت . وكنت انا من اكبر المضادين رأيه وصارت افكار محبة الرياسة تحارب في لعلمي انه متى ما انعزل الرئيس اكون انا موضعه [2] ولكن مع ذلك ماعرفت قدام الله اني رغبت احد الاخوة او تحايلت عليه بقصد ان ينتخبني رئيساً انما كنت شديد الحماية لوظيفة المدبرين ويقيني ان التدبير الصائب لبنيان الرهبنة هو اقامة مجمع المدبرين . ومن المعلوم عند كل فهيم اننا لعدمنا الفضيلة والكمال كنا مرات كثيرة نظلم طاعة الرئيس والرئيس لم يقدر على اماتة نفسه لرأينا في ذلك الوقت مع ان ذلك كان واجباً عليه »

(١) هذه الجملة شعار الرهبانية اليسوعية . (٢) يدل هذا الاعتراف على تواضع وشجاعة ادبية

الفصل الرابع

في انتخاب القس عبدالله رئيساً عاماً

١ - رجال الرهبنة الثلاثة

قيض الله للرهبانية الحديثة ثلاثة رجال ممتازين خلد التاريخ ذكرهم : عبدالله قرالي وجبرائيل حوا وجبرائيل فرحات .

كان الاول متوقد الذهن راسخاً في التقوى نشيطا رزيناً بعيد النظر وحسن التدبير .

وكان الثاني شعلة ذكاء وغيرة واسع الحيلة كثير الحركة ، ولكنه كان قليل الصبر قليل التبصر متشبثاً برأيه مستبداً بسلطته . ولما رأى عدم انقياد رفقائه ومرؤوسيه لمشروع رهبنة عملية ، انفصل عنهم ثم هجر العيشة الرهبانية للسعي وراء مشاريع اخرى لم يفلح في واحد منها .

وكان الثالث علاّمة عصره جامعاً الى النجابة والفضيلة قوة المخيلة ورقة الشعور وسمو الاخلاق والمدارك . ولكنه كان ايضاً عصبي المزاج مشغوفا بالعزلة والهدوء ليتفرغ للمطالعة والتأمل ومناجاة الخالق . فكان يفضل امساك القلم على امساك دفة الادارة ونظم الاشعار على تنظيم الصفوف . ولما رأى الاضطراب في هيئة الرهبانية الحديثة ضجر وانسحب منها . وكاد يدخل الرهبانية اليسوعية ، ثم عدل عن ذلك الى تعليم الاحداث في قرية زغرتا . ولم يرجع الى الرهبنة اللبنانية الا بعد أن سكنت العاصفة وعاد الانتظام في سير سفينتها تحت ادارة صديقه الحازم القس عبدالله .

فاستحق الاول من هؤلاء الثلاثة ان يكون مؤسساً خاصاً للرهبانية اللبنانية وا كبر مصلح في الطائفة ولبنان في ذلك العصر . وعاشت بعده روحه التقية في الاناشيد الروحية التي ضمتها الطائفة المارونية الى طقوسها وما زال ابناؤها يرددونها امام المذابح ويتخشعون من معانيها الرقيقة السامية وعباراتها العذبة .

وعاشت ايضاً بعد فرحات اشعاره الرقيقة وظلت تآليفه في اللغة العربية غذاء للاحداث المسيحيين حتى قيل فيه انه قد « نصر العربية »

اما رفيقهما حوا فقد سعى كثيراً وثبت قليلا . كان يعمل حتى يكاد يلمس النجاح ثم يفلت عمله من يده ويترك ثمرته لغيره

بلغ الثلاثة الى درجة الاسقفية الرفيعة ، فرعى قرألي ابرشيتي بيروت ودمشق وفرحات ابرشية حلب ، اما حوا فكان راعياً بلا رعية .

جاء حوا وقرألي والبتن الى لبنان للترهب في احد ديورته . ولم يكن انشاء رهبنة في نيتهم بل في نية الله . لكنهم لم يجدوا في هذا الجبل ديراً منظماً مستقلا بعيداً عن عيون النساء وتحكم العلمانيين وتدخّل الرؤساء الروحيين ، ليكونوا فيه آمنين على نفوسهم من اضطراب القلب والفكر والنفس . ففضلوا الانزواء وحدهم في دير حقير في اعالي الجبل . ولم يعتم ان انضم اليهم فرحات صديقهم ومواطنهم وبضعة رهبان واصبح لهم ديران ومدرستان فاجتمعوا ووضعوا لهم دستوراً لرهبنة تأملية يتفرغ اعضاؤها لخلاص نفوسهم والعمل والدرس والتدريس ، وجعلوا لها هيئة ادارية تجدد كل ثلاث سنين باقتراع سري وتؤلف من رئيس عام واربعة مدبرين ورؤساء ديورة وغير ذلك من الوظائف اللازمة لجمعية يدل حاضرها على مستقبل كبير وتوسع عظيم .

صنع المؤسسون الاولون هذه العجلة فجاءت بديعة الشكل محكمة التركيب ولكنها لما سارت احتكت اجزاؤها بعضها ببعض لعدم مرونتها . فنشأ عن هذا الاحتكاك صرير تذمر تبعه انشقاق بين اجزائها كاد يؤدي الى تفككها لو لم يتداركها عبدالله .

٢ — النظريتان

خبر حوا تضييق المدبرين لحريته في الادارة فاستثقلهم واستثقلوه . ولما شكا

امره الى الآباء اليسوعيين في طرابلس نفحوه بفكرة جميلة ولكنها عقيمة ، وهي ان يحول رهبنته من تأملية الى عملية وادارتها من دستورية الى مطلقة ورئاستها من وقتية اقتراعية الى دائمة . فيتخلص من تضييق المدبرين عليه ويضمن لنفسه السلطة للحياة ويفتح له وللرهبانية مجالا واسعاً للعمل والحركة والحرية . فيختلط الرهبان بالعالم ويأذنون للنساء في ولوج كنائسهم ويتعرضون لخدمتهن الروحية ويتجولون في القرى والمدن للارشاد والرياضات . وان لم يكن هذا في بدء الامر ميسوراً للجميع فقد يكون ميسوراً له ، فيفوز بحرية الذهاب والاياب ويتخلص من رباط القوانين الصارمة ومعيشة الرهبنة القشفة المملة . وخلاصة هذه المشورة ان تكون الرهبانية الحديثة مماثلة للرهبانية اليسوعية وقد تنضم اليها في المستقبل او تكون فرعاً شرقياً لها

كل ذلك كان جميلا جذاباً ملائماً لمزاج حوا العصبي المستبد . لكن عبد الله ورفاقه لم يروا رأيه ونبشوا اغراضه تحت هذا النظام الحديث ، ففاحت رائحتها .

وكان لهم في ذلك حجج قاطعة .

اولا ـ انهم « لم يدخلوا الرهبنة ليكونوا مرسلين » كما قال عبد الله في مذكراته[1] لان ذلك يضطرهم الى الاختلاط بالعالم الذي هربوا منه . ولم يعطَ للجميع القوة الكافية والاستعداد اللازم لمصادمة العالم ومقاومة امواجه . فاعمال الرسالة عظيمة الفائدة ولكنها ليست بدعوتهم .

ثانياً ـ ان اعمال الرسالة تتطلب مهارة وحنكة ومكانة في الفضيلة والعلم . ولم يكن في الرهبنة رجال اكفياء لهذا العمل الشاق ولا التدريب عليه .

ثالثاً ـ ان وجدت الرجال فاين المال للانصراف عن اشغال الزراعة والصناعة والتدريس البسيط الى اعمال الرسالة .

وخلاصة القول ان الرهبنة حديثة العهد فكيف يقذفون بمركبها الصغير الى عرض البحار .

وا كبر برهان لصحة هذه النظرية التجربة التي قام بها حوا بعد قسمة الرهبنة

---

(١) راجع بليبل ص ٣٨

بين عبدالله وبينه، فان مشروعه لم يعش سنة واحدة بل انهار القصر الذي شيده في مخيلته هباء منثوراً ولم يبق منه حتى الحطام.

فضلاً عن ان سوء الظن في واضع المشروع هوى به لاول مرة عرضه على رفقائه مع ما كان عليه من الجمال الجذاب والفائدة العظيمة. قال فرحات الذي حضر هذه السوق وباع فيها واشترى وخسر

« وساء ظن الرهبان بالاب حوا في ما يريده من تغيير غاية الرهبانية اذ رأوه يقترح ابقاء الرياسة العامة مؤبدة وكانت مسندة اليه »[1]

هذه هي الاسباب التي الجأت القس عبدالله الى الوقوف في وجه حوا لمنعه من التعدي على دستور الرهبنة الحديث. وكان اغلب الرهبان على رأيه.

٣ ــ اقامة عبدالله رئيساً عاما

ولما طال الخلاف واوشك ان يؤول بالرهبنة الى تفكك أوصالها عقد الرهبان مجمعاً عاماً في غير ميعاده ونظروا في اسباب الداء واتفقوا على العلاج اللازم له. قال فرحات في تاريخه :

« ورثى عبد الاحد، المسمى عند باقي الناس القس عبد الله، الى ما أصاب الرهبان من الانشقاق، وتصلب ضد القس جبريل (حوا) وبدأ يحمي جانب الرهبنة لكي تثبت على ما ابتدأت به من قصد الانفراد، واقاموا على هذا النزاع والتبلبل مدة اشهر. فالتجأوا الى المجمع العام وأقاموا عليهم عبد الاحد رئيساً. وكانت يد الله معه»

فلنصغ الآن الى عبدالله في سرد بقية حكايته بسذاجته المعهودة وقوله الحق ولو على نفسه :

« ولما كثر السجس والتذمر واشرفنا على التلف، حينئذ اجتمع الاخوة الكبار من غير علمي ولا علم الرئيس وتشاوروا فيما بينهم هل يتبعون رأي الرئيس ام يقيمون عليهم غيره. فمالوا الى الرأي الاخير ودعوني مع الرئيس. ولما حضرنا تكلم احدهم مع الرئيس بحشمة قائلا : ان الاخوة يريدون منك يا ابانا ان تستريح من أتعابك

---

(١) راجع بليبل ص ٢٨

الكثيرة وتتنازل عن الرئاسة. وقد اقاموا ابانا القس عبد الله مكانك . فلما سمع الرئيس هذا القول رضخ وخر ساجداً امامي . وهكذا فعل باقي الاخوة كما هي العادة عند انتخاب الرئيس العام »

« وكانت مدة اقامة القس جبريل حوا في الرئاسة اربع سنين واربعة اشهر . وقد تعب في هذه المدة التعب العظيم الذي لولاه ما قامت الرهبنة على ما يقتضيه العقل البشري . وهذه شهادتي عن تحقيق . اه »

« وتسلمت انا الرئاسة بعده في اليوم الرابع عشر من شهر آذار من هذه السنة[1] وفي اليوم التالي سرت انا والقس جبريل حوا المتنازل الى السيد البطريرك [2] واعلمناه بما كان . فلما سمع بالخبر سأل القس جبريل هل تنازلت بخاطرك عن الرئاسة. اجابه نعم هذا رضائي ورضاء اخوتي جميعاً . فسأله ثانيا ما السبب . فأجابه هذا هو الاوفق لبنيان الاخوة ولراحتي . فتكلم السيد البطريرك معنا طويلا بمثل هذا الكلام . وكنت انا ساكتاً والقس جبريل يرد عليه . وكان يقنعه بان يرضى برئاستي فرضي و بارك لي وكتب منشوراً الى الرهبان يباركهم فيه ويوصيهم بطاعتي فودعناه ورجعنا الى دير مار اليشع حيث كان المجمع ملتئماً »

« ولما كان الشهر التالي ظهرت علامات الضجر والقنوط على القس جبريل فخفت من ان يشتد ضجره فيفترق مني و ينقلب يطالبني بالمال الذي أنفقه محتجاً بان نذر الفقر الذي ارتبط به باطل لاختلافنا في الرأي . ولذلك طلبت منه ان يوافقنا على نذر الفقر بتمسك يكتبه على نفسه . فرضي وكتب بخط يده هذه الصورة حرفياً:

« انا الحقير جبريل بن توما [3] حوى الحلبي اقر معترفا قدام الله والرهبان

---

(١) مارس سنة ١٧٠٠ (٢) اسطفان الدويهي (٣) اهدى الينا حضرة الخوري بولس فرنجيه من كهنة اهدن ، حيث سكن الحلبيون في اول ترهبهم ،منصفة مشغولة بخيط القصب على قماش من حرير احمر تمثل السيد المسيح والى جانبيه في صف واحد الرسل الاثنا عشر تحت عقود بيضوية وفي الاسفل هذه الكتابة بخيط القصب وبالكرشوني بين ثلاثة ملائكة« من كان للعذراء عبدا لا يدركه الهلاك ابداً.عن روح هيلانه بنت توما حوا بحلب سنة ١٧٠١ ؟ » ومن دواعي الاسف ان خيوط التاريخ ممسلة لكن صاحب الهدية افادني انها كانت سنة ١٧٠١ . وهيلانه المذكورة شقيقة القس جبريل حوا . والشغل متقن للغاية

الحلبيين بانني اذا انفصلت عنهم وخرجت من اخويتهم اختياراً او قسراً او مكثت معهم ، ما عاد لي عندهم دعوى ولا طلب من جهة الدراهم النقدية . وجميع ما اعطيتهم من ذلك صار لله ولهم نذراً مؤبداً ووقفاً مخلداً . اما الكتب والاثاث التي ادخلتها بينهم فهي في نصرتي و باقية عندهم بالوداعة والامانة ان شئت اخذتها وان شئت ابقيتها . وعلى هذا وقع الرضى في سنة ١٧٠٠ في ٢٧ نيسان صح صح »

٤ — تثبيت القانون

« و بعد ايام جاء عندي من ذات نفسه وقال لي : قم يا أبانا نسعى لدى السيد البطريرك في اثبات القانون ما دامت النعمة معي . لاني خائف ان افقدها فيصعب اثبات القانون ونضرّ الرهبنة . فاستصوبت كلامه ونهضت لوقتي وصحبته الى دير قنوبين وطلبنا من السيد البطريرك تثبيت قانوننا . وكان عنده اربعة مطارين فانقسموا اثنان علينا واثنان معنا هما المطران جرجس بنيمين الذي كان شديد الغيرة علينا والمطران يعقوب [1] الحصروني . وكان الاولان يزهدان السيد البطريرك ويمانعانه عن قبول طلبنا زاعمين ان قانوننا يحوي فرائض واهية لا فائدة منها ومضادة لعوائد البلاد بل هي احتقار لفرائض القديس انطونيوس . فكان البطريرك بعيداً قريباً متردداً بين آراء مستشاريه . وانتهى بالامتناع ، فعدنا خائبين . وأعدنا الكرة عليه مراراً حتى صغرت أنفسنا واستولى علي الحزن . ولما كن اعرف التسليم التام لمشيئة الله »

« اخيراً اخذت يوماً القانون بيدي وحورته واختصرته وجعلته مقتصراً على خمسة عشر باباً . وكان قصدي بذلك ان اقطع علل المطرانين المضادين لنا . ثم اخذت معي اثنين من الاخوة وقصدت السيد البطريرك وتوسلت الى المطرانين اللذين كانا معنا ان يشدا ازرنا لديه و بكيت وبكينا امامهما . فاخذتهما الغيرة ودخلا معنا على السيد البطريرك والحا عليه لتثبيت قانوننا . فاثبته وختمه بختم الكرسي . وكان ذلك في التاسع والعشرين من حزيران من هذه السنة [2] . حينئذ عدنا الى ديرنا فرحين »

(١) عواد الذي اقيم بطريركا في ٥ نوفمبر سنة ١٧٠٥ (٢) ١٧٠٠

والنسخة الاصلية من هذا القانون المختصر محفوظة للآن في دير اللويزه مع طابية المطران عبد الله قرألي ضمن صندوق صغير من زجاج . وهي بالكرشوني ومهورة بختم البطريرك اسطفان الدويهي وامضائه ، ومؤلفة من خمس عشرة صفحة بقطع ٣٠ × ١٤ سنتمتراً . وقد نشرها المنسنيور يوسف السمعاني بنصها في بدء قانون الرهبانية اللبنانية المطبوع في رومية سنة ١٧٣٥ وزاد عليها الفرائض . والقانون مرتب على خمسة عشر باباً كما جاء في مذكرات المطران عبد الله : الطاعة والعفة والفقر وكسوة الرهبان وسكنى القلالي والسفر والمائدة وعمل اليد والصمت والصلاة العقلية واللفظية . ثم الاعتراف وتناول الاسرار والادب والمرضى .

واليك نص التثبيت :

الحقير اسطفانوس بطريرك انطاكية وسائر المشرق

الختم

« وجه تحرير الاحرف

« هو اننا قد وقفنا على الخمسة عشر باباً ومقدمتها التي انما ترتبت ليكون اولادنا الرهبان الاعزاء سالكين بها على طريقة واحدة بحفظها ليتيسر لهم الاقتداء بالنذور المفروضة عليهم . فمن تعدى امراً من هذه الابواب لا يخطىء الا اذا كان الامر ثقيلا وخاصة اذا صدر منه معثرة للاخوة وغيرهم . فنحن بالسلطان الرسولي و بمشورة اخوتنا المطارين المكرمين ثبتنا لهم ونحرضهم على السلوك بحسبها ليحظوا بالآخرة الصالحة . تحريراً في ١٨ حزيران سنة ١٧٠٠ »

هذا هو الاساس المتين الذي وضعه بيده القس عبدالله قرألي في بدء توليه لامر الرهبنة وقد شُيد عليه بناؤها الفخم الذي ثبت على عواصف الزمان وزوابع الحوادث الخطيرة التي اجتاحت لبنان منذ سنة ١٧٠٠ الى الآن . وكل منا يشعر بعد مرور قرنين وربع قرن على هذا العمل العظيم بما خالج قلب هذا الرجل الغيور وقلوب اخوته الرهبان من الفرح لفوزه بهذا التثبيت الرسمي لرهبنة لم يكن العقل البشري ليرى

في بقائها املا بعد ما انتابها من المحن والشدائد في اول حياتها

وحالما بلغ عبد الله الدير و بشر اخوته بهذا النجاح انتهز فرصة تحمسهم ودعاهم الى النذر بموجب القانون الرسمي فاطاعوه . وكانوا ثلاثة عشر اي القس عبد الله رئيسهم والاثني عشر راهباً .فثلوا في حفلة النذر الاولى السيد له المجد وتلاميذه .[1] وقد امتنع القس جبريل حوا عن الارتباط معهم . فأخذ القس عبد الله يحاول حمله على ذلك ليسدّ عليه باب الخروج ويمنعه من اخذ الامتعة والاثاث التي اقتناها للرهبنة

قال القس عبد الله :

« وتذاكرنا بهذا مع القس جبريل حوا وجرت بيننا مخاصمات رهبانية كثيرة بسبب الارتباط بالنذر . ومرة كان حاضراً بيننا المطران جرجس وتوافقنا قدامه على الارتباط بنذر الفقر الكامل انا والقس جبريل والشماس يوسف البتن بما اننا ابتداء الرهبنة واصل الشركة . وكتبنا بذلك تمسكا ختمه المطران المذكور وشهد به وهذه صورته : »

« وجه تحريره هو انه حضر امامي القس عبدالله والقس جبريل والشدياق يوسف واقروا واعترفوا برضاهم واختيارهم بانهم طالما هم متحدون في اخوية الرهبنة غير مسموح لاحد منهم الانفصال . وان اراد الخروج عن الاثنين فلا يكون له شيء اصلا ولا يدعي بان له في اخويتهم قنية ، بل انه يطلع عنهم بالثوب الذي عليه لا غير . فهكذا اقروا قدامي وهكذا انا حكمت عليهم بموجب اقرارهم الاختياري . في ١٨ تموز سنة ١٧٠٠ صح اه »

٥ — قسمة الرهبنة

ويتابع القس عبدالله قصته مع حوا بتواضع وسلامة نية . ولا يسع من يسمع اقراره بخطأه الا ان يحترم شجاعته الادبية ويثق بكل ما يقوله عن غيره . وفي رأينا

«١» راجع اسماءهم في بليبل ص ٣٦

ان هذا الاعتراف شهادة بفضيلته تفوق قوةً شهادة معاصريه له ، وتسمح للساعين في تثبيته قديساً ان يستندوا عليها كاكبر حجة تدعم دعواهم .قال:

« وبعد هذا التمسك كان القس جبريل يسكن قليلا ثم يضطرب ولم يقدر ان يستقر في الدير طويلا بل كان يتوجه الى بعض اماكن ويغيب طويلا من غير مشورتي ويعد له دربًا ليخرج عنا ويسلك في طريقة التعليم وخلاص الانفس . ويزعم ان ذلك سرّ بينه وبين السيد البطريرك . فيومًا ما تحركت بالغيظ عليه وشتمته وكان ذلك مني انغلاب للغضب لانه اجابني جوابًا خبيثًا . فصار انه من ذلك الحين عزم على الخروج عنا بكلية نفسه . وكان يتهامل بالطاعة والقانون كثيراً . وكان البعض من الاخوة يلذعونه بالكلام فيغتاظ منهم جداً وكنت انا اتراخى في ذلك ولم ازجر الاخوة عن ذلك جبانة مني ولرأي بشري ، لاني كنت أخاف ان اغيظ احدهم ويصير الطريق للقس جبريل ليفتن بيني وبينهم ونرجع للتحزب والتعصب وينقلب هو يضطهدني ويخرب القانون . ولشدة الضجر والحزن الذي استولى على القس جبريل من قبل هذه الاحوال ولم يشأ ان يزهد برأيه ترك رهبنتنا وراح الى السيد البطريرك يشتكي علينا . ومن جملة الشكاوي زعم « ان القس عبدالله الرئيس يريد ان يهجر دير مرة موره ويتركه بالكلية وانا قد خسرت عليه حالي ومالي » وامثال ذلك.فلما سمع البطريرك بتركنا لدير مرة موره اغتاظ لذلك لانه كان من قرية اهدن ولا يرضى بخراب دير قريته . وكما سبقنا وقلنا انه كان يحب القس جبريل ايضًا كثيراً . ومن هذه الجهة ارسل السيد البطريرك طلبني للحضور عنده ولما حضرت امامه تكلمنا كثيراً . وكان السيد البطريرك يريد ان يخاصمني لكن على ما ظهر لي منه انه لم يجد له علي مدخلا . بل كان يزدري باعمالي واقوالي بحشمة . وفي الاخير وعظنا على المحبة ورجعنا . »

وتابع القس عبد الله حكايته في مذكراته قائلا : « وكان السجس يزيد يوماً فيوماً . فارسل السيد البطريرك المطران جرجس والمطران يعقوب لعندنا الى دير مار اليشع واخذا الاخوة وانفردا بهم وكانا يسألان كل واحد وحده ويزجرانه بالجزم والحرم في ان يقر ويعترف بالحق ان كان القس عبدالله تحايل وخادعهم حتى اقاموه رئيساً . وان كان ذلك بكلية خاطرهم ورضاهم ام لا . وامثال ذلك . فلما سمعوا شهادة الرهبان اني بريء من مثل هذه الظنون ودعانا وسافرا من غير ان يعلماني شيئاً مما تكلما به مع الرهبان . ولكثرة القلق صغرت نفسي وكتبت الى السيد البطريرك رسالة مضمونها « اني اخطأت بحق القس جبريل حوى وانا اريد ان اتوب واريد ايضاً ان يرجع الى ديره ورياسته والله يقدرني على ان اطيعه بموجب القانون » . فلما قرأ السيد البطريرك المكتوب فرح به وقال للقس جبريل ، لانه كان عنده اكثر ايامه، « قم ارجع الى ديرك ورياستك . هوذا القس عبدالله قد تنزل لك عن الرياسة » فأجابه « هذا لا يمكن لان القس عبدالله ولو تنزل ورضي فالاخوة لا ترضى ولا يطيب لي معهم عيش » فلما نظر السيد البطريرك ان الكلام لا يفيد حكم بالفسخ بيننا وارسل طلبني . ولما حضرت قدامه قال لي « انا حكمتُ بينكم بالقسمة . وهذه صورتها : القس جبريل يتولى على دير مرة مورا وانت تتولى على دير مار اليشاع . ورزق الرهبنة يقسم بينكم بالنصف . والرهبان يتخير كل واحد منهم اي رئيس يريد ويتبعه . ومؤونة الرهبان تنقسم على عدد الرهبان . وكتب بيننا وعلينا حجة الانفصال وختمها بختمه وهذه صورتها : [1]

---

(١) هذه الحجة غير مثبوتة في مذكرات القس عبد الله قرألي التي نشرها الاب لويس بليبل في تاريخ الرهبانية . راجع حاشية ص ٣٩ من كتابه. وقد نشرها المطران اغسطين البستاني في كتاب « الكوكب السيار ص ٢١٨ . ونحن نأخذها عن النسخة الاصلية المحفوظة في دير الرهبان الحلبيين في رومية . ويلاحظ ان القس عبدالله قد اثبت في مذكراته كل الوثائق الرسمية التي كانت بين يديه معتمداً عليها في اقواله

« وجه تحريره هو اننا وقفنا على الخلاف الواقع بين اولادنا الرهبان الحلبية . ان ولدنا القس جبريل قاصد التبشير وخلاص الانفس وولدنا القس عبد الله قاصد عيشة النسك والرياضة . فتنازلنا الى سوآلهم وامرنا القس جبريل ان يكون مقيداً بدير مرة موره باهدن وبنيانه والقس عبد الله بدير مار اليشاع في بشري وعماره . وان رزق الاخوة الذي كان بينهم بعقد الشركة ينقسم بينهم مناصفة بعد وفاء الدين ان كان . وان كل واحد من الاخوة يأخذ ما يحتاج اليه من المؤونة والكسوة ويسكن تحت طاعة الذي يرتضيه من الاثنين . وكان ذلك برضى وقبول من الجانبين نسأل الحق سبحانه وتعالى يكون ناظراً اليهم ومساعداً لهم ليحظوا في الخلاص هم وغيرهم »

« حرر في دير قنوبين في ٥ من تشرين الثاني سنة الف وسبعمائة للتجسد الالهي . صح . صح »

الحقير اسطفانوس بطرس
البطريرك الانطاكي

« وبعد هذا مضى كل الى حال سبيله . وتسلمت انا دير مار اليشاع من غير ان تصرف الرهبنة عليه شيئاً من المال الى ذلك الحين لانه لما تسلمنا الدير المذكور من اصحابه تسلمنا معه جملة دراهم كانت ملك الدير ومنها صرفنا عليه كل شيء صرفناه بخلاف دير مرة موره فاننا صرفنا عليه المصروف كله من مال الرهبنة لانه لم يكن يملك شيئاً من المال البتة . ثم ابتدأنا بالقسمة كما حكم السيد البطريرك ولم يكن للرهبنة حينئذ شيء من الدراهم البتة فقسمنا الامتعة كلها واطلقنا للرهبان الاختيار لمن يشأ كل واحد منهم من الرؤساء . فتبع القس جبريل راهب واحد من الاسكيميين [1] وبعض المبتدئين . وتبعني انا باقي الاسكيميين [2] وكان اخي يوسف [3] الاول من الرهبنة واحداً منهم ، والبعض من المبتدئين . ثم قسمنا المؤونة كنحو عدد الرهبان . وتم

---

(١) اللابسين الاسكيم الرهباني بعد النذر (٢) رأيت انهم كانوا اثنى عشر بعد تثبيت القانون ويقول الاب بليبل ص ٣٤ انهم كانوا ستة لكنه يعدهم اثنى عشر في ص ٣٦ ويذكر اسماءهم (٣) البتن الذي رافقه من حلب للترهب

الانفصال وبطل القلق وصار هدوء وسكون في الديرين »

٦ — سيرة الرهبنتين

يقول المثل العامي « الحرب بالنظارات هتين » فوضع النظرية في العمل اكبر امتحان لصحتها وفسادها فلننظر نتيجة تجربة كل منهما . روى القس عبد الله في مذكراته التي تعدّ اساساً لتاريخ الرهبانية اللبنانية :

« وابتدأنا [١] ان ننذر على القانون اناس بعد اناس . لان في حال القسمة لم يكن بعد احد منا نذر النذر الرهباني الكامل اصلاً . وصارت الاخوة تسعى بالفضيلة بفرح واجتهاد ويعتادون عوائد صالحة كثيرة . منها انهم ابتدأوا بكشف افكارهم عندي كل ليلة بعد صلوة الستار . ومنهم بعد صلوة نصف الليل . واستمرت هذه العادة الحميدة الى الآن . ونرجو من نعمة الله انها تبقى الى الابد . ومتى زل احدهم زلة كان يجيء من ذاته ويسجد قدامي مستغفراً ويطلب قانوناً وتأديباً عن زلته . وقس على هذه امثالها من العوائد الصالحة الباقية الى الآن [٢] . ولم يكن بعد اكتملت الرهبنة بكل الطقوس والترتيبات الكائنة الآن لاننا منذ ترهبنا الى هذه السنة لم نزل نرتب ونطقس اشياء واشياء . واكثر العوائد والترتيبات لم نتمسك بها الا بعد العمل والتجربة » [٣]

« وفيما نحن في مثل هذه الحال حضر القس جبريل فرحات عند السيد البطريرك وأرسل السيد البطريرك يطلبني اليه . فلما حضرت عنده قال لي « ان القس جبريل يريد ان ينفصل عنكم ويجلس وحده في قرية زغرتا يعلم الاولاد ، لانه يقول انه ضعيف الجسم لا يقوى على العيشة معكم » وعال مثل هذه اوردها

---

(١) الضمير هنا عائد الى رهبان القس عبد الله (٢) نرجح ان المطران عبد الله كتب مذكراته بعد سيامته اسقفا بيضع سنين . ولما كانت النسخة الاصلية ناقصة تسع صفحات من اخرها فقد تعذر علينا تحديد وقت كتابتها (٣) هذا يدل على ان القس عبد الله قد وضع الترتيب النهائي للفرائض التي الحقها السمعاني بقانون الرهبان اللبنانيين ويضحد قول الذين يدعون ان هذه الفرائض من وضع السمعاني نفسه

السيد البطريرك عن لسان القس المذكور . فتكلمت انا مع القس ان يرتجع عن رأيه هذا وتخضعت له، فما امكن . وافترق منا قدام السيد البطريرك . وافتراقه هذا كان قديمًا كما سبق القول قبل هذه السنة ولكنه كان بالنوع الخفي يجي ويروح عندنا ،[1] واغلب الايام كان عند رهبان الافرنج [2] ولما صار تغيير الرياسة لم يكن حاضراً ، ولا وقت الانفصال كان حاضراً ايضًا بل متجنبًا القلق ويرقب وقتًا يفترق فيه منا ، لانه كان يخاف الافتراق ظاهراً في ايام القس جبريل حوى لاسباب . ولما وقع الافتراق مع سميه جبريل تشجع هو ايضًا وافترق ، واتخذ مدرسة مار يوسف في زغرتا لعلم الاولاد » [3]

قال فرحات عن نفسه بتواضع في تاريخ الرهبنة :

« وفي هذه السنة اعترى القس جبريل فرحات تجربة الضجر فتبع هوى نفسه وخرج من الرهبنة . ولكن قبل النذر لعدم وجود النذر وقتئذ ، وانفرد الى قرية اسمها زغورتا في زاوية طرابلس وسكن هناك ديراً على اسم القديس يوسف . واتخذ له شماساً . وكان يعلم الاولاد هناك ويعيش من صدقات المؤمنين »

وهكذا بقي عبدالله وحده في الرهبانية يسعى في تنظيمها وانجاحها روحيًا وماديًا فاستحق ان يكون مؤسسها الخاص كما تنطق بلاطة ضريحة في كنيسة اللويزه . ولننظر الآن ما جرى في رهبانية حوا العملية . جاء في مذكرات القس عبدالله :

« ولما دخلت سنة الف وسبعمائة وواحدة بقينا نحن على ما نحن عليه من السعي بالسيرة بفرح واجتهاد الى تمام السنة . اما القس جبريل حوى فلما انفرد مع الذين تبعوه الى دير مرة موره اظهر في الحال السيرة التي كان يشتهيها وابتدأ يسلك كنحو رسوم الرهبنة اليسوعية . وكانوا يقرعون الجرس قبل الغداء لعمل فحص الضمير

---

(١) في بابيل « يروح ويجي عندنا كانه عندنا » (٢) يظهر ان الاباء اليسوعيين في طرابلس سعوا في اجتذاب فرحات اليهم . لكنه فضل الاستقلال (٣) وهي المدرسة التي شيدها المطران جرجس بنيين كما سبق القول. ويظهر من كلام حوا الى الخبر الاعظم الذي سنفشره في ما بعد ان المطران بنيين سلمها الى الرهبنة الحلبية فظلت في يدهم الى بعد وفاة الخوري وهبه الدويهي (راجع بابيل ص ١٠٨) ثم سلمها مؤسسها الى الاباء اليسوعيين سنة ١٧٣٢ كما ذكرنا .

ويزورون المرضى في المدن والقرى ، واباحوا للنساء الدخول الى كنيسة الدير ولم يمسكوا الصيام اليومي بل من شاء كان يفطر صباحاً من غير اذن الرئيس [١] وعند تمام طلبة السيدة التي تتلى قبل النوم كانوا يقولون : يا مار اغناطيوس [٢] ودخل عندهم مبتدئون غير الذين تبعوهم من عندهم وابتدأوا ينمون . وسلكت ايضاً المحبة بيننا وبينهم وصاروا يترددون الى ديرنا ونتردد الى ديرهم . واجتهدنا جميعاً في تناسي كل شيء كان . وصرنا نقول : هكذا دبّر الله وهكذا هو الجيد والكل لمجد الله»

وقد نجح القس جبريل حوا في حمل اهل اهدن على ان يجددوا لرهبنته هبة دير مرت مورا وان يعفوه من الخراج وبقية الضرائب اقتداء باهالي بشري كما يظهر من نص حجة وجدناها في سجل اللويزه [٣] اليك صورتها :

« وجه تحرير الاحرف هو انه نحن اهالي قرية اهدن قد صّرفنا ملك مرت مورا من توت وكرم وسليخ وغيره للرهبان الساكنين في الدير المذكور يتصرفوا فيه من غير خراج وجميع العوائد الحادثة من الحكام وشيخ القرية وغيرهم من التكاليف الممكنة وكذلك مهما جددوا من قصب وتوت وغيره يكون معافى لا نكلفهم عليه قطعة الفرد والله الوكيل علينا باننا لا نغير ولا نبدل عن قولنا . وكتبنا لهم هذه الوثيقة لاجل الحاجة اليها تحريراً في ١ كانون الثاني سنة ١٧٠١ »

قارح واخوه موسى حلبي واخوه اسكندر واولاده ابو كرم واولاده الخوري يوسف الخوري سعاده ابو طانيوس يمين اهالي قرية اهدن بوجه العموم الحقير جبرايل ؟ القس بطرس القس جرجس القس جرجس القس مطران اهدن بيمين امين انطون زخيا

---

(١) كان الرهبان اللبنانيون يصومون يوميا من نصف الليل الى الظهر (٢) القديس اغناطيوس ده لويولا مؤسس الرهبنة اليسوعية وشفيعها (٣) لا يرد ذكر حوا في هذه الحجة ولكن تاريخها يدل على انها كتبت في عهد توليه لهذا الدير للمرة الثانية فهي تحمل تاريخ ١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٧٠١ وقد استقل حوا بهذا الدير في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٠٠ وهجره الى مالطه في تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٧٠١

٧ — نهاية الاوهام

ويتابع القس عبدالله حكايته عن حوا قائلاً :

« وقبل ان تكتمل السنة وقعت المخاصمة ما بين القس جبريل ومطرانه [١] واشتدت الفتنة بينهما حتى بلغت الى ان المطران ضرب القس جبريل . ووصلا الى المرافعة قدام السيد البطريرك . فخاصم المطران القس جبريل قدام البطريرك . ولم ينفعه البطريرك بشيء . واشتد المطران على القس جبريل بزيادة ومنعه عن اشياء كان يسلك فيها في ديره . من جملتها ان لا يتمسكوا باسم اليسوعية [٢] . ومن قبل هذه المخاصمة ضجرت رهبان القس جبريل كثيراً وشرد بعضهم وافترقوا منه . وصار القس المذكور في حزن وضيق عظيم . وجاء عندي وجرى بيني وبينه خطاب ومذاكرة طويلة انتهت الى انه يترك ديره ويجيء يسكن عندنا كواحد منا من غير نذر . ثم سرتُ الى اخوتي المدبرين وشاورتهم في هذا فأبوا ذلك وقالوا لا نقبله ما لم ينذر مثلنا ويكون مرتبطاً بالقانون كواحد منا . وكانوا يقولون يكفي ياأبانا مامضى وكم احتملنا من القلق والمحن . وكان خوفهم ان دخل القس جبريل من غير نذر يرجع يفتن اخوتنا ونعود الى التعب كالاول ، لانه غير ممكن ان يرتجع عن رأيه . فصرت انا حينئذ مستحيياً من القس جبريل لانني سبقت ووعدته باني اقبله . ولذلك اجتهدت لاجتذاب خواطر المدبرين في قبوله بغير نذر فما امكن [٣] فرجعت الى القس جبريل واعلمته بالواقع واعتذرت اليه . فلما فهم الكلام حزن كثيراً . فصرت اشجعه على النذر مثلنا فما امكن وتركني ومضى الى ديره »

« واصطلح مكرهاً مع المطران جرجس واستمر في ديره . لكنه لم يقدر على الثبوت في الدير بعد ذلك . لان البعض من رهبانه شردوا عنه وكان يتفكر ببعض

---

(١) المطران جرجس بنيمين اسقف اهدن (٢) من غريب الاتفاق ان المطران جرجس الذي انضم في المستقبل الى الرهبنة اليسوعية كان اكبر خصم لهذه الرهبنة اليسوعية الشرقية .

(٣) هذا يشهد على ان القس عبد الله وهو الرئيس العام وصاحب الكلمة المسموعة لم يكن يأتي عملا مهما دون استشارة المدبرين وانه كان يخضع لرأيهم ان لم يوافقوه

المطران له . وتراكم عليه الضجر وانغلب له فلم يقدر على الصبر . فسار الى السيد البطريرك واقنعه انه يريد ان يذهب الى جزيرة مالطه فيأتي بمطبعة كانت هناك ويفيد بها الطائفة ولان السيد البطريرك كان يحبه سمح له بذلك . وفي الحال ذهب الى ديره واخذ حوائجه وامتعته التي كان اقتسمها من عندنا وجاء بها الى ديرنا وتركها وداعة . وسافر الى طرابلس . وكان ذلك في شهر تشرين الاول من هذه السنة . ومن طرابلس سافر الى مالطه . وفي مالطه ما تسهلت له المطبعة التي قصدها بل ولا نعلم بتحقيق ان كان قصده المطبعة . وسافر من مالطه الى رومية . وسنذكر ما صار له في روميه في حينه . اما رهبانه فتبددوا وبقي منهم اثنان في دير مرة موره والبعض رجعوا الى العالم والبعض رجعوا الينا »

هذه نهاية الاوهام ! . . .

وبقي دير مرت مورا في يد الرهبنة مدة لا نعرف مداها . وقد عده فرحات في سنة ١٧٢٠ من جملة اديارها . وجاء في سجل القس توما البودي ان الرهبنة تركته لعدم اتفاقها مع اهل اهدن . وهو الآن من اوقاف هذه القصبة ومن أغناها يملك اراضي خصبة اكثرها واقع بينه وبين قرية عينطورين .

الفصل الخامس

سيرة القس عبد الله ورهبانه الروحية

١ — الجنود

الجنود من وراء قائدهم يتبعون خططه ويتحمسون بشجاعته ويفتخرون باعماله واذا تحققوا مقدرته واخلاصه ومحبته لهم بذلوا نفوسهم بسخاء في سبيل الوطن . فهو روح جيشه اذا خاطبه اشتعل واذا تقدمه اندفع وراءه كالسيل المنحدر غير مبالٍ بتعب او خطر

يقول فرحات في تاريخه بعد سرده لحوادث الاضطرابات والانقسام :

« وهدأت الرهبنة بعد هذه التجاريب المقدم ذكرها . واستقام القس عبدالله

يسوسها احسن سياسة . وكان الله ينميها على يده كما انمى شعب اسرائيل على يد موسى . لانه كان يرعاها بمروج عمله اكثر من علمه . وذاع صيتها وفشى خبرها فتوارد نحوها التوابون يدخلون في نيرها السهل واللين العريكة »

ويستنتج من سجل الرهبنة ان كثيرين من الطوائف غير المارونية كالسريان والارمن والروم والاقباط واليهود جاؤوا في تلك الآونة من حلب ودمشق وبيت لحم وصيدا ومصر وتطوعوا تحت عصا هذا الراعي الصالح . والذين كانوا منهم خارجاً عن الكنيسة الكاثوليكية كالارثوذكس واليهود دخلوا حظيرتها بدخولهم ضمن اسوار الرهبنة . (١) وكان القس عبد الله يرشدهم الى طريق الكمال ويتقدمهم في مسالكها الوعرة فيدوس اشواكها ويتسلق صخورها وقممها الشاقة حتى اعلى مرتفعاتها، حيث المناظر الواسعة والنسيم النقي المنعش للنفوس، فتسرح ابصارها الروحية في افقها السموي الذي لا نهاية له وتحيا على الارض وهي اجسام ترابية حياة الملائكة الطاهرة حول العزة الالهية .

قال الخوري يوسف مارون الدويهي في رسالته عن شرف الرهبنة اللبنانية (٢) « ان الرهبان اللبنانيين تمسكوا تمسكا وثيقاً بما اجراه ذلك الامام امامهم ، وسعوا الى ما قدام بآثار ذلك المقدام ، اعني به الانبا عبدالله المتنيح » قال فرحات:

« وابتدأت الرهبنة ان تنمو وتزيد في الخير . وكان رهبانها حريصين على حفظ قانونهم . فمن حيث الطهارة قطعوا كل سبب يؤذيها مانعين النساء عن دخول اديرتهم وكنائسهم والصبيان عن النوم في الدير . ولم يكن راهب يكلم امرأة وحده ولا يمشي في طريق بغير رفيق ولا يأكل في بيت العوام اصلا . ولم يكونوا يشربون الماء الا باذن الرئيس او المتقدم فيهم . فالكاهن منهم كان يستأذن والغير الكاهن كان يركع عند الاستئذان . وكان المبتدىء يأكل على المائدة راكعاً حتى يؤذن له بالجلوس ولا يتكلم بحضرة الاخوة الا اذا سمح له بذلك »

---

(١) راجع المشرق ١٠ ر ٦٣٤ (٢) تجدها ما بين مخطوطات المكتبة الشرقية للاباء اليسوعيين في بيروت

وتابع فرحات كلامه في سيرة الرهبان الأولين قائلاً :

« وكانوا مواظبين على كشف افكارهم لرئيسهم كل ليلة تقريباً . واذا جلسوا الى المائدة كانوا يأكلون صامتين صاغين الى كلام الكتاب الذي يقرأ عليهم . ومنهم من كان يميت نفسه فلا يشبع . ومنهم من كان يمتنع عن بعض الوان الطبيخ، ومنهم عن الفواكه والحلوى او شرب الخمر . ومنهم من كان يمارس العطش والجوع ومنهم الصيام والسهر . وكانوا لا يخالطون العلمانيين الا للضرورة و يتجنبون الكذب والحلف والعادات العالمية ، فكانوا نقيين في لسانهم وافكارهم . وكانت قراءاتهم ومذاكراتهم روحية ، حتى كان مجرد النظر اليهم يرغب في السيرة الصالحة والعبادة. ولم يكونوا يكفون عن عمل اليد مثل فلاحة الارض وشغل الكروم والقز والبستنة وغير ذلك . فكان معاشهم من كدهم . وكانوا يواسون الغرباء والمساكين . »

« وكانوا مرتبطين بمحبة بعضهم لبعض كأنهم جسد واحد ونفس واحدة . واذا شعر احدهم ان اخاه مغتاظ عليه كان يسجد له و يطلب منه المغفرة . وكانوا يلزمون انفسهم بطاعة بعضهم لبعض . ومن عوائدهم كان اذا نظر احدهم نقصاناً في اخيه يخبر به الرئيس حباً فيه كي يهذبه »

« ومن جهة الفقر لم يكن احد يدعي ان الثوب ثوبه ولا يقتني في قلايته شيئاً خاصاً ولا يضع فيها اكلاً وشرباً . وكان امر الفضة مجهولاً عندهم بالتمام لا يعرف شكل معاملتها الا الرؤساء والوكلاء فيهم . ولم يكونوا يفطرون [1] الا صباح عيدي الميلاد والقيامة ويصومون باقي الايام حتى الظهر . وكان كل دير يعمل رياضة روحية مرة في السنة . وحددوا بينهم ان للرئيس ان يوبخ الاخ ويميت [2] نفسه ويقاصه بحق او بغير حق ، سواء كان مبتدئاً او ناذراً او كاهناً . ولم يسمع قط ان أحدهم خالف

---

(١) يأكلون صباحا وهو ما يعرف في لبنان « بالترويقه » (٢) يقهر

امر رئيسه الا وهماً ونسياناً . وقد ذكرتُ لكم هذه الامور كلها لتثبتوا متمسكين بعوائد آبائكم الاولين ولا تتراخوا فيها ، لان جميعها مثبتة في مجامعهم » [١]

٢ — القائد

قلنا ان الجنود من وراء قائدهم فلنسمع ما يقول عن هذا القائد القس توما البودي تلميذه الحبيب ومواطنه وملازمه في قسم كبير من حياته الرهبانية : [٢]

« ابتدأ هذا المغبوط بالعمل قبل ان يعلم [٣] . وما اقوله انا المسكين بسيرتي الواهية قد تحققته اولاً من الرهبان الذين كانوا معه . ولما دخلتُ الرهبنة ، وكان ذلك في ١٠ آب سنة ١٧٠٦ ، رأيت كل ذلك بنفسي . على كل حال مذموم هو الراهب الذي يفتخر بفضائل ابيه ومرشده ورئيسه وتكون اعماله مخالفة له . ولكن الحق الصريح يجب ان يكتب لئلا تعدم معرفة الصالحين ويُعدم الخير الذي يحصل عليه العباد من امثال سيرتهم الصالحة فاقول [٤] :

« بعد انشاء دير مرت مورا ومار اليشع وتلك المخاصمات التي حدثت ، استمر عبد الله في دير مار اليشع وانشأ الطريقة بمسرة الله [٥] . فابتدأ في سيرة التقشف في جميع حركاته . اولاً عمل عرزالاً [٦] من عيدان حطب وقش وكان ينام عليه من غير فراش وكان يعقره ويوجعه كثيراً واستدام على هذا الحال سنتين . وكان غطاؤه بنوع انه

---

(١) هذا يدل على ان فرحات كتب تاريخه في عهد رئاسته العامة على هذه الرهبنة (١٧١٦ — ١٧٢٣) . وينتهي تاريخه في سنة ١٧٣٢ التي توفي فيها ولكن الخط يتغير بعد سنة ١٧٢٤ اي قبيل سيامته اسقفا (سنة ١٧٢٥) مما يدل على ان القسم الاخير ليس له . (٢) نشر الاب رباط القسم الاول من « سيرة المطران عبد الله فرعلي » للبودي في المشرق ١٠ : ٦٢٥ ـ ٦٣٥ و ٦٩٥ ـ ٧٠٠ و ٧٣٠ ـ ٧٣٧ و ٧٩٨ ـ ٨٠٣ وقد لخصنا ما اخترناه منه ورتبناه حسب الموضوعات على قدر الامكان . والبودي ترأس على الرهبنة من سنة ١٧٣٥ الى ١٧٤١ . ثم سافر الى رومية لاشغال الرهبانية وظل فيها الى وفاته سنة ١٧٦٨ . وقد اجتهد في جمع كل ما يتعلق بحياة مؤسس الرهبنة كما يظهر من رسائله المحفوظة في دير اللويزه . وربما كتب المطران عبد الله مذكراته بناء على طلبه وبعث بها اليه الى دير الرهبانية في رومية حيث عثرنا عليها (٣) المشرق ١٠ : ٦٣٠ (٤) المشرق ١٠ : ٦٣٢ و ٦٣٣ (٥) المشرق ١٠ : ٦٣٠ (٦) « مقعد من العيدان مرتبطة بعضها ببعض يعلق بين اغصان دوحة ويفرش بالقش فينام عليه ايام الصيف » حاشية الاب رباط ص ٦٣٠

يدفي،لا غير . فلحقه اولئك السعداء رفاقه كل على قدر قوته حسب ما كان يرشدهم.

« ثانياً من حيث صلواته العقلية في اول مبتداه كان يصلي ساعة صباحاً ونصف ساعة بعد صلوة السواعي وساعة عند المساء . وامتثل به كثيرون من رهبانه. وكانوا يحضرون كل ليلة ويكشفون له افكارهم وما يعرض لهم من صالح ومن طالح . وبعد ذلك كان يعطي لجسمه راحة في الرقاد وهو جالس الى نصف الليل . وكان في البدء يسند ظهره الى الحائط قليلاً ، ولكنه امتنع عن ذلك فيما بعد وكان يسبق الجميع الى الكنيسة متى قرع الناقوس [١] . وقد اجتهد البعض من الرهبان ان يسبقوه الى الكنيسة فما امكنهم ذلك . وكان اذا اجتمعوا يبدأ الصلاة الفرضية بهدوء مرتلا بنوع خشوعي حتى ان الحاضرين كانت تتحرك قلوبهم للعبادة طبعاً . وبعد نهاية صلوة الليل كان يمضي الرهبان الى مراقدهم . اما هو فكان يظل في الكنيسة وينتصب للصلوة امام المذبح لغاية صلوة الصبح تارة جاثياً وطوراً واقفاً ، حتى انه كان يبان لناظره كأنه صنم لا يتحرك ، واحياناً كان ينكب على وجهه ويرش التراب والرماد على رأسه . ومن كثرة المطانيات [٢] التي كان يستعملها في الكنيسة ليلاً تكلكلت ركبه . وتكلكلت ايضاً اصابعه التي كان يستند عليها في السجود والقيام وربما البعض منكم لحظ ذلك فيه . وكان يخرج من الكنيسة ويدخل القلاية من بابها السري وهو الباب الذي كان يدخل منه الرهبان لكشف ضمائرهم . وكان اذا قرع الناقوس لصلوة الصبح يخرج من الباب الثاني المشاع لئلا يعرف احد عمله . واستمر على هذه الحال سنتين من غير ان يعرف به احد غير القس يوسف البتن وانا لله عبد بواسطته . لان ابا الدير [٣] كان وضعني تحت يد القس يوسف في وظيفة الكلارجية [٤] في دير مار اليشع . فكان يطلعني على هذه الافعال محبة في ورغبة في ان يرشد جهلي » [٥]

---

(١) لصلاة نصف الليل (٢) اي الركوع على الركبتين والاتكاء على الاصابع لتقبيل الارض ثم النهوض . وقد يتكرر ذلك مراراً كما في نهاية كل شطر من تسبحة نصف الليل (٣) كان القس جبريل فرحات رئيسا على الدير في ذلك العهد (٤) وكيل المؤونة (٥) راجع المشرق ١٠ : ٦٣٠ — ٦٣٢

« ومن حيث نسكه كان يمتنع عن كل شيء يعرف انه يتلذذ به بافراز هذا مقداره حتى انه لم يستطع كتمانه . وكان يأكل كل اربعة وعشرين ساعة مرة واحدة في العشاء . وكان اذا جلس على المائدة يبدأ قبل الجميع وينتهي بعدهم كي يوهم من يراه بكثرة اكله . مع انه لم يكن يتعدى نصف الحصة الموضوعة امام كل راهب من الاطعمة . اما الخبز فكان يأكل منه رغيفاً واحداً وزنه نصف اوقية واحياناً يكسر قليلاً من الثاني . وكان يجتهد في قمع جسده وضبط حواسه بنوع يعجز عنه قلمي »

« وجاء مرة الى دير مار اليشع وهو مريض مرضاً ثقيلاً حتى ان الرهبان سندوه في دخوله . فأمرتُ انا من ابي الدير ان اهيئ له طعاماً لان الرهبان كانوا قد تعشوا. فطبخت له ارزاً بسمن . فلم يرضَ ان يأكله رغماً عن مرضه لانه رآه دسماً لذيذاً مع ان الارز كان من الالوان الوحيدة التي لا يوضع غيرها امام الرهبان . ولكي يخفي عن الآخرين قصده في الاماتة ادعى ان الطعام ثقيل الهضم لكثرة ادامه [1] وقال للحاضرين : بالكم من هذا المبدأ لئلا يخرب الدير » . وفي اليوم الثاني رجع الى عادته في الصيام انما لبث يتغدى مع الرهبان بضعة ايام والحق يقال ان غداءه كان بالاسم . ثم عاد الى صيامه كالعادة فارتدت اليه عافيته بهذه الطريقة . » [2]

« وكان يرشد اخوتي في طريق الكمال . وكنت انا ارقب سيره من غير ان يعرف احد بذلك . فكنت اراه يزيد يوماً فيوماً في تقشفه حتى اصبح يصوم يومين وبما ان صومه لم يكن خافياً عن الناس فتغاير الرهبان والكهنة في الاقتداء به . فلما رأى ذلك امر البعض ان يصوموا الى التاسعة [3] فقط ويأكلوا عندئذ شيئاً قليلاً بنوع فطور لكسر الصفرة ثم يتعشوا مع اخوتهم . ومنع البعض الاخرين عن الصيام. »

« وبلغ من قمع جسمه حداً من الضعف حتى انه أراد يوماً ان ينهض بيديه

---

(١) اعتاد اللبنانيون قديما ان يقدموا للمريض الارز او حساءه كاخف الاطعمة . وقد جاء في رحلة كسافيه مارميه الفرنسوي Xavier Marmier المطبوعة في سنة ١٨٨٣ ص ١٦٣ ان من اعظم الادعية التي كان اللبناني يوجهها ضد عدوه ان يقول له : ان شاالله الرز ما يطلع من بيتك » اي ان يلازم المرض بيتك (٢) المشرق ١٠ : ٦٣٣ (٣) الساعة الثالثة بعد الظهر

مقدار ثلاثة ارطال فلم يستطع . فأظهر احد الآباء غيرته عليه وخوفه من فقد الرهبنة لشخصه ، فتكلم مع البعض وكتبوا الى البطريرك يعقوب عواد ليمنع عبدالله عن الصيام يومين . فنهاه البطريرك فأطاعه . ولكنه باشر بتقشف صارم جداً بغير نوع حتى ندم الذين قدموا العريضة وتمنوا لو بقي على صيامه [1] » .

« واما غيرته على حفظ الطهارة فيكفيكم ان تتمعنوا بكلامه عنها في شرح القانون [2] كي تعرفوا الى اي حد بلغ في هذه الفضيلة الملائكية »

« وكان يعطي كل صباح موضوعاً روحياً لكل واحد حسب مقدرته وموهبته وكان يجمع كل اثنين في موضوع واحد ليذكروا بعضهم به في النهار . وكانوا يؤدون له في المساء حساباً دقيقاً عن الموضوع المعين لهم . واذا اظهر احدهم سهواً او نسياناً كان يشرح له ما خفي عليه . ومع ان المبتدئين كانوا كثيرين فقد كان يوزع المواضيع حسب فهم كل واحد بنوع يعجز ادراكي عن تفسيره . بل يكفي ان اقول انه كما ان الرسل القديسين بعد حلول الروح القدس عليهم كانوا يعظون الناس بالعبراني فكان السامعون يفهمون كلٌ حسب لغته هكذا القس عبد الله كان اذا جلس واجتمع حوله الرهبان في الاوقات المعينة يخاطبهم في السيرة الرهبانية والسير في طريق الكمال فيفهم كل منهم حسب درجته ومعرفته واحتياجه كأنه يشرح له بنوع خاص. وكان سلوكه بكل وداعة وحلم وطول اناة مع انه كان من ذات طبعه مسودناً عصبياً عنيداً برأيه . لكن متى اكتشف الحقيقة كان يرجع عنه ويقر معترفا بخطاه بكل تواضع . وقد حكم عليه مجمع المدبرين مراراً في امور تتعلق بسلطته زاعمين انهم يفعلون ذلك لخير الرهبنة . فكان يطأطىء رأسه خاضعاً لقولهم بارتياح مع انهم

---

(١) المشرق ١٠ : ٦٩٦ (٢) شرح مؤسس الرهبنة قانونها في كتاب دعاه « المصباح الرهباني في شرح القانون اللبناني » تجده في اغلب مكاتب الديورة . وقد استنسخناه عن كتاب في دير مار انطونيوس النبع في بيت شباب وهو بخط كرشوني يحتوي ٣٨٨ صفحة بالقطع العادي . وقد اتم المطران عبد الله هذا الشرح في سنة ١٧٢١ كما جاء في تاريخ فرحات وخصص الباب الثاني منه للكلام عن العفة . وسننشر ان شاء الله هذا الكتاب النفيس في اول فرصة

جميعهم تلاميذه وهو الذي اقام مجمعهم » [١]

٣ — سلوكه مع الحكام والشعب

« وكان هذا المغبوط مفعماً من الله حكمة وافرازاً ونسكاً . ذا عقل ثاقب وعلم راسخ . فصيح اللسان بليغ المعاني محبوبا من كل من يراه . مهاباً لا يواجهه احد الاّ أحله محلاً عظيماً من الاعتبار واستهابه وأحس في نفسه بخشوع وميل الى العبادة . مع ان شكله لم يكن جميلاً . فقد كان اسمر اللون رقيق الجسم ذا رأس كبير ووجه انكش مستطيل ولحية خفيفة سوداء . ناتىء العينين عريض الجبهة طويل القامة ممشوق اكثر مما هو لازم . طويل اليدين رقيقهما طويل الانامل . وكان معبساً عبوس الفرح والاحتشام . ومع هذا لم يكن يواجه حكام البلاد المشهورين ابناء حماده .... [٢] بما ان دير مار اليشع الذي هو مبدأ الديورة كان في بلادهم ، فكانوا يغارون عليه وعلى الرهبان وعلى قيام القانون الذي انشأه عبدالله بزعمهم ان عبدالله الرئيس من اتقياء الله ورهبانه مثله ومهما كان يتكلم مع المشار اليهم يصدقونه ويعتبرونه بزعمهم ان هؤلاء الرهبان من زود تقاوتهم لم يتكلموا كذباً ولا كلاماً واهياً . [٣] وكان شفوقاً رحوماً شديد الاتكال على العناية الالهية . ففي احدى السنين حدث غلاء عظيم في طرابلس وجبة بشراي وفي كل البلاد وبلغ كيل القمح سبعة قروش [٤] ولم يكن له وجود . وكان عدد الرهبان في دير قزحيا ينوف عن الاربعين راهباً وكان الاجراء والمكارية ثمانية ، ورعيان المعزى والبقر اثني عشر . ما عدا ثلاثة عشر من البطوش [٥] وذوي العاهات الذين كانوا يعيشون من حسنة الدير وكان كل واحد منهم يأكل في وقعته قصعة طعام واكثر من عشرة ارغفة خبز . فضلاعن عدد كبير من الضيوف والزوار الواردين يومياً الى الدير واغلبهم جاء ليأكل لشدة جوعه . ولم يكن في الدير من القمح سوى مئة وخمسين

---

(١) المشرق ١٠ : ٦٣٤ و ٦٣٥ (٢) المتاولة الذين كانوا من اغلظ حكام الجبل واظلمهم للرعية (٣) المشرق ١٠ : ٦٣٢ (٤) كان القرش يعادل الريال في ذلك الوقت . ملاحظة للاب رباط المشرق في ١٠ : ٦٩٧ (٥) العاطلين

كيلا لا غير مخزونة في بئر [١] في كنيسة مار افرام خلف المذبح . وكان الدير يقطع كل يوم على العدد المذكور كيلين ونصف كيل من الطحين . فيكون في الشهر خمسة وسبعين كيل طحين . وكان باقي لطلوع القمح الجديد في السواحل سبعة اشهر. فتشاور البعض من الرهبان فيما بينهم ليكلموا القس عبدالله ليصرف هؤلاء البطوش من الدير لقلة القمح . وحين أعرضوا عليه استصعبه جداً وأجابهم قائلاً : اذا طردنا هؤلاء المساكين فمن اين يعيشون لان دير قنوبين [٢] خراب ولا احد يطعم فقيراً في هذه الايام الصعبة فيموت هؤلاء جوعاً بلا محالة . والاله الذي يقيتنا على المذابح ما هو قادر ان يقيتنا ويقيتهم ؟ فالقمح الموجود نأكله واياهم . فأجابه الرهبان « مثل ما تريد يا أبانا » . ولم يكتف بهذا بل أرسل الى وكيل الرهبنة ليشتري لكل واحد من هؤلاء البطوش كسوة كاملة اي لكل منهم عباء ومقطعاً وعرقية وشالة ومداس واستمر يقدم لهم الاكل كالاول من غير نقص . فياله من ايمان حي . لان القمح المذكور كفى لعدد الجمهور ولكافة الضيوف الواردين الى الدير الى ان طلع الشعير الجديد في الساحل فاشتروا واكلوا الى ان طلع القمح الجديد في السواحل ايضا فابتدأوا ان يشتروا ويأكلوا منه حتى طلع قمح الدير الجديد » [٣]

« وكان له اعتبار عظيم عند الغرب لانهم وجدوه رجلاً صالحاً محباً للحق ومبغضاً للكذب . وكانوا يكنونه بالمصري لسرعة جوابه [٤] وكان مصدقا عند الجميع مهاباً منهم . ومالي اقول مهاباً عند البشر بل عند الشياطين ايضاً كما يبان من هذا الحادث : اتفق مرة وهو في دير قزحيا [٥] ان جاؤوا الى الدير بمجنون فيه روح سوء . وكان مسيحياً من بلاد الدروز [٦] وكان ذا قوة عظيمة فيجتمع خمسة

---

(١) خوفا من السطو عليها (٢) مركز البطريرك الماروني (٣) المشرق ١٠ : ٦٩٨

(٤) يقول المثل العامي « المصري جوابه في فمه والحلبي جوابه عند امه » فعكس عبد الله هذه الاية فيه (٥) اشتهر دير قزحيا بشفاء المشعوذين وما زالت المعجزات تظهر فيه الى هذه الايام كما هو معروف من الجميع ويتوارد اليه طلاب الشفاء من كل الامم والمذاهب وقد يطلب المصابون بالعقم الى القديس انطونيوس فيرزقهم اولاداً يقدمون عنهم النذور (٦) لبنان الجنوبي

عشر رجلاً ليتمكنوا من تقييده . فوضعه الرهبان في الجنزير في مغارة المجانين . فدخل يوماً ما الاخ سليمان الشننعيري [١] الى المغارة ليراه وكنت انا معه . واذ شاهدنا المجنون اخذ يحرق بأسنانه نحونا ولا سيما نحو الاخ سليمان الذي كان صغير السن ويقول له : آه منك يا حنك الرخو . اخرج برا هذه الغيضة حتى اعلمك » وكان قصده بالغيضة الرهبنة . فاجابه الاخ المذكور : انا بنعمة سيدي يسوع المسيح لا اخاف منك يا ملعون لانه يقويني عليك . » اجابه المجنون المتشيطن وهو يفرقط باسنانه ممزقاً من الغيظ : ادعُ للذي عمّال يتمشى على السطح فان راح عنكم افرجكم » وكان عبدالله يتمشى في ذلك الوقت على السطح . فكأن اللعين لم يكن يجسر ان يدنو من الرهبان مهابة من عبد الله الذي كان بينهم . » [٢]

« ويوماً آخر كنت انا والقس عبد الله في طرابلس فجاء احد المسيحيين اسمه ابو نصار حاتم من كفر زينا [٣] ومعه ابنه البكر وعمره ست سنين وارتمى علي راجياً ان اقدم ابنه الى أبينا ليصلي عليه لان الولد كان من نحو ثلاث سنين مصابا بمرض عجز الاطباء عن شفائه وكان كل من يراه يظنه من الموتى . فلم اتجرأ ان اقدمه الى ابينا بل ارشدت والده الى ابينا واشرت عليه ان يتقدم اليه كمن جاء في شغل فيصلي عليه بهذه الطريقة . وهكذا صار . لان والد الصبي دخل الى عنده وبدأ يكلمه وبعد قليل اخذت انا الصبي وادخلته عندهم كأنه يطلب والده . ثم اشرت الى والد الصبي ان يطلب الصلوة لابنه من الرئيس . فصلى عليه . وبعد الصلوة بزمن قليل جداً برىء الصبي وانا اكلت التوبيخة بقوله لي : امش مستقيماً ولاتبربك عليّ ولا على غيري » [٤]

---

(١) لبس الاسكيم من يد القس عبد الله في ١٥ اب سنة ١٧٠١ وتوفاه الله في ٢٧ نيسان ١٧٠٧ (نقلا عن سجل الرهبنة) (٢) المشرق ١٠ : ٦٩٦ (٣) في ساحل لبنان الشمالي (٤) المشرق ١٠ : ٦٩٩

« وحين كان يتردد على دير ماريوحنا رشميا كان يعظ احياناً في الكنيسة القريبة من الدير . وكان الاهالي يعتبرونه بمنزلة قديس من غير ريب لوعظه وسيرته . فاتفق يوماً لاحدهم ان مر بقرب الدير وكان فيه عبد الله وكان مع الرجل حمار راكب عليه ابنه وله من العمر ثلاث سنين . فأخذ الحمار يعنطز ويركض والصبي فوقه وحده . فخاف ابوه وأخذ يستغيث بالقديسين . اخيراً رمى الحمار الصبي على رجمة من حجار . فصاح ابوه بأعلى صوته : ياصلاة الرئيس عبد الله . وركض نحو الصبي وفي ظنه انه تحطم على الحجارة . واذ دنا منه وكلمه اجابه الصبي ضاحكاً من غير ان يتأذى فيه شيء اصلاً كأنه وقع على فراش من الريش . فحمله ابوه من ساعته وادخله الى الدير ليزوره الكنيسة ووضعه امام عبد الله وطلب منه ان يصلي عليه واخبره بالحادث . فأجابه عبد الله : ان القديس يوحنا صاحب الكنيسة هو الذي حرسه . وبعد ان صلى على الصبي صرفه . وكان ابو الصبي يذيع هذا الخبر عند كل من يراه [1] »

« ثم ان الفطنة التي اوهبها الله لابينا عبد الله كانت تفوق عقول الكثيرين . والاولى ان اقول انه بذلك كان فريد عصره . فكان رشده للمبتدئين يفوق عقول السامعين . وكان يرشد الرهبان المتقدمين في الفضيلة بنوع آخر لا يقل عن ارشاد الاباء الاقدمين . وكان يشبه القديس انطونيوس في ارشاد الديورة المشتركة والقديس اسحق في نصائحه وادارته الروحية للحبساء حتى بلغ بعضهم درجة القداسة . منهم القس يوسف البتن الذي بلغ درجة تواضع عميق . فكان الرؤساء الذين كانوا يتناوبون على الدير وكلهم احدث منه عهداً في الرهبنة يأمرونه بالركوع اكثر الاحيان على المائدة حتى نهاية العشاء لتمكينه من فضيلة التواضع والطاعة واعطائه مثلاً صالحاً لبقية الرهبان . وكان يضنك نفسه في خدمات الدير الدنيئة وينظف قلالي الرهبان

---

(١) المشرق ١٠ : ٧٣٠

في غيابهم ولا ينفك عن نصحهم وملاحظة امورهم الروحية وراحتهم والتودد اليهم بكل انواع الخدمات . ومنهم انطونيوس من دلبتا الذي جاهد في محبسة مار بولا جهاداً كان يرى فيه الرهبان ما يقرأونه في كتاب بستان الرهبان عن الآباء الاولين الحبساء وانتقل الى ربه بعد حياة مقدسة تجدها مسطرة في تواريخ الرهبنة . وقد كان تلميذ القس عبد الله لان الله اعطاه نعمة الارشاد حسب مقدرة كل واحد ودرجته . وهكذا قل عن بقية تلاميذه مثل القس باسيل الهدناني والقس سليمان الشننعيري والقس حنا زوين والقس حنا الباني وغيرهم ممن كانوا مثالاً للقداسة والورع والتقشف . وكلهم تلاميذ القس عبد الله وهم يشاهدونه الآن في السماء » [1]

الفصل السادس

في انتشار طريقة الرهبانية اللبنانية

١ — الشجرة

اذا تشربت الارض شمس الربيع دبت فيها الحرارة فأنبتت الاعشاب والازهار والمزروعات ، وسرت ماء الحياة الى لب الاشجار فاخضرت اغصانها و برزت ازرارها وزهت اوراقها وانبسطت فروعها واتسعت ظلالها على سطح الارض واصبحت وجهة لانظار المارين ومحطة لرحال المسافرين .

كانت روح عبد الله للرهبانية الحديثة كحرارة الشمس للارض ، فدبت في رهبانه رغبة العبادة والزهد فتباروا في اعمال الكمال المسيحي ، ونمت شجرتهم الصالحة وانضرت وتعددت اغصانها وأثمرت ولفتت الانظار الى جمالها وقوتها وحسن تنسيقها ، فتهافت عليها الطلاب للاستظلال بها والراغبون في عيشة العزلة والتعبد والدرس للتطعم من اصلها ، وكانوا من كل حدب وصوب ومن مختلف الطوائف والمذاهب . ونبتت في اصلها وتحت ظلها شجيرات لم تلبث ان اصبحت اشجاراً عظيمة بهية

(١) المشرق ١٠ : ٧٣٦ و٧٣٨ و٧٩٨

المنظر شهية الثمر ، اعني بها الرهبنات الباسيلية والانطونيانية والارمنية والكلدانية .

والغريب في جو الشرق ان الاغصان النابتة في أصل هذه الشجرة المباركة ، مع ما كانت عليه من الاختلاف في الشكل ، تمتعت بالمساواة التامة بينها ، فكان لكل غصن كفايته من الغذاء في لب الشجرة وحصته في الشمس والهواء .

فقد كان الرئيس عبد الله صاحب العقل الراجح والصدر الواسع يرحب بكل الراغبين في رهبنته على السواء ولا يفرق بين الماروني والرومي الكاثوليكي او الارثوذكسي والسرياني والارمني والقبطي واليعقوبي حتى اليهودي . [1] وكان شديد الحرص على المساواة الاخوية بينهم ونزع النعرات والفروقات الطائفية منهم ، فكان يوزع عليهم الوظائف بدون ادنى تمييز الا في المقدرة . وهي امثولة عظيمة من سعة الصدر والمحبة المسيحية والتضامن الوطني كان هذا الرئيس الحكيم يلقيها على تلاميذه ومواطنيه وأولاد طائفته في عصر متقهقر كثر فيه التحاسد والتنابذ بين الطويئفات الشرقية المسيحية . فكان غير الماروني الداخل في هذه الرهبنة لا يشعر بنفسه ضيفاً على اخوته بل أخاً ، له كل مالهم وعليه كل ما عليهم ، فينصرف كل منهم باخلاص الى خدمة الله والرهبنة والوطن بكلما اوتيه من نشاط وذكاء . ولا يسع المقام تأييد قولنا بسرد اسماء الرهبان غير الموارنة المنضمين تحت رعاية هذا الاب الفاضل [2] ، فنكتفي بذكر ارسانيوس عبد الله الاحد وتوما العاقل السرياني الاصل ، اللذين انتخبا للرئاسة العامة على الرهبنة اللبنانية ، ورقي الاول منهما الى اسقفية دمشق المارونية ؛ ويواكيم بلاديوس بليط المؤلف الشهير [3] وبطرس ساعاتي الارمنيين ، وبولس يونان الرومي الارثوذكسي وموسى هيلانه شامي الرومي الكاثوليكي ، الذين تولوا وظائف مدبرين

---

(١) كان بين المبتدئين في دير مار اليشع « الاخ بولس العبراني ، ومتى الارثوذكسي البيت لحمي ، ومخايل وبطرس الحلبيين اليعقوبي الاصل » (٢) راجع بعض اسمائهم في المشرق ١٠ : ٦٣٠ و٦٣٤ وفي تاريخ بلبيل في نهاية حوادث كل سنة من سني رئاسة المطران عبد الله (١٧٠٠ — ١٧١٦) (٣) راجع المخطوطات النصرانية للاب شيخو ٦٣ و٦٤

في هذه الرهبنة ، وكان الاخير من مؤسسي رسالة الرهبانية المارونية في دمياط [١]

وقد طلب القس عبد الله الى رهبانه ان يتبعوا جميعهم الطقس الماروني منعاً للتشويش في اقامة الحفلات الدينية والرتب البيعية ومحواً لأثر كل اختلاف مذهبي بينهم ، فلا يُعرف الواحد منهم الى اي طائفة كان منتمياً ، وينفتح لجميعهم باب الترقي في الوظائف الرهبانية والكنسية ، كما سبق لارسانيوس شكري السرياني الاصل ان رقي الى مطرانية دمشق المارونية . وليست هـذه بدعة في الكنيسة بل نظاماً متبعاً في الرهبنات اللاتينية وافقت عليه السلطة الكنسية العليا . ففي سنة ١٧١٦ شكا اقليميوس ، مطران صيدا على الروم الكاثوليك ، القس عبد الله الى الكرسي الرسولي انه يقبل في رهبنته اشخاصاً من طائفة الروم الكاثوليك ويرقيهم الى الدرجة الكهنوتية على الطقس الماروني ، وطلب اجبارهم على العود الى طائفتهم والدخول في رهبانياتها . فأجابه الكرسي الرسولي « انه يجوز للملكية ان ينتقلوا الى رهبنة الموارنة وطقسها » [٢]

٢ — تسمية الرهبنة باللبنانية

ورغبة في نزع كل ما يشتم منه رائحة الانانية والتعصب الوطني ابدل الرئيس عبدالله اسم رهبانيته ، التي كانت تعرف بالحلبية لكثرة الحلبيين فيها وتأسيسها منهم ، باسم الرهبانية اللبنانية ، اي الناشئة في جبل لبنان . واليك ما قال في مذكراته :

« وفي هذه السنة [٣] تحسن عندي ان ادعو رهبنتنا باسم « الرهبنة اللبنانية » وتلقيب الرهبان « باللبنانيين » نسبة الى جبل لبنان ، كما يسمى رهبان الكرمل بالكرمليين . وسبب ذلك اني عرفت بالرمز ان بعض الاخوة لم يستحسنوا اسم الرهبنة الحلبية ، لأنه اسم مشترك مع سكان حلب . ولما دخلت سنة ١٧٠٧ طلبت من السيد البطريرك ان يسمينا باللبنانيين ، فارتضى وصار يكاتبنا به » وهكذا ازال

(١) جاء الى دمياط في صيف سنة ١٧٤٥ وتوفي فيها في ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٤٨ . وله كتيب رد فيه على القس مسعد خادم الروم الارثوذكس في القاهرة ودافع فيه عن عقائد المذهب الكاثوليكي (٢) بليبل ج ١ ص ٩٢ (٣) ١٧٠٦

القس عبدالله من رهبانيته كل ما تنفر منه نفس الغريب ، وفتح بابها على مصراعيه لكل راغب من الشرقيين في العيشة الملكية ، واكتسب لجمعيته الحديثة ايادي عاملة في فروع الاعمال العلمية والادبية والروحية والاشغال الصناعية والزراعية . فما أبهى هذا العمل الوطني في تلك الازمنة المظلمة ، وما اجل فوائده في تلك العصور المتقهقرة . ما اجمل هذه الجمعية الاشتراكية ، حيث يشعر جميع الاعضاء بانهم اخوة من اسرة واحدة ، تحت رعاية اب واحد فاضل عادل عاقل حنون ، وانهم كلهم عملة في كرم واحد تحت ادارة رئيس حاذق نشيط . ما اعظم هذا الدستور وأمتنه ، حيث لكل مقدرة مجال وحيث ينتخب الرئيس بالقرعة السرية لمدة محدودة قصيرة ، ويعاهد منتخبيه على الخضوع لمشورة هيئة مدبري الرهبانية ، واذا انتهت مدته ورغب مرؤوسوه في تجديد رئاسته جددوها ، والا اسقطوه فينزل عن كرسيه العالي خاضعاً راضياً ساجداً لمن اصابته القرعة بعده ، وقد يكون خلفه آخر القوم بالامس رتبة . فهل حلم الشيوعيون بدستور يماثله في القوة والنظام والمرونة ؟ فقد كان الجميع يعملون للمجموع ويتناولون حصة وافرة كاملة من المنتوج ، لا يتخصص احد منهم بشيء ولا يتميز عن غيره بشيء مطلقاً . يجلسون كلهم على مائدة واحدة ، ويأكلون كبيرهم وصغيرهم صنفاً واحداً مطبوخاً بأيديهم ، وخبزاً واحداً معجوناً ومخبوزاً بأيديهم ، ويلبسون لباساً واحداً من قماش ولون واحد حاكوه وخاطوه بأيديهم . فهل بعد هذا الدستور من مساواة واخاء وحرية واتحاد ؟

وأعظم من ذلك ان هذا النظام البديع في شكله وتركيبه لم يبق وهماً جميلا في المخيلة او حبراً على ورق بل وضع للعمل وعاش اكثر من قرنين ، وما زال باذن الله وروح واضعه ، حياً نامياً قوياً ، مدراً الخيرات لذويه وللوطن العزيز وطوائفه .

٣ — الخلية ونحلها

وقد اصبح دير مار اليشع خلية نحل حامت حولها النفوس السامية وازدحمت فيها . فضاق بقاصديه ولم تعد قلياته كافية لطلاب العبادة فيه ، التي اصبحت

كالعسل البكر شهية الطعم معطرة الرائحة . ففكر القس عبد الله في توسيع الدير كما جاء في مذكراته :

« ثم دخلت سنة ١٧٠٣ والاخوة يزدادون بنعمة الله عدداً وعبادة . ولما كانت سنة ١٧٠٤ امتلأ دير مار اليشع رهباناً لانه ضيق المقام وصرنا نفتكر في ان نوسعه . واستصعبنا ذلك خوفاً من الصخور المشرفة عليه لئلا تسقط فتصيب العمارة الجديدة ! ولذلك بقينا على ما نحن عليه مزدحمين »

٤ — عودة فرحات

وقد طفح قلب عبد الله فرحاً لعودة صديقه الحميم ورفيق صباه المحبوب القس جبرائيل فرحات . قال : « ان المذكور كما سبق القول افترق عنا في سنة ١٧٠٠ وانفرد في قرية زغرتا يعلم الاولاد . وفي السنة الماضية اعني سنة ١٧٠٥ رجع الينا . وسبب رجوعه كان مرض جسمه . لان الاطباء نهوه عن السكنى في زغرتا لسوء مناخها [١] فخاف وطلب منا ان نقبله فقبلناه بفرح . وكان يقول انه منذ افترق منا ما استراح ضميره البتة . وفي هذه السنة [١٧٠٦] اقمناه رئيساً على دير مار اليشع لجودة فطنته وحسن غيرته . لانه كان حاد المزاج بليغ في همته ذا علم راسخ فيلسوفاً ماهراً شاعراً مفلقاً . وله قيمة عظيمة عند الاكابر والاصاغر لفصاحته ودقة فهمه . »

ويقول فرحات بتواضع في تاريخه « وفي سنة ١٧٠٥ ارتد القس جبريل فرحات تائباً الى الرهبنة التي كان خرج منها واحصي ما بين اخوته . وفي هذه السنة انعقد المجمع العام وثبتوا القس عبد الاحد رئيساً عاماً . وفي هذا المجمع نذروا النذر الرابع وهو نذر التواضع اي انهم لا يقبلون رئاسة الا عند الزام من له الحكم عليهم . وكلهم نذروا هذا النذر . وكتب الرئيس شرطونية لبس الاسكيم [٢] وأثبت صورة

---

(١) فهي شديدة الحر في الصيف لقربها من الساحل وموقعها في جورة وكثيرة الرطوبة في الشتاء لاحاطة تهري ابي علي ورشعين بها . وهذا ما حمل الاهالي على تسميتها « زغرتا » وهو اسم محرف عن السريانية « جزرتا » اي الجزيرة . (٢) اي رتبة لبس الاسكيم وهي من وضع المطران عبد الله تجدها في كتاب الرتب الرهبانية الذي طبعه الاب افرام حنين الديراني

النذورات الاربعة . والقانون مؤسس على هذه النذورات الاربعة . انما أخروا الرابع حتى اخذوا صورته من الرهبان الكرمليين [١] » وذلك على قول القس عبد الله في مذكراته « لاننا وجدناها مختصرة وكافية »

٥ — الرهبانية الباسيلية

وطرح الله البركة في الرهبانية اللبنانية الفتية، فأخصبت وولدت خمس رهبنات في غاية الجمال والكمال ، كن وما زلن فخراً وسنداً للوطن ومثالاً صالحاً للتقوى والتدين، وامهات لرجال عظام خدموا الشرق خدمات خالدة في الدين والعلم والفنون

أولاهما رهبانية القديس باسيليوس المعروفة قديماً بالحناوية والمنقسمة الآن الى شويرية وحلبية . ظهرت للوجود في سنة ١٦٩٧ تحت أريج الصنوبر ووريف ظلاله وحفيف وريقاته في دير القديس يوحنا الصابغ المعروف بالطبشي بقرب الشوير بلبنان . كان مؤسسوها ورهبانها الاولون حلبيين أشهرهم رئيسهم الخوري نقولا الصايغ صاحب الديوان المعروف باسمه والتآليف الروحية والادبية [٢] . والشماس عبد الله زاخر الكاتب القدير الذي وضع نحو عشرة كتب ناضل فيها عن صحة المذهب الكاثوليكي ضد الارثوذكس الشرقيين . وهو مؤسس المطبعة الشويرية ومخترع وصانع اكثر ادواتها ، واغلبها محفوظ الى الآن في الدير المذكور ينطق بمهارته وتفننه ونشاطه [٣] . وكلا الرجلين من تلاميذ فرحات

وقد اتخذ هؤلاء الرهبان دستوراً لهم قوانين وفرائض الرهبانية اللبنانية منذ نشأتهم حتى سنة ١٧٤٨ ، التي تبعوا فيها قانون القديس باسيليوس .

قال الخوري يوسف مارون الدويهي في كتابه «شرف الرهبنة اللبنانية» المذكور اعلاه « فالبعض من الملة الملكية اقتبسوا طريقة الرهبانية اللبنانية واتخذوا قوانينها

---

(١) الذين كانوا مجاورين للرهبان اللبنانيين في قرية بشري (٢) راجع ترجمته في المشرق ٦ : ٩٧ — ١١١ وبيان تاليفه في «كتبة النصارى» للاب شيخو ص ١٣١

(٣) اطلب ترجمته في المشرق ٢ : ٣٦١ و٧١٩ و٣ : ٩١٥ وفي تاريخ الروم الملكيين ص ٤٧. وتجد اسماء تاليفه في كتبة النصارى لشيخو ص ١٠٨

وسلكوا بها وارتشدوا من آبائها . » ولهم في زوق مكائيل بساحل كسروان انطوش وكنيسة على اسم القديس جرجس شيدوهما على ارض زراعية اوهبها الشيخ خالد الخازن للاجئين من طائفتهم الى لبنان . [١] وفي سنة ١٧٤٧ اعطى الشيخ موسى بن طربيه لهذه الرهبانية في القرية نفسها محلاً اقاموا فيه ديراً وكنيسة على اسم القديس ميخائيل شفيع القرية [٢] .

وفي سنة ١٨٢٨ انقسمت هذه الرهبنة ، اسوة بالرهبانية اللبنانية امها ، الى حلبية وبلدية او شويرية

٦ — راهبات البشاره

وفي سنة ١٧١٩ حرك الله قلوب ثماني عذارى حلبيات من طائفة الروم الكاثوليك للسلوك في طريق العبادة والتقشف والطهارة الملكية فقصدن الى لبنان معقل الكثلكة ومحجة العباد ، فاعطاهن الشيخ موسى الخازن محلاً في قرية زوق ميكائيل المذكورة ، حيث شيدن ديراً على اسم بشارة مريم العذراء [٣] انفقن عليه ثمانية عشر كيساً او تسعة آلاف قرش من مالهن فضلاً عما جمعنه من الاحسانات في حلب ولبنان .

وقد كتب المطران مكسيموس اسقف حلب الملكي حججاً مؤداها ان يكون هذا الدير تحت ارشاد رهبان مار يوحنا الصابغ وادارتهم [٤] فسلكن مدة حسب قانون هؤلاء الرهبان اي قانون الرهبنة اللبنانية الذي وضعه المطران عبد الله قرألي . لكن الآباء اليسوعيين الذين كانوا في مدرسة عينطورا على مقربة من الراهبات المذكورات رغبوا في تسلم شؤونهن ووضعوا لهن قانوناً مؤلفاً من رسوم القديس فرنسيس سالس اليسوعي سموه قانون القديس اغوسطينوس [٥]

---

(١) مجلة المشرق ٤ : ٩٧٥

(٢) المشرق ٤ : ٩٧٦

(٣) المشرق ٤ : ٩٧٥

(٤) بليبل ص ٣٢٥ حاشية

(٥) راجع بليبل ص ٣٠٧ و ٣٠٨

واليك ماجاء بهذا الخصوص في كتاب ارسله القس توما البودي رئيس الرهبان اللبنانيين العام في ٢٠ اغسطس سنة ١٧٣٨ الى القس يواصاف البسكنتاوي رئيس دير رومية قال : « فاليسوعية يريدون ان يعملوا لهن قانوناً عربياً ويطعموهن لحماً ويكونوا مرشديهن في الروحيات . والرهبان الملكيون يريدون خلاف ذلك اي ان تكون الراهبات سالكات بموجب قانونهم وان يسمين باسيليات وان لا يأكلن لحماً ويحفظن القانون اللبناني اعني قانون رهبنتنا ، ولو تسمين باسيليات . فلما اشتد الخصام ارسل حضرة المطران اثناسيوس دهان ، الساكن يومئذ في دير مارميخائيل بزوق ميكايل ، فحرم الراهبات اللواتي يأكلن لحماً بغير مرض . فحضر اليسوعية حالا للدير وعرفوهن واذنوا لهن باكل اللحم وفشروا حرم المطران زاعمين ان هؤلاء البنات نذرن ان يكن عابدات ولم يصرن بعد راهبات وما عادوا يسموهن الا عابدات » (١)

وقد اتخذت هذه القضية دوراً مهماً واستفتى الرهبان الباسيليون فيها المطران عبد الله قرألي، وكان ساكناً في ذلك الوقت في عينطورا ، فجاءت فتواه في جانب الآباء اليسوعيين . فرفع الرهبان الباسيليون امرهم الى رومية . وتجد تفاصيل هذه الدعوة في كراس مخطوط محفوظ في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت يتضمن رسالة من الشماس عبد الله زاخر موجهة الى الاب فرماج رئيس الآباء اليسوعيين ، وجواباً على هذه الرسالة كتبه المطران عبد الله بعد وفاة الاب فرماج (٢)

٧ — الرهبانية الانطونيانية

وثالثة الاخوات هي الرهبنة الانطونيانية المارونية التي نشأت في دير مار اشعيا بقرب برمانا بلبنان .

---

(١) بليبل ص ٣٢٥ — ٣٢٨ (٢) راجع كتبة النصارى للاب شيخو ص ١٠٩ رقم ١٢ و ص ١٦٩ رقم ٣

قال القس عبد الله في مذكراته :

« وفي هذه السنة [١] اخذ قانوننا الخوري سليمان المشمشي . كان هذا رئيساً على دير طاميش [٢] ولرغبته في القانون ترك ديره برضى ومشيئة رئيسه المطران جبرايل وسكن دير مار اشعيا مع من تبعه . وسلكوا مثلنا حسب القانون . وكانوا يأخذون مشورتنا في ما يصعب عليهم من هذا القانون . وبقوا عليه حتى الآن [٣] »

وقال القس عمنوئيل البعبداتي في تاريخ الرهبنة الانطونيانية المذكورة [٤] :

« ان البطريرك الدويهي امر مؤسسي رهبنتنا بان يتخذوا القانون المرسوم لاخوتنا الرهبان الحلبيين اللبنانيين [٥] . فامتثلوا واخذوا نسخة عن ذلك القانون محكمة الضبط . فما قرأوه وامعنوا النظر والفكر في ما يحتويه من الرسوم والقوانين والفرائض الا واردفوا الشكر لله طويلاً وقالوا : ان اصبع الرب هنا . تبارك الرب الهنا الذي اهلنا لارث القديسين »

وفي سنة ١٧٣٩ تدخل المطران الياس محاسب الذي كان دأبه معاكسة المطران عبد الله ومشاريعه ، في شؤون الرهبنة الانطونيانية لاسباب لا محل لذكرها هنا واوقع الخلاف بين رهبانها وحمل البعض منهم على نبذ القانون اللبناني والسير على حسب قانون القديس اغسطينوس [٦] . لكن فريقاً منهم تشبث بالمحافظة على القانون اللبناني . ولما اشتد الخلاف بينهم وبين المحدثين طلبوا الانضمام الى الرهبنة اللبنانية . فسمح لهم بذلك الاب توما رئيسها بعد ان استشار المدبرين واستفتى بعض المطارين وفي مقدمتهم المطران عبد الله . لكن المجمع الرهباني اللبناني لم يسمح لهؤلاء بحق

---

(١) ١٧٠٥ (٢) ذكرنا ان دير طاميش كان كرسيا للمطران جبرائيل البلوزاوي اسقف حلب وان مؤسسي الرهبنة قضوا فيه مدة قبل انشائهم لرهبنتهم . وقد بنى المطران جبرائيل دير مار اشعيا تلبية لرغبة الخوري سليمان المذكور . (٣) نشر السمعاني قانون الرهبنة الانطونيانية بناء على طلب رهبانها وهو قانون الرهبان اللبنانيين بعينه . (٤) ص ١٠٦ (٥) اي الذي وضعه القس عبد الله قرألي واثبته البطريرك المذكور . (٦) لعله مشابه للقانون الذي حمله الاباء اليسوعيون الى راهبات البشارة كما سبق القول .

الانتخاب الا بعد صدور امر الكرسي الرسولي بشأنهم . [١]

٨ — الرهبانية الارمنية

والرهبانية الارمنية هي رابعة الشقيقات المتربيات في حضن الرهبانية اللبنانية . قال فرحات في تاريخه :

« وفي سنة ١٧٠٨ اتى الى دير مار انطونيوس قزحيا شابان من طائفة الارمن الكاثوليك ، يدعى احدهما يعقوب والآخر يوحنا ، وارادا ان يتمرنا على الحياة النسكية والعيشة المشتركة ويتعلما السير الرهباني وتهذيبه ليتسنى لهما ان ينشئا رهبنة لطائفتهما . ومكثا في الدير المرقوم عشر سنوات اي الى سنة ١٧١٨ . ثم انضم اليهما اثنان آخران وهم ميناس وابرهيم الحلبيان . فأسسوا رهبانية الارمن في دير المخلص الكريم وتبعوا قوانين وفرائض رهبانيتنا المارونية الى اليوم » [٢]

وقد جاء في نبذة « اوقاف العائلة الخازنية » للشيخ شاهين الخازن التي اخذنا عنها ان « الشيخ صخر بن ابي قنصوه الخازن اوقف سنة ١٧١٦ على هذه الرهبانية دير الكريم المذكور في قرية غوسطا [٣] . وفي سنة ١٧٤٨ اوقف الشيخ مشرف الخازن والشيخ انطون قبلان الخازن على طائفة الارمن الكاثوليك مزرعة بزمار برمتها [٤] وهي بين قريتي غوسطا وعشقوت . وبعد ان باع الرهبان الارمن سنة ١٨٦٥ دير الكريم المذكور الى المطران يوحنا حبيب مؤسس المرسلين اللبنانيين الموارنة ، انتقلوا الى دير بزمار الذي اصبح مركزاً لبطريركهم ومدرسة لاكليرسهم . وفي سنة ١٨٢٠ اوقف بنو هيكل الخازن على الرهبان المذكورين دير القديس انطونيوس خشبو قبلي غزير بعد ان جددوه لهم على أحسن طراز . [٥]

وابريهم المذكور كان صديقاً حميماً للمطران عبد الله كما سيأتي الكلام وقد

---

(١) وقد اخذت هذه القضية دوراً مهماً لا يسعنا تفصيله هنا وتجدها مشروحة في بليبل ٣٢٠ - ٣٥٩ (٢) راجع بليبل ص ٧٩ و ٨٠ والبعداتي ص ٢١ وسجل الرهبنة الارمنية المحفوظ في دير بزمار (٣) المشرق ٤ : ٩٧٥ (٤) المشرق ٤ : ٩٧٦ (٥) راجع المشرق ٤ : ٩٧٧ وتاريخ كسروان للحتوني ص ٢٤٨

درس عليه الشريعة فبرع فيها . وقد وجدنا له في مكتبة الشرفة مؤلفاً في الحق القانوني . وسيم فيما بعد اسقفاً على حلب ثم بطريركاً على طائفته .

وقد عثرنا بين اوراق المثلث الرحمات البطريرك بولس مسعد المحفوظة في خزانة بكركي على كتاب من الرئيس العام لرهبان الارمن الى البطريرك المذكور يشهد باهتمام المطران عبدالله قرالي بهذه الرهبنة ، ولما يحويه من معلومات جليلة بعضها خطي وبعضها تقليدي نورد هنا نصه :

« انه منذ برهة ليست بقليلة قد عزمنا ان نضع تاريخ تأسيس رهبنة مار انطونيوس حيث مرادنا الاعتناء باشهارها بالنوع الاكثر تاكيداً . فلذلك قدقصدنا بان نعرض لغبطتكم كي توضحوا لنا بعض اخبار بحسب الامكان في هذا القبيل سوى (سواء) كان بكتاباتكم او ببعض اعلام موافقة لموضوعنا هذا . كذلك نؤمل من غبطتكم ان تخبرونا عن الاخوة الاربعة الاقدمين الحلبية ميناس وابرهيم ويوحنا ويعقوب الذين أسسوا الدير [1] ثم دخلوا ديركم ليتعلموا القوانين والترتيب المختص في الدير . اما ريس الدير فكان حينئذ عبدالله قراعلي الذي بعد ان علم سنين قد استماح الاذن من البطريرك الحالي بان يقطن جبل لبنان ويأسس له ديراً ليسكنه . وقد كتب ان غبطة البطريرك يعقوب في ذلك الوقت ،اذ انه شكك في ايمانهم،[2] الكاثوليكي الروماني امرهم ان يقطنوا دير مار جرجس عوكر [3] منفردين عن الشعب حيث بقوا هناك خمس سنين وعمروا ثلاثة أوض وكابلا ، وانهم بعد ذلك تركوا الدير من جور العساكر الاسلام التي كانت تتعدى عليهم . الا ان البطريرك عند علمه بالخطر والضرر الملمين بهؤلاء الرهبان قد امرهم حينئذ بالسكنى في ارض كسروان وان يبنوا لهم ديراً خصوصياً حسب مرامهم . ثم قد كتب [4] ان مشايخ بيت الخازن من جودتهم وكرمهم قد منوا عليهم بايهابهم اياهم ارض الكريم مجاناً وان البطريرك المومى اليه قد سطر الحجة باسم الاخوة الاربعة الموردين

(١) يقصد الرهبنة (٢) الاخوة الارمن (٣) على ساحل بيروت وهو باق الى الان .
(٤) اي المطران عبد الله ولم نتوفق الى هذه الرسالة وربما يشير الى مذكراته

ابرهيم و يوحنا وميناس و يعقوب وانه اي غبطة البطريرك المذكور كان يحث شعبه بالاسعاف لهم في عمار الدير . و بالنتيجة ان عبد الله قراعلي كان مرشداً ومشيراً في هذه المصالح جميعها [١] وانه بعد ارتقائه الى درجة الاسقفية كان غيوراً جداً على هؤلاء الرهبان اذ انه قد اعطاهم كتب وتذاكير وما اشبهها . فقد اعرضنا بان قدماء الرهبنة قد كتبوا في موضوعنا هذا واننا نرجو ايضاً ان نتيقن عن هذا جيداً من غبطتكم [٢] . فنؤمل اذاً ان تعرفونا عن جميع ما بدى سوى بالكتابة او بالتسليم (بالتقليد) ام باي نوع كان مختص برهبنتنا هذه او بالذي موضوع في السجل [٣] مهما كان يخص ابناء رهبنتنا . ونرجو دائماً رضاكم مع ثم انا املكم المقدسة »

ولد قدسكم

ورتاس (؟)

اب عام رهبان الارمن انطونياني

٩ — الرهبنة الكلدانية

وكان القانون اللبناني دستوراً للرهبنة الكلدانية ايضاً، حمله الاب جبرائيل دانبو مؤسسها حتى الى الموصل . فان هذا الرجل الصالح قد هجر العالم ورغب في الانقطاع الى العبادة ، فاشار عليه أحد المرسلين الكرمليين اصحاب دير مار سركيس في بشري بقرب مار اليشع ، ان يقصد الى لبنان ليتمرن في ديورته على عيشة الزهد تحت تدبير الرهبان الموارنة فمكث دانبو بينهم ثلاث سنين ثم عاد الى بلاده سنة ١٨٠٣ ورمم ديراً قديماً بالقرب من الموصل على اسم القديس هرميزدا وصار اباً لاولاد كثيرين وافوه ورغبوا في العيشة الرهبانية معه تابعين قانون الرهبان الموارنة . وفي سنة ١٨٣٠

---

(١) كان للمطران عبد الله نفوذ عظيم لدى ال الخازن حكام كسروان في ذلك العهد كما سيأتي الكلام ، فتوسل بهذا النفوذ ليحملهم على مساعدة الرهبنة الارمنية التي ما برحت ان اصبحت معقل هذه الطائفة المتجددة . فهذه الرهبنة من حسنات صاحب الترجمة وهي تعطي ثمارها الى ايامنا هذه .

(٢) كان البطريرك مسعد ثقة في التاريخ الشرقي (٣) رتب البطريرك مسعد سجلا للبطريركية في ثلاثة اجزاء كبيرة ما زال محفوظا منذ عهده الى الان في الخزانة البطريركية الخاصة.

زوده البطريرك يوسف حبيش بكتاب يوصي فيه ابناء طائفته ليمدوه بالمساعدات المالية لان رهبانيته وليدة الرهبانية المارونية . [١] وقد كان كلدان حلب يحسبون انفسهم في عدد انفار الطائفة المارونية وتحت حماية اساقفتها [٢]

تم في الرهبنة المباركة التي أسسها عبد الله ما قاله البابا اكليمنت ١٣ في براءة تثبيت قانونها « لقد اثبتناه تنزيهاً لهذه الرهبنة عن المطاعن وحملاً لسائر الطوائف الشرقية التي خرجت عن الدين الكاثوليكي او شذت عن التهذيب الرهباني على الاقتداء بطريقتها والاخذ عنها » [٣]

وتم في القس عبد الله مثل حبة الخردل التي قال عنها السيد له المجد ، انها اصغر الحبوب لكنها نمت وصارت شجرة عظيمة تستظل طيور السماء تحت اغصانها . وخرجت منها فروع كبيرة وغصون كثيرة ما زالت الى الآن تنمو باطراد وتثمر ثماراً شهية في الفضيلة والعلم والوطنية .

الفصل السابع

في توسع الرهبنة اللبنانية بالديورة

مار يوحنا رشميا . مار انطونيوس صير . اللويزه

١ — آل حماده

ترعرعت الرهبنات الباسيلية والانطونيانية والارمنية التي نشأت في حضن الرهبنة اللبنانية واستقلت عن امها وصارت في أمان وطمان لاقامتها في مقاطعتي كسروان والقاطع تحت حماية آل الخازن الموارنة ، بخلاف والدتها ، فقد كان صغارها مزدحمين في دير واحد بوادي القديسين وتحت سوط آل حماده الظالمين. وقد اغتصب هؤلاء حكم الجبة وطغوا وبغوا وبلغت منهم الوقاحة أن ضرب احدهم شيخ الطائفة المارونية وأباها وعلامتها البطريرك اسطفان الدويهي . فاستنجد البطريرك بال الخازن اولاده

---

(١) المشرق ٢٦ : ١٠٦ و ١٠٧ (٢) المشرق ٢٦ : ١٠٩ (٣) بليل ص ١٧٥

فأنجدوه وجاؤوا به الى كسروان فسكن دير مار شليطا مقبس في قرية غسطا ، ولكنه لما شعر بدنو أجله ، لم يرض الا ان يدفن مع آبائه في مغارة القديسة مارينا بقرب دير قنوبين . فهم اليه وتوفي فيه بعد وصوله بقليل . وكان ذلك في ٣ ايار سنة ١٧٠٤ . [١] قال القس عبد الله في مذكراته :

« وسرت الى البطريرك اسطفانوس لما كان مريضاً وطلبت دعاءه فباركني انا ورهباني . وبعد يومين تنيح وسيم عوضه المطران جبريل مطران حلب [٢] يوم العنصرة [٣] . وكان هذا غير محب لرهبنتنا لكنه لم يعاندنا بشيء »

فاذا كان هذا ما جرى بالعود الرطب فكيف باليابس . يقول فرحات في تاريخ سنة ١٧٠٦

« ولما كثرت الرهبنة كثرت تجاربها واطلق عليها الشيطان منذ ذاك الحين عنان المحن والاضطهادات لتعرف بهذا انها رهبنة حقيقية قائمة بأمر الله . وكانت مع ذلك في ضنك من الامم الغريبة ، خاصة في جبة بشري حيث كان كرسي رهبنتهم. لان البلاد كانت تحت سلطة قوم مسلمين شيعيين اي من تباع علي يسمون بنو حماده . وكانوا حاكمين البلاد غصباً عن بيت عثمان اصحاب الملك . وكان اكثر البلاد خراباً من ظلمهم الزائد الحد »

ففكر الرئيس عبد الله بان ينشيء لاولاده ديراً بعيداً عن هؤلاء العتاة ، فتيسر له بمعونة الله افتتاح ديورة كثيرة : دير مار يوحنا رشميا ، ودير مار انطونيوس بالقرب منه في جنوب لبنان ، ودير اللويزه على ساحل كسروان ، ودير السنديان في عكار ، ودير القديسين بطرس ومرشلين في رومية ، فضلا عن دير القديس انطونيوس قزحيا . وسنأتي بالتتابع على ذكر كل من هذه الديورة . وسترى حكمة القس عبدالله

---

(١) راجع وصف هذا الاضطهاد في مقدمة تاريخ الدويهي ص ٢٢ . وفي ترجمة البطريرك الدويهي للمأسوف على علمه المطران بطرس شلبي ص ٢٤١ — ٢٥٠ (٢) البلوزاني صاحب دير طاميش ومؤسس الرهبنة الانطونيانية . (٣) ١٢ مايو سنة ١٧٠٤

في افتتاحها. فقد صارت ملاجىء أمينة للرهبانية حين اضطرت الى هجر جبة بشري هربًا من آل حماده .

٣ — دير مار يوحنا رشميا

قال القس عبد الله في مذكراته :

« وفي سنة ١٧٠٦ ذهبت الى كسروان عند السيد البطريرك يعقوب [١] وهنأته بالبطريركية واعلمته مقصدي . وهو اني كنت اجتمعت بالاخوة المدبرين واعتمدنا على افتتاح دير في غير بلاد بيت حماده الظالمين . فرضي السيد البطريرك بمقصدي وساعدني عليه . وتم النصيب بافتتاح دير مار يوحنا رشميا . وكان ذلك في شهر شباط . وكان في الدير المذكور راهبان احدهما يقال له الخوري ابرهيم وهو كان الرئيس [٢] .هذا لم يدخل في شركتنا بل انفرد في قرية رشميا يعلم الاولاد . والراهب الآخر يسمى حنا من اولاد القرية المذكورة دخل في شركتنا . فنقلنا من دير مار اليشع الى الدير المذكور جملة رهبان واقمنا عليهم رئيسًا يسمى القس يعقوب من قرية غزير [٣] هذا كان وديعًا عديم الشر وترهب عندنا قبل الرهبان وتبعني في حين الانفصال عن القس جبريل حوى . »

---

(١) لم يعمر البطريرك البلوزاني طويلا في البطريركية فقد توفي في ٣١ دسمبر سنة ١٧٠٥ وخلفه البطريرك يعقوب عواد الحصروني احد تلاميذ رومية وكاتب اسرار البطريرك الدويهي .راجع الدبس ص ٤٢٩ و ٤٣٠ (٢) جاء في تاريخ فرحات «الخوري ابرهيم جحوه الغزيري الذي سلم الرهبان ديره من غير الزام » . وقال عنه الدويهي في نبذة تاريخ المدرسة المارونية في رومية .التي نشرها الاب شيخو ص ١٢٩ في كتابه « الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية » « انه تعلم الفلسفة واللاهوت في مدرسة رومية وخرج منها . وقد اجتهد في عمار دير مار يوحنا رشميا الذي انشأه الشيخ ابو صابر . ثم ترهب فيه . وفي سنة ١٦٨٥ سيم كاهنا وترأس عليه . وفي سنة ١٦٩٦ ارسلناه الى رومية فاعتنى مع القس ميخائيل المطوشي في تأليف أحرف للطبع وطبعا في جبل فيسكون الشيبة والخدمة والمزامير . ورجع للبلاد سنة ١٧٠٠ فأخذه الخوري بطرس التولوي معه الى حلب »

وتجد في تاريخ الرهبنة لبليبل ص ٤٩ صورة حجة تسلم الدير بامضاء الخوري ابراهيم المذكور

(٣) هو القس يعقوب ابن زوين الغزيري . وقد قال فيه فرحات « انه كان رجلا وديعا دينا لا يدبر اخوته الا بمثله الصالح »

وتابع القس عبد الله حكايته قائلا. « وبعد ايام قليلة [١] ارسلته الى غزير قريته لعمل يخص ديرنا فاجتمع به اهله واقاربه والبعض من اهل قريته وطلبوا منه ان يتوسط لهم عندي حتى ابعث لهم راهبا يعلم اولادهم ويعطونا ديرهم المعروف بدير مار الياس [٢] فاستحسن القس المذكور مسألتهم ولم يقدر ان يتغلب على مكامن ابليس بل هوى بجماته نحو اللحم والدم وسرقته محبة الاهل فقدمها على الطاعة وقطع المشيئة وعزم على ان يطالبني براهب ارسله ليعلم الاولاد وان ما طاوعته يتركني ويلحق بالاب جبريل حوى. وهكذا صار لانه لما جاء وطلب مني مقصده ورأى اني لا اهوى ذلك ذهب لوقته لعند السيد البطريرك [٣] واعلمه بنيته ولان البطريرك كان يحب الاب جبريل كثيرا سمح له بالمضي اليه. ففعل وبقي عند القس جبريل الى ايام فتنتهم مع المطران جرجس [٤] من غير ان يتسهل له المضي الى قرية غزير لتعليم الاولاد. ولما تبددوا من قبل الفتنة كما سبق القول ندم القس يعقوب على ما فعل بافتراقه عنا وطلب الرجوع تائبا. فقبلناه. وكان عمله نظير بطرس الرسول بالتمام. لانه في ايام الانفصال عن القس جبريل حوى كان يقول: ان انفصل الكل عن القس عبدالله الرئيس فانا لا انفصل عنه حتى الموت. فكان هو اول من انفصل عني. ولما عاد نذر النذر الرهباني وسار سيرة صالحة جدا. ولما افتتحنا دير مار يوحنا انتخبناه رئيسا عليه »

وجاء في سجل الرهبنة القديم « كان هذا الدير عند استلامه كنيسة صغيرة ومسكن على طقس بيوت الفلاحين. والرهبنة استلمته من يد اصحابه مشايخ قرية رشميا

---

١ — من الانفصال عن حوا

٢ — الذي شيده ال حبيس

٣ الدويهي

٤ يمين اسقف اهدن

واسمهم بيت ابي صابر . وانشأت فيه ارزاقاً و بساتين واقامت فيه مدرسة لتعليم الاولاد مجاناً وصرفت على عماره اول مرة مبلغ ١٣٥٧٦ قرشاً عدا ما صرفته على الكنيسة»

وقد عثرت في خزانة بكركي على صورة الصك [١] الذي سلم بموجبه سنة ١٧٠٦ الحاج صقر ابن سعد هذا الدير للرهبان اللبنانيين ورد فيه ما يأتي :

«لا نعارض الرهبان المذكورين بوجه من الوجوه بل يخربوا و يعمروا و يقبلوا و يطردوا حسب خلاصهم ولا نلزمهم بمعمود ولا بتكليل عريس داخل ديرهم وخارجه » وهذا يدل على ان القس عبدالله اشترط على واقفي الدير ان لا يجبروهم على تعاطي اشغال الرعية وان كان من ورائها بعض الايراد لرهبانه ، وذلك منعا لهم من الاختلاط بالعالم والتدخل في شؤون خدمة الرعايا ، الا اذا حرمت الرعية من يخدمها من الاكليرس العلماني فكان القس عبد الله يأمر رهبانه بالتطوع لخدمتها سداً لحاجتها ومساعدة لها في فقرها . لأن الدير كان يقوم في هذه الاحوال بأود رهبانه .

٣ — دير مار انطونيوس سير

ولم تمض سنة على تسلم هذا الدير حتى أهدي للرهبانية دير آخر لا يبعد عنه كثيراً ، انشط منه هواء، واجمل مركزاً . فهو واقف على صخر ينطح الجو و يشرف على القرية وجوارها [٢] ففرح القس عبدالله بهذه التقدمة فرحاً جزيلاً، لان الحر كان شديد الوطأة في القرية في فصل الصيف والرطوبة فيها مضنكة ابان الشتاء ، فيمسي رهبانه في حاجة الى تبديل الهواء . واليك ما جاء في مذكراته عن هذا الدير:

« وفي سنة ١٧٠٧ تملكنا ديراً على اسم مار انطونيوس يعرف بدير سير كان ابتناه رجل يقال له قس انطونيوس مبارك وكان يسكنه وحده . هذا نزل لعندي من ذات خاطره ، لان ديره المذكور فوق دير مار يوحنا رشميا ، وقال لي انه يريد

---

١ راجع نصه في تاريخ الرهبانية للاب لويس بلبل ج ١ ص ٥٠

٢ يسمون الصخر في لبنان «شير» فربما كانت لفظة سير تحريفا له

ان يدخل في شركتنا وينذر على قانوننا . فوعدته ان اتكلم مع المدبرين وارد عليه الجواب [1] ولما اجتمعت بالمدبرين واعلمتهم برغبته رضوا به لاجل الاخوة الذين في دير مار يوحنا لان الدير المذكور ردي، الهواء فتضعف صحة بعض الرهبان فيه ويوافق العليل ان يرتفع الى مار انطونيوس حيث يجد الراحة . فتم تملكنا للدير المذكور ودخل الاخ انطونيوس معنا ونذر بعد مدة قليلة . ونقلت الى الدير المذكور بعض الرهبان واقمت عليه وكيلاً يكون تحت طاعة رئيس مار يوحنا لقربه اليه . » [2]

ولكن لم يتمتع الرهبان طويلا بهذا الدير بل اصبح لهم علة قلق واضطراب بدلا من الراحة التي أنشدها القس عبدالله . لان الخوري ابرهيم صاحب دير مار يوحنا نـدم سريعا على هبة ديره للرهبان ولما لم يسعه استرجاعه منهم انتهز فرصه اختلافهم مع اهالي المزرعة المجاورة لدير سير واستولى عليه. قال فرحات في تاريخه :

« كان بقرب الدير مزرعة صغـيرة تعرف بمزرعة النعمان يسكنها اناس من اقارب القس انطونيوس باني الدير . فطلب هؤلاء من الرهبان ان يقدسوا لهم كل احد وعيد [3] فلم يطاوعوهم اولا لانه كان للمزرعة المذكورة كاهن موكل بها . ثانياً لم يكن من عادة الرهبان التقديس في القرى الا نادرا لتجنبهم الاختلاط بالعوام . فادّعى آل المزرعـة ان الدير لعائلتهم [4] وتعصبوا مع الخوري ابرهيم ضـد قريبهم القس انطونيوس وتقووا بالحكام . وما وصلت الامور لهذا الحد الا لعدم افراز رئيس الدير المذكور . »

---

١ لاحظ ان القس عبد الله لم يكن يأتي امرا مهما في الرهبانية دون استشارة مدبريها.

٢ راجع في بليبل ص ٤٥ صورة الصك الذي كتبه القس انطونيوس للرهبان وقد جاء في سجل الرهبانية ان الوكيل المذكور « يدعى القس يوحنا باسيل من اهدن وكان ورعا »

٣ لاختلافهم مع كاهن رعيتهم .

٤ لانهم من اقارب القس انطونيوس بانيه

وعلمنا من مذكرات القس عبدالله غاية الخوري ابرهيم من الاستيلاء على الدير:

« وصار بعد اشهر قليلة ان اجتمع الخوري ابرهيم تلميذ رومية ، الذي كان رئيس دير مار يوحنا سابقا ، وتكلم مع البعض من تلاميذ رومية وتشاوروا ما بينهم على ان يتمسكوا بمكان يصلح لسكناهم وان يجمعوا اليهم بقية تلاميذ رومية ويضعوا لهم قوانين وترتيبات تسهل لهم في ما بعد عمل الخير مع القريب ونفع الطائفة [1] . وندم الخوري ابرهيم على تسليمه مار يوحنا لنا ولم يمكنه ان يخرجنا منه لاننا كنا صرفنا عليه جملة دراهم وصار لنا حظ وصداقة عند الطائفة المختصة باصحاب الدير وبالاكثر عند صاحبه الذي كان بدأ ببنيانه وهو شيخ القرية ويسمى ابو صابر . فحينئذ فكر الخوري المذكور في ان يختطف منا دير مار انطونيوس . فطابق على ذلك بعض اهل القرية وتعاونوا بالحكام واخذوا الدير منا ما بين الحيلة والغصب وانواع المخاتلة [2] . فشكوت حالي للسيد البطريرك فلم يستطع ان ينفعني بشيء لانه على ما ظهر لنا كان يخاف من تلاميذ رومية من حسابات كان يحسبها مزمعة ان تظهر [3] . ونحن لم نرَ صوابًا ان نرفع الدعوى لحكام السيف خوفا من فتنة في القرية . لان البعض كانوا معنا والبعض مع الخوري ابرهيم وكانوا يقولون « اعطوه ديرا عوضًا من ديره » وهكذا تركنا الدير المذكور وصاحبه موجود عندنا وسكتنا عنه بالتمام بعد تعب ومخاصمة ايام واشهر [4] » .

---

١ هذه اول فكرة في الشرق لجمعية كهنة حققها بعدئذ المرسلون اللبنانيون الموارنة والبولسيون الروم الكاثوليك .

٢ عثرنا في خزانة بكركي على صورة حجة كتبها القس انطونيوس لاخوته الرهبان « بدلا من الاولى التي فقدت... لان الموضع ما احد له فيه يسوى خمس غروش الا من تعبي وعرق جبيني » وهي مطابقة للحجة الاولى . وربما كان فقد الحجة أو سرقتها من الاسباب التي استند اليها اهل مزرعة النعمان لاستخلاص الدير من الرهبان . ولا يبعد ان يكون فرحات قد اشار الى ذلك في قوله : وما وصلت ألامور لهذا الحد إلا لعدم افراز رئيس الدير » والارجح ان هذا تفسير كلام القس عبدالله « واخذوا الدير منا ما بين الحيلة والغصب والمخاتلة »

٣ يشير هنا الى تنزيل البطريرك يعقوب عواد عن كرسيه كما سنرويه في محله .

٤ راجع بليبل ٥٣ — ٥٧ .

فانظر كيف تجلت في هذه الحادثة حكمة القس عبدالله وسعة صدره ومحبته للقريب اذ فضل خسارة الدير وصحة رهبانه على احداث فتنة في القرية . ولكن العناية الالهية لم تترك هذا التجرد بدون مكافأة . فالخوري ابرهيم مغتصب الدير لم يفلح في مشروعه وسافر بعد اربع سنين قاصداً القس جبريل حوا في رومية ، وكان الرجلان متشابهين في الاطوار وتشييد القصور في الفضاء ، فظل الدير بلارئيس حتى آلت حالته الى الخراب . وبعد موت الخوري ابرهيم كتب البطريرك يوسف ضرغام الخازن في ٢٥ تموز سنة ١٧٣٤ الى القس ميخائيل اسكندر الاهدني ، رئيس الرهبان اللبنانيين العام ، كتابا وجدنا صورته في كراسة بخزانة بكركي تحتوي على جملة حجج وحسابات الرهبانية لغاية القس ارسانيوس شكري رئيسها العام . واليك نصه لانه لم ينشر بعد:

« البركة والنعمة وحلول الروح القدس تكون حالة على نفس وجسد ولدنا العزيز القس ميخايل الرئيس المكرم كرمه الله تعالى وبارك عليه روحا وجسدا امين »

« اولاً مزيدون الاشواق الى رؤياكم في كل خير وعافية وبعده ما خفاكم قضية دير مار انطونيوس صير ان ما فيه احد يعتني في عماره وصار ايل للخراب وهو قريب الى ديركم ومناسب لكم فان كان لكم خاطر ولكم خلاص ان تأخذوه فنحن اقصا مرادنا ذلك واذا كان معكم احسن من غيركم بحيث انكم تعتنوا في عماره وانتظام رزقه لئلا يخرب وهذا خاطرنا ورضانا قصدنا علمكم بذلك بعد تجديد البركة عليكم ثانياً وثالثاً والدعاء ».

وكتب لهم ايضا حجة وجدنا صورتها في خزانة بكركي في الكراسة نفسها[1]. وهكذا سهلت العناية الالهية للرهبانية استرجاع حقوقها بدون عناء بل بالحاح الرؤساء وجيرة الدير فكوفئت حكمة رئيسها وتجرده خير المكافأة. وقد جاء في رسالة بعث بها البودي الى الكردينال رسيولي في ١ ت ١ سنة ١٧٣٩ « ان الرهبنة حولت هذا الدير الى مدرسة تسع اثني عشر تلميذا من الرهبان. فيرسل النابغون منهم لاتمام دروسهم في رومية والاستعداد

١ راجعها في بليبل ص ٢١٨

فيها لاعمال الرسالة لان غاية مقاصدنا تكميل رغائب الكرسي الرسولي [١].

٤ — دير اللويزه. مركزه

من انفس الهدايا التي قدمها السيد المسيح لعروسه الرهبانية الصبية دير سيدة اللويزه ، لحسن موقعه وطيب هوائه ووجوده على بضع دقائق من شاطىء كسروان وعلى مسافة غير بعيدة من بيروت ميناء لبنان وعاصمته . ومما زاده اهمية في ذلك العهد كونه في ولاية آل الخازن المسيحيين . فجعلته الرهبنة منذ سنة ١٧٢٣ [٢] مركزاً لرئاستها العامة ووضعته سنة ١٧٣٦ تحت تصرف آباء المجمع اللبناني وأودعته في سنة ١٧٤٩ عظام مؤسسها المحبوب المطران عبد الله قرألي . وهو يشرف على سواحل كسروان والقاطع غرباً وعلى خلجان جبيل والبترون شمالا وعلى اجمل قمم لبنان واظرف قراه شرقاً وجنوباً . واذا صعدت الى سطحه وقبلت انفتح تحت قدميك وادٍ صغير لطيف يحمل حرشا ظريفاً من صنوبر زرعه الاخ جرجس الحلبي باني القسم الشمالي من اقبية الدير الحالي . ويليه وادي نهر الكلب العظيم الذي يعرف من قياس اعلاه بالشاطىء انه يخترق بطن الارض حتى البحر. ويصعد من بطن الوادي الايمن تل مستدير مستقل عن غيره يحمل دير مار عبدا المشمر . وهو محلق فوق ظلمة الوادي كالنسر في الجو . ووراءه جبل القاطع تتخلل شجرات العفص والسنديان صخوره وعلى صدره دير طاميش مركز رئاسة الرهبانية البلدية السابق . وحوله على ابعاد مختلفة قرى القاطع صاعدة حتى ضهور الشوير . وهي الحلقة الجنوبية من سلسلة جبال صنين المعممة بالثلوج ، التي تصل القاطع بكسروان . وينحدر منها صفان من اودية عظيمة ذات زوايا حادة كأن الباري قطعها بعد ان كونها كما تقطع العجينة . وهي عابسة عميقة وعرة يعجز نور الشمس عن اختراقها . وعلى ظهورها المتجهة من الشرق الى الغرب مصايف كسروان والقاطع الانيقة بارزة بسطوحها القرميدية الحمراء بين الاحراش الكثيفة القاتمة

١ بليبل ٢٣٨ ٢ بليبل ١٠٨

والصخور الرمادية . واذا عدت بنظرك الى الساحل وجدت خليج جونيه الظريف محتمياً في نصف دائرة جبل سيدة حريصا الساقط عمودياً في البحر وقد مدّ على طوله بساط اخضر عظيم رسمت عليه مربعات مختلفة الالوان كالشطرنج وجلست فوقه القرى الجميلة كأنها أسر اجتمعت عليه للمحادثة والسمر وهي في ابهى ملابسها . وقد جاملتها الوان الافق والبحار وظلال الجبال والضباب بالطف ما عندها ووافاها النسيم من صدر البحر بأرق انفاسه .

واذا وجهت نظرك الى فتحة الوادي وجدت جسراً حديدياً يصل طرفيه ، وقد ظهرت تقاطيع الجسر السوداء على صفحة البحر اللازوردية كتخاريم دقيقة على قطعة قماش سندسية . ولما كان هذا المضيق مفتاح لبنان وقف على جانبيه جبلان جباران يحرسان مدخله . وقد نقش الغزاة الذين تمكنوا من اجتيازه كالاشوريين والمصريين واليونانيين والرومانيين والانكليز والفرنسويين على صخوره ذكرى فتوحاتهم مستمدين من هيبة هذا المكان التاريخي عظمة خالدة لاسمائهم .

وعلى كتف الجبل المشرف على مدخل الوادي قمة مستديرة كالبرج قام على رأسها دير مار يوسف البرج وحوله الصخور الرمادية كاصواف الغنم وهو في وسطها كخيمة الراعي . ولكنك اذا سرحت النظر في الافق الواسع المنفسح امامك خيل اليك انه راية الهدى للمراكب التائهة في عرض البحار .

٥ — القس اغناطيوس سلهب الحاقلاني

واليك ما وجدناه في مذكرات القس عبدالله عن قصة تسلم هذا الدير :

« وفي اواخر هذه السنة راسلنا القس اغناطيوس صاحب دير اللويزه ليسلمنا ديره . وسبب ذلك كان صغر نفسه من رهبانه . وكان عنده اربعة رهبان من الاسكيمين وغيرهم من المبتدئين . فتسلمنا ديره بعد مشورة المدبرين . وكتب لنا حجة نتصرف فيه التصرف الكامل وانه ملك الرهبنة ملكا ثابتاً . فبعض من رهبانه دخلوا في شركتنا والبعض شردوا . وكان الدير عقار وافر لكنه كان فقيراً بالبنيان

والامتعة اللازمة وكان عليه جملة ديون. فلزم اننا ابتنينا اللازم من البنيان وكفيناه امتعة للكنيسة وغيرها ، فقد كان جديدا أنشأه القس اغناطيوس من ماله وحده لانه كان يحب العبادة والخير وصادقاً في كلامه جداً . واقمنا على الدير رئيساً يقال له القس يعقوب من حلب صار ابوه مارونياً لان اصله كان ارمنياً . » ويقول فرحات عن الرئيس المذكور « انه كان رجلاً عاقلاً مفرزاً معلماً في اللغة السريانية حاذقاً في صناعة كتابة السرياني والعربي » [1]

وواقف الدير هو الحاج سلهب بن فرج مجاهد بن ابرهيم من اسرة الحاقلاني مشايخ زوق مصبح وزوق مكايل [2] وقد حفظ التقليد في طيات ذاكرته ما كان لهذة الاسرة من وجاهة وثروة. فقد كانت تملك في زوق مصبح اربعين رأس خيل مسروجة ومثلها في زوق مكايل . وفي سنة ١٧٣٦ لما التأم المجمع اللبناني في دير اللويزة ضافت اسرة الحاقلاني المذكورة عدداً كبيراً من ابائه لضيق الدير عليهم في ذلك العهد [3] ويقول الحاج سلهب عن نفسه على هامش المتعيدات المذكورة : « انه نقل من زوق مصبح في ١٨ نيسان سنة ١٧٠٤ وسكن دير اللويزه مع القس جرجس ابن ابي عبد الله فرج من حصارات . وارتسم كاهناً في ١٨ ايار من السنة نفسها باسم القس اغناطيوس من يد البطريرك جبرائيل البلوزاوي في دير مار شليطا . وفي ٢٦ حزيران هذه السنة لحقه ابن عمه فاضل الذي ميم بدوره كاهناً باسم القس فرنسيس ولبس الاسكيم الرهباني» ويقول فرحات عن القس اغناطيوس: « انه كان رجلاً ورعا عابدا جدا ومن اكابر زرق مصبح ».

---

١ وهو من اسرة اروتين التي نبغ منها المطران بولس اروتين اسقف حلب الماروني (١٧٨٨ — ١٨٥١) نشرنا له مذكرات ثمينة في كتابنا « اهم حوادث حلب » فراجعها. وقد صاهرت اسرته اسرة قرألي مرارا . راجع عن القس يعقوب برنامج خطار ص ٢٠٥ وبليبل ص ٥٣

٢ راجع الحواشي التي علقها القس اغناطيوس المذكور بيده على المتعيدات الثلاثة المنسوخة له سنة ١٦٩٧ وسنة ١٦٩٩ والموقوفة منه على دير اللويزه حيث هي محفوظة الى الان . راجع ايضا عن اسرة الحاقلاني المشرق ٢٨ (١٩٣٠) ص ١٨٧

٣ ننقل هذه المعلومات عن حضرة الشيخ الجليل القس جبرائيل نجيم الراهب الحلبي الذي قابلناه في دير اللويزه في صيف سنة ١٩٢٢ واتحفنا عن هذا الديروما يتعلق به بفوائد كثيرة

٦ — غاية الوقفية

وكان القس اغناطيوس شديد الغيرة على نفع مواطنيه ولاسيما تثقيف صغارهم فوقف كل املاكه على الدير على شريطة ان يقوم رهبانه بتعليم اولاد قريته مجانا. وضمانا لثبات هذا العمل كتب بخطه حجة بهذه الوقفية ومهرها بختمه وامضائه . وهي مؤرخة في سنة ١٧٠٥ ومحفوظة في دير اللويزه وبين اوراق خزانة بكركي الخطية ومسجلة في سجل الرهبانية . وقد جاء فيها :

« وجه تحريره هو انا القس اغناطيوس سلهب الحاقلاني ندرت سيدة لويزه الذي انشأته مدرسة لتعليم الاولاد واعطيته لاخوتي الرهبان الحلبيين اللبنانيين تحت هذا الشرط انه يكون مدرسة على موجب الشرطية المكتوبة بيني وبينهم من الرئيس العام القس عبد الله الحابي ولا يصير في ذلك نقص واهمال . . . الخ »

وقد اقام في الحجة نفسها مطران الابرشية مشرفاً على تنفيذ الشرط . ثم استخرج نسخة منها مؤرخة في اواخر اذار (مارس) سنة ١٧١٠ اودعها أخاه باز وهي بخط يده ايضا ومحفوظة بين اوراق الدير ومنها نسخة في خزانة بكركي . وقد قال في آخرها مخاطبا اخاه المذكور :

« صح انا اوصيك ياأخي باز بامر الذمة ان تحفظ هذه الورقة معك ووقت وفاتك وكل ولدك ام اخوك فيها . وافهم وصيتي جيدا. ان مهما صار من الان وصاعدا او قبل الان الذي عتيق وجديد ما بقي لي على رزق الدير منه شيء وجميعه صار على الرهبنة [1] كما هو مبين في حجة ابينا الريس العام القس عبد الله الموجودة معك. وان جاء باصه على الدير [2] وما هي بسبب الريس والرهبان بل على الدير مهما كانت

---

١ يشير الى الديون التي حملتها الرهبنة عنه كما ذكر القس عبد الله

٢ غرامة غير عادية كان حكام البلاد يفرضونها

تسلم لهم اياها بالفائدة . وكل سنة خذ منهم من غلة التوت شوّيه بينما تصل دراهمك بتمامها . لان رزق الدير صار سليم من كل دين . افهم كلامي مليح ويسوع يكون معك يا اخي ويدبرك . وشلت من ذمتي وحطيت في ذمتك والعذرا تحرسك ولا تضيع اجرك . . . الخ »

واليك بيان ما وقفه وغايته نقلا عن حجة اخرى وجدناها بين اوراق خزانة بكركي وافق عليها المطران جرجس بن يمين اسقف اهدن الذي كان على ما يظهر موكلا على تنفيذ شروط الواقف . وقد كتبها بخطه في اذار سنة ١٧٠٨ . وهي جديرة بان تنشر لروح الغيرة والسذاجة المسيحية الذي يتحلى في هذا المترهب الشريف

« وجه تحريره وموجب تسطيره هو اني انا كاتبه قس اغناطيوس سلهب عمرت دير سيدة لويزه من مالي الذي اعطاني اياه الله تعالى . ووقفت له مالي ورزقي جميعه . وهو سبعة عشر وقية بذر [١] . ووقفت له بدار عشرين كيل ارض سليخ [٢] وستة وثلاثين عرق زيتون وكروم عنب وتين وجمل ونصف جمل [٣] وخمسين راس معزي ومعصرة للدبس وثلث خلقين [٤] ونحاس وأثاث وحوايج غير موجب لعددهم . وقبلما خلصت من عماره نذرت على نفسي ان هل دير يكون مدرسة لعلم الاولاد من غني وفقير للحسنه . وذلك بشور وتدبير سيدنا المغفور له البطريرك اسطفان الهدناني وشور سيدنا المطران جرجس الهدناني الكاروز المكرم الواضع ختمه اعلاه [٥] ولما تخلصت من عماره جبت له القسيس بطرس من دير طاميش ولمّ

---

١ اي اراضي مزروعة توتا يمكنها ان تقوم باطعام دود الحرير الناتج من تفقيس سبع عشرة اوقية من بذره

٢ اي مايكفي لزرع عشرين كيلا قمحا

٣ اي ما يخصه بالنصف من جمل

٤ وعاء كبير لعصير العنب

٥ مؤسس مدرسة زغرتا كما ذكرنا

الاولاد وصار يعلمهم . وبعده سكنت انا الدير المذكور والمدرسة منقامة لولاد زوق مصبح وغيرهم وأينا من [1] قصد العلم لا يمتنع . وبعد كام سنة جينا ابونا الريس القس عبد الله الحلبي حتى نتشارك نحن واياه وندخل في رهبنتهم وتحت قوانينهم واقيناه راغب علم الاولاد . وكان بطرس ابن الخوري انطانيوس يعلمهم . و بقينا نحتاجه لمناولة الغداء الى الضيف . فقال ابونا القس عبد الله : هل اولاد ما يسوى علمهم هيك [2] . وانا مرادي جيب [3] راهب يتقيد بالخرج مطرح بطرس حتى يضل بطرس يعلم الاولاد لا يفارقهم . وسلمناه [4] مريسة [5] الدير ونذرنا له الطاعة وكتبنا شرطية ان اذا ارادوا رهبان الدير يمتنعوا من علم الاولاد بخاطرهم ورضاهم يعطوا الواحد وقيتين بذر يأكل غلتهم ويصير يعلم . . . الخ »

الى ان يقول : « لاز الرجل الذي يبطل ابنه عن شغله ام يستكري واحد مطرحه حتى يتعلم وما احد بيتقيد فيه بتصير اثم وخطيه [6] لان ابوه صار مابيقدر يحاكي الريس كونه ما هو آخد منه كري [7] وانه علم حسنه . . . وان كثروا الاولاد وما عاد وسعهم البيت الريس يكبر لهم اياه ويفرشه فرش من كيس الدير . وهولاي بدندانة يسوع [8] وكلن مطلوب من وكالته شيء ويستحي ام يساهل مع الرهبان يبقا يعطي جواب لله [9] . . . ومعلمهم لا يعمل الا الشغل المرسوم فيه . . . الخ »

فما اجمل عمل هذا الوجيه الذي ترك بيته وعزه وجرد نفسه من ماله رغبة في خدمة الله وتعليم اولاد قريته الذين يسميهم « دندانة المسيح » اي الشجيرات الرخصة التي زرعها السيد المسيح في حقله والتي يجب العناية بها عناية الاب باولاده

---

١ وأي من (٢) هكذا (٣) اجيب اي اجلب (٤) الضمير راجع الى القس عبد الله (٥) رئاسة

٦ يقصد من ذلك : لا يجوز اهمال تعليم ولد عطله والده عن شغل الحقل وربما استأجر من يقوم مقامه رغبة في ارساله الى المدرسة (٧) اي ان الرجل المذكور يخجل ان يطالب الرئيس بتعليم ولده لانه لايدفع عنه اجرة (٨) هؤلاء الاولاد مشتلة يسوع

٩ يعني هنا : ان المشرف على الوقفية يجب عليه عدم التساهل مع الرهبان في امر التعليم

وتعهدها بما يلزم لنموها الادبي والروحي . ولما رأى في الرهبنة اللبنانية وفي غيرة رئيسها القس عبد الله ضمانًا لمستقبل مشروعه استدعاه وسلمه ديره واوقافه واولاده المحبوبين وكدن نفسه في نير الرهبانية واصبح واحدا من الرهبان ليس له شيء خاص في الدير المشيد من ماله . وقد عاش معهم الى سنة ١٧١٤ التي توفاه الله فيها في دير قزحيا بعيدا عن ديره وآله واولاده الاعزاء . وهذه امثولة نادرة في التفاني لخدمة القريب وثمرة صالحة اقتطفها مؤسس الرهبنة من مشروع انهاض الحياة الادبية والعلمية والروحية في لبنان بفتح المدارس المجانية للشعب بجانب كل دير .

٧ — الدير الحالي

قرأنا في سجل الرهبنة القديم [1]

« كان افتتاح دير سيدة لويزه سنة ١٧٠٧ . وهذا الموضع ما كان فيه سوى كنيسة غير كاملة . انما الذي عمره من اعيان زوق مصبح اوقف لها رزق ومات راهب عندنا . وباقي العمار عمرته الرهبنة واشترت له ارزاقا ونصف طاحون وكسته من الاثاث . وفتحوا فيه مدرسة لتعليم الاولاد مجانًا يوجد فيها لا اقل من الثمانين ولد وصاعدا [2] . لان القرية القريبة منه كبيرة . وهو قائم للان . وقد صرفت عليه الرهبنة ١٦٩٦٥ قرشًا وذلك مع مشترا طاحون ورزق . وكان عليه دين سماية قرش . وما كان فيه غير كنيسة بلا تلبيس خاوية من كل شيء » وقد دخل هذا الدير بعد قسمة الرهبنة سنة ١٧٦٩ في حصة الرهبانية الحلبية التي استمرت الى ايامنا هذه على اتخاذه مركزا لرئيسها العام . واخبرني الاب بولس نجيم ان الدير كان مؤلفا من غرفة واحدة ملاصقة للكنيسة جنوبًا ، وان الاخ جرجس الحايي بنى اقبية جناحه الشمالي حتى البير . وفي سنة ١٨٣٥ تقريبًا بنيت بقية الاقبية الحالية بهمة المدبر جرجس الشبابي من اسرة الشنيعي الغسطاوية . وهو الذي جدد دير مار الياس شويا وتولى الرئاسة العامة من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٧١ . اما الطبقة العليا فقد شيدها سيادة

١ صفحة ٨ و ١١ (٢) ما زالت المدرسة قائمة وقد بنى لها الرهبان محلا قريبا من القرية

المطران يوسف الخازن في عهد رئاسته العامة على الرهبنة [1] واصبح الدير الان يحوي نحو اربعين غرفة مقسومة الى ثلاثة اجنحة والكنيسة واقعة في الجهة الشرقية منه تؤلف جناحه الرابع. وتظهر على وجهها حجارة صفراء من صنف الحجارة التي جلبها الامير فخر الدين من عكار لسرايه في بيت الدين. وقد اخبرني الاب نجيم بالتقليد القائل ان الامير المذكور صف الرجال من عكار حتى سرايه لنقل هذه الحجارة وكان الصف يمر في زوق مصبح فترك فيها قسما منها لكنيستها. وكان في صحن الدير بئر كبيرة طمرت من مدة قريبة. وفي الدير صور زيتية مجاوبة من رومية ذات قيمة فنية لا تقدر بمال منها صورة نصفية للسيد المسيح من أبدع ما رأيت تتجلى في محياه سماء الجمال والدعة والذكاء. فضلا عن صور كثيرة لمشاهير الرهبنة كعبد الله قرالي وفرحات والبودي وكثيرين من رؤسائها

وفيه ايضا آثار ثمينة لمؤسس الرهبانية المطران عبد الله قرالي منها مدفن رخامي وراء هيكل الكنيسة الاكبر اودع عظامه. وصندوق من زجاج بقرب الغرفة التي اجتمع فيها آباء المجمع اللبناني تجد فيها طابيته وبجانبها نسخة القانون الاصلية الذي وضعه رحمه الله، وهو بالكرشوني وممهور بامضاء وختم البطريرك سطفان الدويهي. وقد علقت في قاعة الدير صورة له نصفية كبيرة صنعت بالزيت تمثله واقفاً متشحاً بالغفارة وعلى رأسه التاج وبشماله العكاز الاسقفي وهو يبارك بيمينه مبتسما للناظر. وهذه الابتسامة لاتخفف من هيبته وشعاع القداسة والحكمة المنبعث منه. وقد اخذ عن هذه الصورة المرحوم خطار غانم الرسم الذي نشره في برنامجه [2] مع ملخص ترجمته. وقيل لي ان عكازه وحذاءه وقطعة من حزامه الاسقفي كانت باقية في الدير قبل تجديد بنائه الاخير.

وكان في الدير مكتبة ثمينة جداً جمعها المطران قرالي وفرحات وغيرهما من الاقدمين،

---

١ ١٩٠٤ — ١٩١٠ (٢) صفحة ١٢١

وقد جاء في سجل الرهبنة القديم [١] : « ان الرهبنة اتفقت على اجرة نسخ الكتب من عربية وسريانية وتركية ولاتينية وطليانية وفرنسوية مبلغ ٢٢٠٠ قرش تقريبا » وذكر الخوري جرجس منش [٢] ان المطران جرمانوس فرحات رحل وهو راهب الى اسبانيه ابتغاء ان يتفقد ما فيها من آثار العرب . فرأى منها ما رأى وحصل على بعض الكتب المخطوطة » . وجاء في تاريخ الاب بليبل [٣] « ان تلامذة مدرسة رومية الرهبانية كالاب يواكيم بليط الحلبي وجبرائيل صقر وغيرهم ساحوا في بلاد اوربا وافريقيا والاندلس ومصر وفي ديارنا الشرقية وجمعوا لهذه المكتبة كتبا خطية ثمينة نادرة الوجود . وقد عهد مؤسسو الرهبنة ورؤساؤها الى رهبان من ذوي الخطوط الجميلة بنسخ المخطوطات من خزائن الاديار والبيوت الخاصة واضافتها الى هذه المكتبة »

وقد نقلت هذه المكتبة في عهد تجديد الدير الى دير فيطرون بعد ان لعبت بها ايدي الجهل . واخبرني الاب نجيم ان الاوراق المخطوطة كانت مبعثرة حول الدير على مسافة الف متر وان الارياح كانت تحمل شيئا كثيرا منها الى الوادي والبحر ! . . [٤]

وقد اقام رئيس الرهبانية الحالي الاباتي جبرائيل الشمالي مذبحاً جميلا من الرخام على اسم القديسة ترازيا الطفل يسوع في فناء مدخل الكنيسة ونصب للدير آلافاً من شجيرات الزيتون والتوت مما حسن ارزاقه ودخلها . وهو ساع بجلب ماء « عين ابو غصن » المشهورة بعذوبتها وخفتها من اسفل الوادي اليه وانارته بالكهرباء .

---

١ ص ١٠ (٢) المشرق ٧ : ١٠٦ (٣) ج ١ ص ٤٠٥

٤ وقد زرنا دير فيطرون المذكور في سنة ١٩٢٥ واطلعنا على ما فيه من الكتب واحتفظنا بلائحتها ونسخنا بعض الحواشي التي وجدناها على هوامشها فلم نجد بينها ما يستحق الذكر سوى بضع كتب بخط فرحات والتولوي اعيدت حديثا اليها .

راجع ما نشره عن بقايا هذه المكتبة حضرة القس انطونيوس شبلي في المشرق ٢٦ : ٤٥٦ و ٦٤٤ و ٩١٧ و ٢٧ : ١٩٢ تتحقق بمرارة ان ثمن اثارها قد فقد

الفصل الثامن

دير قزحيا

١ — منظره الخارجي

اذا كان دير اللويزه من انفس الهدايا التي قدمها السيد المسيح لعروسه الرهبانية اللبنانية فدير القديس انطونيوس ابي الرهبان ، المشيد في المكان المدعو قزحيا ، لا شك احبها اليها واجملها . ذاك قائم على قمة مكشوفة لانظار العالم والعالم مكشوف له ، وهذا مختبئ كالناسك في بطن واد عميق ضيق وعر ، محجوب باشجار كثيفة قائمة تغار عليه من العيون ، ومحصن باسوار صخور شاهقة متوحشة لم تمسها يد بشرية منذ خلق العالم والانسان . لكن الطبيعة التي احبها واحبته قد عوضته من تلك الوحشة فتجلت له بكل ما حباها الله من جمال وجلال ودلال : فيأته بوارف ظلالها ، نفحته ببليل نسيماتها ، اطربته بهدير مياهها وحفيف اوراقها وتغريد اطيارها ، أروته بزلال ينابيعها ، متعته بلذيذ خضرتها وثمارها ، اسكرته بشذاء زهورها وبخور صنوبرها وعطور دالبها ، وشغفته بقامات حورها الرشيقة المتمايلة تيهاً وغنجاً . فطابت له الاقامة وراقته العزلة واستهوته المغازلة ، فاستمر في هذه البقعة وتوسع واستقل واستكفى ، واصبح بابنيته العظيمة وملحقاتها بلدا قائمة بنفسها في وسط جنينة غنية غناء .

ان قصدت زيارته فعليك اما ان تهبط عليه من عينطورين بدرجات نقرت في جدار الوادي المنتصب فوقه ، او ان تدور من جهة الجنوب مجتازا قرية بان المختبئة بين العرائش ، حتى اذا بلغت اسفلها وجدت نفسك امام نبع صغير بارد سارح في روضة هادئة منعزلة ، تبش لك وتدعوك الى اراحة جسمك وفكرك بين ظلالها ، وطرح همومك وهواجسك على عشبها النضر . ثم تستأنف السير فتظهر لك جهة الغرب محبسة الدير محتمية بصخر ينطح الافق وقد كست الشجيرات عنقه

والمحسرت عن رأسه فبرز في الجو عاريًا حاملا صليبا كبيرا من جذعي صنوبر، هو راية هذا الوادي المقدس. وعلى قدمي الصخر تنبسط الكروم التي يشتغل فيها الحبيس دفعا للبطالة، حتى اذا نضج عنبها وتينها تناول من كل صنف ثلاث حبات فقط، ليحلو له طعمها فيمنع نفسه عنها ويضاعف اجره. وهو يلبس المسح ولا يأكل غير البقول ولا يقابل النساء ويقضي اكثر ليله في الصلاة راكعا. وله قانون خاص يسير عليه وضعه له مؤسس الرهبانية المطران عبد الله قرالي سنقول فيه كلمة في حينها.

واذا حولت نظرك الى الشمال انفتح تحت قدميك واد هائل في العمق لا ترى له قرارا بل يجابهك جداره الايمن. وهو طود منتصب فوقه افقيا، يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثمائة متر، وقد هرم وانتخر ولفحت شمس القرون جلدته، وعملت فيه يد الدهور الاخاديد كأسارير الشيخوخة، وغارت فيه المغاور والكهوف كانها منه العيون والآذان، ونبتت فيه الاشواك متدلية في الفضاء كانها الحواجب والشوارب، وغطت الشجيرات هامته كالشعر الكثيف.

واذا تابعت الهبوط ظهرت لك واجهة كنيسة الدير البنفسجية في اعلاها عقود أنيقة تحالها باعمدتها الرخامية الاسنان بين فكي ذاك الجبار. وهي تلمع ناصعة باسمة دون ان تمتد ابتسامتها اليه بل يظل مكشرا عنها، فتعرف انها اصطناعية، وان قلب صاحبها من صخر. وعددها اثنا عشر كرسل المسيح وعلى رأسها قبة للاجراس مثلثة الاقواس رمزا الى الثالوث الاقدس في وحدة الالوهية.

اما الدير فمؤلف من ابنية كثيرة متراصة متساندة في لحف الجبل، تطل بطبقاتها واروقتها ونوافذها وكواتها على الوادي المتموج بالخضرة العاج بالمياه كانها مدرعة عظيمة في وسط البحر.

واذا بلغت الى قعر الوادي قابلك نهير جذل طائش يقفز امامك من صخر الى الى آخر مداعبا غصون الاشجار وشعور الاشواك والعرائش المنحنية عليه ولآلي الحصى اللامعة في بطنه، مالئا البقعة بلهوه وصياحه. وقد ظلت اشجار الحور

والدلب مجراه ومزجت عطورها برذاذه ، وحجبت بقاماتها الباسقة بينه وبين الدير كمن يستر مجونه عن عيون الرهبان اصحابه . وقبل ان تعبر الجسر الذي يضم ضفتي النهر ، يدلونك على نبع آخر صغير منفرد يزحف الهوينا بين ملتف الحشائش ، لا تكاد تسمع لسيره صوتا. فتعجب من رزانة هذا الوديعة، وطياشة ذاك وغطرسته. وان سألت عن اسمه اجابوك هذا « نبع المطران » كان مؤسس الرهبانية يجلس اليه عصر كل يوم مستأنسا بخريره مرتاحا الى هدوئه ، ومن هذه الخلوة كان يطلق لافكاره وعواطفه العنان ، فتصعد على اجنحة المخيلة والحنان مجتازة الوهاد والهضاب ، حائمة فوق الديورة التي انشأها في طول البلاد وعرضها . فيتفقد اولاده فيها بالصلاة ضارعا الى الله ان يحرسهم من اعداء السوء وينصرهم على تجارب ابليس ويمهد امامهم صعوبات الحياة المادية والروحية .

وبعد ان تعبر النهر تجد طاحون الدير قد دار دولابه حثيثا لاطعام سكانه وضيوفه الكثيرين ، تظلله شجرة عجوز من السنديان ربما عرفت وجه مؤسس الرهبانية وشاهدت غدواته وروحاته . وقد جار عليها الدهر فاسود قشرها وتكلكل كظهر التمساح ، وتقدد جسمها وكشفت السيول عن جذورها ، فتشبثت بالصخر صديقها العتيق مستعينة به على صروف الايام وغدرها ، اذ تخلت عنها الاتربة تابعة السيول الجارفة والاهواء العاصفة شأن الصديق المتقلب .

ثم تصعد الى الدير بين صفين من الاشواك الهائشة والاغصان المترنحة وعبير الازهار الحقلية وابتسامة الخضرة وتقطر المياه المتساقطة من كل جانب فترتاح نفسك الى هذا الاستقبال. الى ان تبلغ فسحة بين الجبل والوادي خيمت عليها شجرة عظيمة من الجوز ، اذا نظرت من خلال واراقها الى الغرب شاهدت صخرة المحبسة في اعلى كتف الوادي الأيسر وقد انشطرت وبانت شرايينها الحمراء ورفعت رايـة

الصليب عاليا في الافق وقد بسط ذراعيه بين السماء والوادي المقدس مستنزلا على سكانه البركة والسلام .

وعلى يمينك كهفان مسدودان ببابين من نحاس عليهما شارة الصليب يستعملان لدفن الرهبان. يبسطونهم بعباءاتهم على بلاط الصخر فلا تبلى اجسامهم لبرودته الا بعد مرور سنين طويلة . وفوق المدفن محبسة مار بيشاي يصعد اليها بسلم خشبي . وهي مغارة سدها الحلبيون الاولون بجدار من قوالب اللبن الاحمر ولها باب ونوافذ ما زالت قائمة. وقد اشرف عليها الجبل رادا عنها الامطار والصخور المتساقطة فثبتت قرنين مع انها من تراب .

وتتابع السير غربا فتصل الى المضيف المدعو «المحبسة» نسبة الى محبسة مار ميخايل التي ترتفع عنه قليلا. وهو مؤلف من بنائين احدهما قديم داخله اربع مغاور افرزت اولاها لحبس النساء الممسوسات ، والبقية للمعبد والمائدة والكلار والمطبخ . وهناك حنفية للماء لا تذوق اخف منه في حياتك . وامام المغاور رواق طويل واسع يشرف على الوادي ومناظره الفتانة . اما البناء الاخر فاحدث منه معد لزوار الدرجة الاولى ينتهي الى الغرب بشرفة مطلة على حرش ظريف من الصنوبر يعطر الدار وينقي ما يلجها من الهواء . وقد تدانى جدارا الوادي وانتصبا وتركا فرجة ضيقة، تظنهما أطار الصورة زيتية ظهرت في الصف الاول منها قريتا سرعل وطرزا ووراءهما رؤوس جبال البترون مصطفة على ارتفاع واحد بين الوادي والبحر البعيد كقطيع من غنم يرعى في السهل . فتعرف، حينئذ ، وقد توهمت انك في قعر الارض ، انك لا تزال على ارتفاع نحو الف متر عن البحر

٢ — منظره الداخلي

بعد ان تاخذ نصيبك من الراحة في بهو النزل وترتشف المرطبات والقهوة يتقدمك رئيس الضيوف الى زيارة الدير . فتعود ادراجك الى الشرق وتصعد

بضع درجات تؤدي بك الى مغارة القديس انطونيوس العجائبية . وهي رحبة رطبة مظلمة يلج اليها نور ضئيل من كوة فوق الباب . ولكن بصرك يألف بعد قليل منظر الاشياء فاذا بك فوق الحفرة التي يدلون فيها المجنون . يسندون ظهره الى الصخر و يكبلون يديه ورجليه باطواق من حديد معلقة بجنزير ثقيل ملفوف حول جزع ضخم من الشجر حشر بين صخرين . يمكث العليل على هذه الحال ثلاثة ايام يقللون فيها طعامه و يكثرون الصلاة عليه و يزوره مرارا راهب فاضل يستنجد بالقديس انطونيوس على الروح النجس الساكن فيه منتهرا اياه ليخرج منه . حتى اذا كان اليوم الثالث وجدوه هادئا معافى . فيتسلمه ذووه و يقيمون له الافراح و يفون عنه النذر حسب طاقتهم .

وفي صدر المغارة صورة قديمة للقديس يوقدون امامها الشموع و يحرقون البخور . تجد هناك الزوار من كل الملل والمذاهب والاقطار : نصارى وسنيين وشيعيين ونصيريه و بدو قصدوا اليه من اطراف لبنان وسوريا والصحراء وجبال العلويين طلبا لنعمة أو شكرا عليها . وكثيرا ما يطلب اليه العواقر ان يرزقهم الاولاد فيستجيبهم . حتى اذا ترعرع الطفل حملوه الى الدير ودفعوه الى الرهبان قائلين « هذا ابن القديس » فيطوفون به في الكنيسة بالتراتيل والشموع . ثم يجزون شعره فيقدم والداه ثقله ذهبا او فضة حسب منزلتهما . واذا فتك المرض بالماشية هرع الرعاة الى الدير وحملوا كتاب القديس وعلقوه في رقبة رأس القطيع فيزول الوباء .

واذا كنت في شك مما اقوله عليك ان تزور الدير وتنظر بأم عينك عجائب الله في قديسيه . وهناك سجل تدون فيه اخبار هذه المعجزات وتذيل بتواقيع الشهود او اختامهم طالعه تتحقق ما لهذا القديس من المنزلة في السماء والشهرة والمبرات على الارض[1]

ولدى خروجك من المغارة تشعر بالفرق بين رطوبتها وحرارة الجو . فتجتاز

---

١ راجع بعض هذه المعجزات في تاريخ الرهبانية للقس لويس بليبل ج ١ ص ٦٢ وما يليها

بوابة الدير الكبيرة الى فناء واسع سماوي مبلط بالرخام في وسطه بركة تتفجر منها المياه . وعلى شمالك مدخل الكنيسة . وهي مغارة عظيمة سدت بجدار من الحجارة المصقولة رصت باحكام ولحمت بالرصاص ، منها السماقية اللون جلبت من مقالع تحت اهدن ، ومنها السوداء اللامعة . وفي الواجهة الكتابات والنقوش والزخارف البديعة تتوجها عقود انيقة وقبة لطيفة ويكتنفها الصخر الغشيم فيزيدها ظرفا و بياضا وتزيده صلفا واغبرارا . وقد ضمها وانحنى عليها كالاب الحنون ليقيها من العواصف والصخور المتدحرجة . وهي استأنست به واطمأنت في حجره وكاد صليبها يلمس ذقنه. ويتدلى من القبة جنزير من حجر مفرغ هو آية في الابداع، وثلاثة اجراس يلمع نحاسها في قاتم الصخر اذا اهتزت ردد الوادي ، صخوره ومغاوره وانهاره واشجاره صدى رناتها الشجية . فتتخشع القلوب متشوقة للعبادة . فترى الرهبان يهرولون على صوتها نحو الكنيسة وقد برزت اشباحهم السوداء من الابواب والدهاليز والاروقة. وما هي بضع دقائق حتى تملأ اصواتهم الملائكية فراغ الكنيسة وتتدفق الى الخارج تدفق المياه العظيمة وتصعد باجنحتها الروحية من ذاك العمق الى اعلى طبقات السماء مسترضية الباري على خلائقه . فتعرف حينئذ فضل من جمعهم في هذه الديورة ونظمهم في سيرة العبادة والطهارة ، حياة الانسان ملاكا على الارض .

والكنيسة مستطيلة مرتفعة نقرها الرهبان في الصخر الاصم عقدا واحدا وعلقوا فيها الثريات النفيسة والمصابيح الفضية البديعة الصنع ، واغلبها من هدايا الحلبيين الى اولادهم واخوتهم الرهبان . وفي مؤخر الكنيسة صف من صور تلاميذ القديس انطونيوس باشكال ومواقف مختلفة والوان زاهية ، تتصدرها صورة ابيهم وزعيمهم متكئا على عصاه ناظرا الى رسوم الراحلين واشخاص الحاضرين من رهبانه كانه يترأس فيهم الصلاة

وعلى شمال المذبح الكبير مغارة حولت الى خزانة للاواني الكنسية تجد فيها اتقن ما اخرجته الصناعة الشرقية فضلا عن هدايا عظماء الغرب الى الدير . منها بدلة

للقداس من صنع انوال حلب المعروف بشغل المطرقة ، وهو قماش من الفضة برسوم نافرة عليها الورود والازهار، حيكت بخيوط من الحرير بديعة الصنع زاهية الالوان كانها برزت الان من يد الصانع مع انها تجاوزت مئتي سنة من العمر . وقد دفع احد تجار العاديات مليونا من الفرنكات ثمنا لها . وهناك صليب للشماع وخاتم حجارتهما من الفيروز الحقيقي الكبير الحجم تبلغ قيمتها الالاف من الذهب . وعصا من الابنوس المرصع هدية لويس ١٦ ملك فرنسا الى رئيس الدير هي آية في الفن لها قبضة من العاج بديعة النقش . وما سوى ذلك من البدلات والكؤوس والمباخر واواني الخمر والماء ما يعجز عن وصفه القلم ويدل على مقام هذا المزار وشهرته في العالم

اما الدير فاحدث ابنيته جهة الغرب ازاء الكنيسة له رواق مشرف على الوادي.

ومنه تصعد بضع درجات الى الابنية القديمة فتسير في تيه من السراديب الطويلة المظلمة المتصلة بدرجات برتها الاقدام. وهي تصعد بك تارة وتهبط بك اخرى وقلالي الرهبان الضيقة عن يمينك وشمالك، فتعود الى مخيلتك صورة المدرعة الحربية المتعددة الطبقات والطرقات وتظن انك في بطنها ، وما صوت المياه والرياح في الخارج سوى هدير البحر الزاخر . ولكن بدلا من الجندي المتغطرس الوقح يلقاك فيها الراهب الشاب الوديع يحني لك رأسه احتراما واضعا يمينه على صدره للسلام دون ان تتحرك شفتاه بكلام ، لان القانون يوصيه بالسكوت . وقد لف جسمه اليافع بالرداء الرهباني الاسود الخشن المصنوع في نول الدير ، وشد وسطه بحزام من شعر، فانطوى عليه ثوبه الطويل الواسع الثقيل طيات كثيرة ضايقته في سيره الحاد وحركاته الرشيقة . ولكنك اذا تفرست به لاحظت خطوطا دقيقة اخذت ترتسم على جبينه ، هي اثار الرزانة والعبادة في محيا كله نضارة وجمال . وان قابلك الراهب المسن رايت الدهر قد احنى كتفيه والقانون قد نظم خطواته والسنين قد اثقلت حركاته والتقشف قد انحل عضلاته ، فتجعد جلد وجهه وشف وأشرق وانعكست على عينيه، كالصورة على المرآة ، مشاهد السعادة الابدية التي اخذ يقترب منها بعد

جهاده الطويل . وما زلت بين دهاليز رطبة معتمة حتى تجتاز باب الدير الشرقي ، فهناك النور والحياة والهواء الطلق الجاف المعطر بشذاء الصنوبر . فتسير بين قوائمه الدقيقة متفيئا بظلاله المتمايلة حتى تنقطع بك الطريق ولا يعود امامك سوى قناة صغيرة لصقت بالصخر وانحسرت فيها مياه السقي واسندت اليها انابيب مياه الشفة المسحوبة الى الدير. فتمشي محرص على شفيرها والصخر على شمالك يضايقك ويدفعك الى الوادي وقد علا عجيجه وأصم اذنيك، ومدت الحشائش الشائكة اظفيرها اليك. حتى يفضي بك السير ، وقد ذقت من الرعب الوانا ، الى مغارة في وسطها بركة صافية كالمرآة يندفع اليها الماء خارجا من فخذ الجبل فيملأها ثم يثب وثبة واحدة الى قعر الوادي . فتجلس اليها وقد هدأ روعك وذهب تعبك فترتشف من مائها المثلج العذب وترتاح الى منظرها وقد رسمت فوقها حشيشة البير النحيفة رسوما غريبة لطيفة وتدلت من سقفها العناقيد المحجرة ونبتت في شقوقها شجيرات العنب والتين. ولكنك لا تلبث ان تشعر بوحشة المكان ، فقد منعت وعورته الاحياء من الوصول اليك ، واطبق الجبل من ثلاث جهات جدرانه الشاهقة عليك، فسد عنك الافق وحجب عنك اشعة الشمس وفغر افواه مغاوره وكهوفه عليك مكشرا متهددا . . . فتنقبض نفسك ويتولاها الخوف اشد من الاول . ولولا قطعة صغيرة من السماء تظهر زرقاء في اعلى جدران الوادي العابسة ، وصدى اجراس الدير التي تصل اليك بين هنيهة واخرى، لاعتقدت انك صرت في قعر الارض واصبحت في عالم الجن والارواح . . .

ويعرف هذا المكان بنبع الندامة. قيل ان شقيا تاب الى ربه وجاء فانزوى فيه وقضى بقية حياته بالتقشف والتكفير عادا نفسه غير مستحق ان يحصى بين رهبان الدير.

٣ — تاريخه

والدير قديم العهد ربما اتصل بالقرن الحادي عشر[1]. وفي حاشية علقها البطريرك

---

١ راجع بليبل ص ٦٠

يوحنا اللحفدي على كتاب انجيل قديم « ان حضر اليه سنة ١١٥٤ الراهب اشعيا من دير قزحيا فرأسه على دير القديس يوحنا كوزبند بقبرس [١] » وذكر البابا زخيا الثالث في براءته الى البطريرك اراميا العمشيتي سنة ١٢١٥ دير قزحيا كاول كراسي الاساقفة الموارنة [٢]

وذكر الدويهي ان رئيس هذا الدير الخوري جرجس الاهدني رقي الى درجة البريوطية سنة ١٤٧٢ [٣] وتوفي سنة ١٤٩١ فخلفه القس موسى المتريتي [٤]

وفي سجل الدير الذي جمعه سنة ١٨٧٢ القس جبرائيل السبعلي وجدنا [٥] نبذة ملخصها ان القس بركات البقوفاوي شيد في سنة ١٤٩٥ محبسة مار ميخايل وسكن فيها. واعتزل فيها عدة حبساء من اسرة الرزي من بقوفا [٦]. ثم خرب الدير والمحبسة مع خراب جبة بشري [٧] وبعد ذلك « حضر اشخاص من قرية جبيل اسمر [٨] وسكن العوام منهم في العربة والكهنة في الدير. وارتسم منهم ثلاثة مطارين في قزحيا [٩] واقتنوا له جملة ارزاق واستقاموا فيه مدة سنين. و بعد حضرت عائلة من بكفيا يقال لها بيت حبقوق وسكنوا مع الشركاء ودفعوا الى بيت السمراني ١٢ كيس نظير اتعابهم بدير قزحيا واخذوه منهم وسكنوا عوضهم وتعبوا في رزق الدير واستقاموا جملة سنين وارتسم منهم مطران على الدير المطران عبد الله حبقوق الذي قضى حياته في الدير وخلفه المطران يوحنا وسكن الدير عدة سنوات الى ان حضر

---

١ راجع تاريخ الدبس ص ٢٠٣. وقد اكتشفت في السنة الماضية خرائب دير الكوزبند وكنيسته فرممها الرهبان اللبنانيون. وهو واقع بين دير مار الياس مطوشي حيث الرهبان المذكورون وقرية القديسة مارينا المارونية.

٢ الدبس ص ٢٠٢ (٣) المشرق ٤ : ٣٦٢ (٤) تاريخ الدويهي ص ١٤٢

٥ لدى زيارتنا هذا الدير في ٩ اب سنة ١٩٢١

٦ وقد روى لي حضرة الخوري نعمة الله الرزي ان الحبساء المذكورين كانوا يعرفون باسماء: ملخو وسركيس وميخايل.

٧ يقول الدويهي ان خراب الدير كان في القرن ١٦ لجور الحكام. راجع بلبل ص ٦١

٨ سمار جبيل

٩ راجع في اساقفة قزحيا المشرق ٥ : ٣٠٥ والدبس ص ٣٩٥ و ٣٠٦

الرهبان اللبنانيون . . . ولما بلغه خبر فضائلهم سلمهم الدير ليسكنوه .» ونعرف من صكوك الدير ان المطران ميخايل القاطن في حبس قزحيا اشترى له في سنة ١٥٥٢ الحقلة المعروفة في بقوفا ، وان القس يوسف وابرهيم الحدثي ويوذن رهبان دير قزحيا اشتروا له في سنة ١٥٦٨ رزقا في قرية سرعل . وان الاخوين المطران يوسف والمطران يوذن ولدي يوحنا اقتنيا له في سنة ١٥٩٢ رزقا من حنا ابن الصبحا وسليمان هارون من كفر صغاب .

اما محبسة مار ميخايل القائمة فوق المضيف فهي عبارة عن مغارة سد قسم من فتحتها وترك الباقي مدخلا، عمرها كما قلنا القس بركات البقوفاوي سنة ١٤٩٥ وكانت حظيرة للمعزى واستحبس فيها الى اخر حياته[1]. وذكر الدويهي انه في سنة ١٦١٧ توفي فيها الخوري ميخايل الاهدني وخلفه القس موسى اليموني ثم القس يعقوب من برناسا من البترون وبعده القس ميخايل والقس جبرايل التي خلت المحبسة بعد وفاته[2]

واليك حكاية تسليم هذا الدير الى الرهبان اللبنانيين نقلا عن مذكرة رئيسهم العام القس عبد الله قرالي :

« ولما كانت سنة ١٧٠٨ ذهبت الى بلاد الجبه[3] وبتدبير الله افتتحنا دير مار انطونيوس قزحيا وكان تسليمه الينا من المطران حنا الذي كان يتولاه وكان عنده راهبان دخلا في شركتنا . وفي بدء دخولنا الى الدير تعبنا التعب العظيم الجسيم لانه كان خرابا وعليه كلف الحكام[4] وكنا نحن جاهلين تدبير مثل هذه الاحوال ولم يقبل احد الرهبان الرياسة عليه فلزم الامر ان اتولى انا رياسته فكنت رئيسا عاما ورئيس دير معا مدة من الزمان وكان ذلك في اول الصيف[5]

---

١ الدويهي ص ١٤٣ (٢) ص ١٩٥ (٣) يرجح انه كان في دير الهويزه الذي تسلمه سنة ١٧٠٧ كما رأيت (٤) كان ماله الاميري حسب سجل قزحيا المذكور ٤٥٠ قرشا مع أن دير مار اليشاع لم يكن يدفع سوى خمسين قرشا عُهد ال بشري الرهبان على تسديدها عنه كما رأيت (٥) في ٥ تموز. راجع في مجموعة بليبل ص ٩٥ الصك الذي كتبه للرهبان المطران يوحنا حبقوق صاحب الدير

وقد عاهدهم صاحب الدير المطران يوحنا حبقوق على ان يطلق لهم الحرية في التصرف بالدير وبأرزاقه ونذوراته وان لا يسكن عندهم الا اذا « استمرض وانقطع وما عاد له معاش » فيكون ضيفاً عليهم لا يتعرض لشؤونهم بشيء، بل يترك لهم بعد وفاته « جميع ما يملكه من مال وقنيان »

ويقول فرحات في تاريخه المخطوط « كان هذا الدير على شكل محبسة وفيه كنيسة ومغارة يسكنها راهب معتوه . فعمرته الرهبنة بخلاف ما كان واقتنت له املاكاً واثاثاً وتكلفت عليه حينئذ مبلغ ٢٥٨٦٧ قرشاً . ولما كان مجمع سنة ١٧٠٨ لم يقيموا رئيساً خاصاً لهذا الدير لان ابتداءه كان عسراً جداً ولذلك لم يوجد من هو كفوء له الا الرئيس العام فلبث فيه يديره وهو مع ذلك يزور الديورة الاخرى . لان من عادة هذه الرهبنة ان يتفقد الرئيس جميع اديرتها مرة كل سنة وان تعذر عليه ذلك فيرسل نائباً عنه كما ان من العادة ايضاً ان كل دير يقيم بذاته ريسه الذي يتصرف بتدبيره متكفلاً به والكل يرجع الى الريس العام لانه المحرك الاول »

وجاء في سجل دير اللويزه « لم يكن في هذا الدير من العمار غير قبو وغرفتين عاطلتين وراهب حبيس »

ومع ما كان عليه هذا الدير من الديون وسوء الحال المالية بلغ بتدبير القس عبدالله درجة عظيمة من اليسر حتى اصبح يقوم بأود اربعين راهباً فضلاً عن ٣٣ رجلاً من خدمة الدير وذوي العاهات[1]

وفي سجل الرهبانية « انه في سنة ١٧٣٨ كان في لبنان مكان يدعى سيدة حوقا تعمر ديراً وكان في الابتداء متعلقاً ومتحداً مع دير مار انطونيوس قزحيا لكن الان صار ديراً . ثم ترك الدير وبقي المكان وارزاقه خاصة قزحيا »

وفي سنة ١٧٢٣ اخلى الرهبان دير قزحيا لجور حاكم الجبة فاضطر ان يسترضيهم ويخفف عنهم المال فعادوا اليه ولكن الرياسة العامة انتقلت الى دير اللويزه وبقيت فيه[2] الى ان قسمت الرهبانية اللبنانية في سنة ١٧٦٩ الى بلدية وحلبية فصار

---

(١) المشرق ١٠ : ٦٩٨

(٢) بليبل ص ١٠٨

مركزاً لرئيس الرهبان البلديين الذين عرفوا لشهرته « برهبان قزحيا »

واليك بقية تاريخه نقلاً عن نبذة الاب نعمةالله الكفري المذكورة[1] :

زاد الدير اتساعاً في اواخر القرن ١٨ ونمت املاكه وغص بالرهبان . واشتهر بمطبعتـه التي احضرها الاخ ساروفيم الشوشاني البيروتي سنة ١٨١٤ وتخصص لها شرق الدير بناء نقلت اليه في سنة ١٨٢٠[2] وبنى القسم الغربي تجاه الكنيسة منـه الاب اغناطيوس شكري الديراني سنة ١٨٥٥ وانفق عليه ١٦٠ الف قرش . اما الكنيسة فقد اهتم بتوسيعها الاب بطرس بجدرفل سنة ١٨٦٤ . وكانت سابقاً مغارة ذات جدار واحد من جهة الجنوب فهـدمه ونقر الصخر حتى اتسعت طولاً وعرضاً واقام جداراً جديـدا من الحجر السماقي المستحضر من مقلع بـين اهدن وعربة قزحيا . اما حجارة الابواب والشبابيك فمن مقلع جبل حصرون . ووكل بتبليطها بالرخام الى عملة حلبيين واقام لها اربعة مذابح . وقد انفق على ذلـك ١٢٩٦٩٦ قرشاً

والساعي بمنزل الزوار الحالي الاب مارون الصغابي لما تولى الرئاسة سنة ١٨٨٦ . ونجح الدير في مادياته في عهد رئاسة الاب اغناطيوس بليبل العامة (١٨١١ـ١٨٣٢) فبلغ عدد رهبانه المائة . فاقاموا لهم ثلاثة ديورة في الساحل : الجديده وعشاش وبصرما خصصوا بكل منها املاكاً تقوم به . وفي سنة ١٨٦٤ لما تسلم الرهبان تدبير راهبات مار سمعان القرن اعطوا ديرهن قسماً من ارزاق دير قزحيا

وقد هدم الرهبان في السنين الاخيرة ابنية الدير العتيقة واقاموا عـلى انقاضها قصراً عظيماً منظماً على الطراز الحديث، ولكن فخامته واسباب الراحة الجديدة فيه لا تعوضك من العواطف السامية والذكريات اللذيذة التي كانت تثيره في قلبك هيئته القديمة الجليلة . وقد اثبتنا رسمه الدائر تذكاراً له وصورة ضئيلة لهذه الشعور

---

(١) المشرق ٤ : ٨٧٢ ـ ٨٧٧

(٢) ما زالت فيه الى الان ولكنها معطلة وقد اشتهرت بطبع الكتب الطقسية ولا سيما كتاب القداس الذي تجدد طبعه فيها مراراً

الفصل التاسع

دير روميه

١ — اخطار واثمار

استخدمت العناية الالهية من الحلبيين الثلاثة، الذين انتدبتهم لانشاء رهبانية وطنية منظمة في لبنان، شاباً ذا جرأة وذكاء. وتدخل، هو جبرائيل حوا . وكان سريع الانقلاب، مجازفاً، مستقلاً برأيه، فخدم الرهبانية ولم يخدم نفسه . سار بسفينتها الحديثة سيراً حثيثاً نحو النجاح، حتى اذا وصل بها الى عرض البحار فقد الرشد واراد ان يطوّح بها، فقيض لها الرب رجلاً هادئ الاعصاب، ثابت الجنان، بعيد النظر، هو عبدالله قرألي، قبض على دفتها بيد حازمة رشيدة واوصلها الى ميناء الامان

استجلب حوا رضى البطريرك الدويهي على الرهبانية الحديثة فاعتمدها هيئة مستقلة ومنحها ديراً خاصاً رممه حوا بماله ومساعيه، فاقامه اخوته عليهم رئيساً . تعب في سبيل الجمعية كثيراً ولكنه فشل سريعاً . اراد ان يغير غايتها ليضمن لنفسه الرياسة الدائمة، ففقدها الى الابد . خلعه رفقاؤه فطأطأ الرأس وجثا امام خلفه عبدالله، مفضلاً ان يكون راهباً كاملاً على ان يكون رئيساً ناقصاً . لكن مخيلته لم تدع له الراحة . كانت تصور لهُ المشروعات العظيمة بألوان زاهية تبهر بصره وتبعث فيه شوقاً عظيماً للعمل . فشعر انه قادر على انجازها وانه مدعو للعظائم لا للصغائر . هرول الى البطريرك الدويهي وشكا لهُ حاله ورفقاءه ورئيسه . ولما مثل عبدالله بين يدي البطريرك وسئل عن التهمة اجاب بالتنزل لحوا عن الرياسة . فهتف حوا : ان رضي الرئيس لا يرضى المرؤوسون بي رئيساً فاقسم

الرهبانية بيني وبينه . نزل الدويهي عند رغبته وخصصه بدير اهدن، ورفيقه بدير مار اليشع . لم يتبع حوا سوى راهب وبعض المبتدئين ولم يحسن تدبير هذا العدد القليل ولا تدبير نفسه . واختلف فوق ذلك مع مطران البلدة . يئس ورمى المعول وترك الدير والرهبان فعادوا الى حصة عبدالله والرهبانية

تسلم عبدالله المعول منه ورجع بنشاط الى العمل في حقل الرهبانيـة . فنما وأزهر وأثمر، فجنى ثمار مساعي رفيقه لرهبانيته المحبوبة

هجر حوا الرهبانية والوطن وقصد الى مالطه « ليأتي منها بمطبعة يفيد بهـا الطائفة » . مشروع جميل خطير، بكر في لبنان والشرق من ورائـه نفع عظيم للوطن ومكانة كبيرة لصاحبه

جاء في مذكرات القس عبدالله قرألي « وفي مالطه ما تسهلت له المطبعة التي قصدها . بل ولا نعلم اذا كان قصده المطبعة بتحقيق » . ولكننا اطلعنا اخيراً على فقرة واردة في رسالة وجهها البطريرك يعقوب عواد من دير قنوبين الى البادري الياس اليسوعي[1] مؤرخة في اوائل حزيران سنة ١٧٠٨[2] قد يكون لها علاقة بمشروع حوا . واليك نصها :

« ثم نعلمكم من جهة المطبعة التي في مالطه اننا وجدنا ورقة بوقفيتها لقنوبين ما بين اوراق سالفنا البطريرك المرحوم وهي عنكم ومنكم . ولكن اخوكم ولدنا الشدياق يوسف قال ان المطبعة له وليس لكم وانكم وهبتم ما ليس هو بملككم . فرأينا ان كشف هذه القضية المبهمة لا يكون الا بالمراجعة لكم . فان رأيتم مناسب ترسلوا تعلمونا بواضح الامر وبيانه لنفهم الحق ونتبعـه . ولا بأس من ان تكون هذه المطبعة برسم الكرسي . من حيث ان الخير في ذلـك متصل بالطائفة كلها ويصير لنا وجه في تدبيرها خير من انهـا عاطلة في مالطه .

---

(١) الارجح انه الخوري الياس السمعاني كاتب اسرار البطريرك الدويهي سابقاً وعم المستشرق يوسف السمعاني الشهير . ولم نكن نعلم انه انضم الى الرهبانية اليسوعية . راجع ترجمة البطريرك الدويهي للمرحوم المطران بطرس شبلي صفحة ١٤٠

(٢) تجدها في السجل البطريركي مج ٢ صفحة ش

والذي هو مثلكم تغنيه كلمة عن جملة ... »

فشل حوا في هذا المشروع ايضاً . فلم تثبط عزيمته بل زاده الفشل تحمساً . أيعود الى لبنان بخفي حنين : لا مطبعة ولا دير ولا رياسة ؟ وجه انظاره الى رومية . رومية العظيمة عاصمة الكثلكة والبابوية والعلوم الغربية والشرقية . شد اليها مسافراً وفي افقها تراءى له نجمه عالياً باهراً . توصل حتى اعتاب عرش الحبر الاعظم « ونال حظوة في عينيه » . فكلفه مهمة خطيرة ووعده بمكافأة جزيلة . وقد برّ بوعده وشيد له في رومية ديراً وعين له ولمرؤوسيه الرواتب

اعاد هذا الفوز الى حوا احلامه في الرئاسة . ولكن ما العمل ؟ اصبح له دير ورواتب وليس له رهبان يرأسهم وينفق عليهم . فهو لا محالة فاشل هذه المرة بل ان من وراء فوزه هذا فضيحة شنيعة وسقطة لا قيام له بعدها . فقد ادّعى امام الحبر الاعظم انه تابع للرهبانية اللبنانية، مع انه هجرها وعاداها، فبنى له البابا ديراً لرهبانه المزعومين وعين الرواتب لمن لا وجود لهم وامره ان يأتي بهم . فاخذ يراسل عبدالله، تارةً مفتخراً آمراً متهدداً، وطوراً متملقاً متوسلاً متذللاً : « البابا أنعم عليكم بسعيي بدير فخم في رومية اسوة بسائر الرهبنات وعين لرهبانكم الرواتب . اكتبوا فاشكروا كل من سعى لكم بهذه الهبة العظيمة واسرعوا بارسال قسيسين او بالاحرى ستة قسوس ... الدير قد تم بناؤه وزاره الحبر الاعظم بنفسه وآمر ان ترسلوا الي اخوة . اعلمتكم بهذا لتكونوا على حذر » أصمّ عبدالله أذنيه عن وعده ووعيده . فهو « قد تربى معه » وعرف اطواره ونياته، فلا يثق باخلاصه للرهبانية . لقد خرج منها واضطهدها فكيف يسلمه اولاده واولادها . اخيراً ثار عليه المدبرون « كيف تضيع منا ديراً في رومية » ؟ فاضطر ان يرسل الى حوا راهبين على شرط ان لم يرغب في العود الى الرهبانية فليسلمها الدير مع تمسك رسمي وليكن عندها ضيفاً مكرماً حراً . وان اراد الرجوع الى الرهبانية فلينذر نذورها ويصبح رئيساً على الدير . وهو، اي عبدالله، لا يحجم عن التنزل له عن الرئاسة العامة ان اخلص النية . ومما قاله له : « ستُمدح يا حوا برجوعك الى اولادك وانت الاب القديم والرئيس الحقيقي ... وأنا تلميذك وابنك وسأموت تحت طاعتك ...

وان لم ترضَ بهـذا وذاك فليعد الراهبان الينا » ولكن حوا كان مصمماً ان لا يعود الى الرهبانية وان لا يعيد راهبيها اليها

وصل الراهبان الى رومية فطار لرؤيتهما فرحاً واحضرهما امـام الحبر الاعظم قائلاً : هؤلاء رهباني ! وقال للراهبين « انا عدتُ اليكم وصرت واحداً منكم » فأقاماه رئيساً، ثم طالباه بالنذور فماطل وخاتل وداهن . وبعد زمان كشف لهما ضميره : انتما اخوي . وساحلكما من نذوركما للرهبانية وللرئيس عبدالله . فتكونا من رهباني وانا اكون لكما رئيساً وأباً » . ولما نفرا منه ورفضا الخضوع له سد عليهما سُبل الرجوع الى لبنان. ولما شكياه الى المراجع العليا اعتذر « بانهما جاهلين لا يعرفان لغة البلاد وانه ساعٍ وراء كهنة يجيـدون لغات الغرب فيعيّنهم قداسة الحبر الاعظم في وظائف توفر رواتبها عليه ما يتقاضاه هذان الراهبان منه شهرياً » فترك الرهبان الدير وعادوا الى الوطن « الذي رأوه اوسع لهم من بـلاد الغرب » واستقل حوا بالدير والرواتب

لكنه نسي ان العناية الالهية لم تسخره لنفسه . دارت عليه الدوائر ونزع الدير منه وسلم رسمياً الى الرهبانية اللبنانية. فأصبح لها في عاصمة الكنيسة الكاثوليكية مركزاً ثابتاً تستمد منه القوة للدفاع عن مصالحها وكرامتها، ومدرسة عالية لتثقيف اولادها ورفع مستواهم الادبي، فضلاً عما تجنيـه من التقرب والتعرف الى عظماء الغرب ومحسنيهم لاستدرار اكفهم والفوز بعطفهم وحمايتهم

واليك تفاصيل هذه الرواية نقلاً عن الوثائق التاريخية التي عثرنا عليها وخاصة مذكرتي قرألي وفرحات . ومنها تظهر جلياً حكمة مؤسس الرهبانيـة ودهاءه وتجرده وتفانيه في سبيل اولاده وكيف درأ عنهم الاخطـار وجنى لهم من تعب غيرهم انفس الاثمار

٢ — بناء الدير

استأنف القس عبدالله قصته قائلاً :

« وفي اواخر الصيف[1] ارسلنا القس يوسف بتن الذي هو اول الرهبنة كما سبق الشرح ومعه ابن اخته القس يوسف شاهين الى رومية لعند القس جبرايل حوا . وسبب ذلك كان ان القس جبرايل حوى لما سافر الى رومية كما سبق الشرح في سنة الف وسبعماية وواحدة غاب نحو سنة ورجع الى الشرق وجاء الى عندي الى دير مار اليشع . فاستخبرته عن احواله فاجابني انهُ ذاهب الى مصر . وقال لي قصته بتمامها . زعم اني دخلت رومية وتباركت من سيدنا البابا فسألني من اين أنت . اجبته انا رجل ماروني من بلاد الشرق من جبل لبنان من رهبان مار انطونيوس . فباركني وخرجت من عنده . وبعد ايام صار للبابا امر لازم في مصر فارسل طلبني . ولما حضرت قدامه اخذ يسألني عن رهبنتي وكم دير انتم . فاجبته نحن ثلاثة ديورة . قال وكانت نيتي على مرت موده ومدرسة زغرتا[2] ودير مار اليشع . فقال لي البابا لماذا لا يجي رهبان منكم يسكنون رومية مثل باقي الرهبنات . فاجبته اننا فقراء وليس لنا مكان في رومية . فقال لي البابا اذهب الى مصر واقضِ لي هذا الامر فاذا رجعتَ أنا اعمل لرهبانكم ديراً في رومية . ثم قال لي القس المذكور . انا الان ذاهب الى مصر فاذا رجعت الى رومية وصار لي الدير ارسل اليك فترسل رهباناً يتسلموه . لان كل شيء لي هو لكم ان احب الله . هذا ومثله من الكلام الذي كلمني به القس جبرايل حوى في مار اليشاع وودعني وسافر الى مصر . وكان كلامه عندي كالمنام . لكنه تم بالفعل . لانه رجع من مصر الى رومية وتم غرض السيد البابا والبابا ايضاً اكمل قوله معه وبنى لهُ ديراً كان قديماً كنيسة قديمة على اسم القديسين بطرس ومرشلين الشهيدين »

اما مهمة حوا فكانت مفاوضة بطريرك الاقباط الارثوذكس في دخول الحظيرة الرومانية مع طائفته . فلم يفلح بها ولم يقدم الى الخبر الاعظم سوى الوعود

---

(١) ١٧٠٨ (٢) التي تسلم الرهبان تدبيرها من منشئها المطران جرجس بيمين

والآمال القريبة . لكنه عوضه من ذلك ببشرى انسته مرارة الخيبة وكان لها دوي فرح في قلوب العلماء الكاثوليك . قال الاب لاجرانج في كتابه « ترجمة الشهداء الشرقيين » الذي نقله عن مخطوطات المطران اسطفان عواد السمعاني[١]

« كانت اعمال الشهداء الشرقيين مجهولة في اوربا حتى بدء القرن الثامن عشر. فالاب روينار الذي نشر في مجموعته بعض قصص جميلة أخذها عن سوزومين اليوناني ندب بمرارة ضياع هذه الآثار الثمينة. وبعد بضع سنين من ذلك اي في سنة ١٧٠٦ انتشر الخبر في رومية عن لسان اسقف شرقي يدعى جبريل حوا[٢] ان في ديورة مصر عدد كبير من كتب خطية قديمة جداً كلدانية وسريانية وعربية وقبطية ويونانية . فكان لهذا الخبر تأثيره العظيم في ذلك العصر عصر التآليف التاريخية والمجموعات الكبيرة . لان علماء البروتستانت كانوا قد دعوا علماء الكاثوليك للنزول الى ميدان التاريخ . فلبى هؤلاء دعوتهم واندفعوا بحماسة في التفتيش عن الاثار المسيحية القديمة . لذلك استقبلوا بسرور لا يوصف خبر العثور على هذه المخطوطات الثمينة . لانها فضلاً عن قيمتها التاريخية تصلح ان تكون سلاحاً جديداً في المجادلات الدينية . فوطد اكليمنضوس ١١ النية على ان يرسل الى مصر من يبحث عن هذه البقايا الثمينة ويستجلبها الى اوربا مهما بلغ ثمنها[٣] »

---

(١) P. Lagrange. Acte des Martyrs d'Orient traduits sur les manuscrits syriaques de Etienne-Evode Assemani p. 5-9. Tours 1883

(٢) لم يكن حوا سيم اسقفاً في تلك السنة بل في سنة ١٧٢٣

(٣) اوفد الحبر الاعظم في سنة ١٧١٥ العلامة يوسف سمعان السمعاني في هذه المهمة الى القطر المصري فابتاع من الديورة التي كانت قديماً للسريان ولا سيما من دير البراموس في وادي النطرون حيث كانت المخطوطات مصونة في برج منيع كمية كبيرة ثمينة لا تقدر بمال . وقد استنسخ ما لم يتمكن من شرائه واودع هذه الكنوز مكتبة الفاتيكان التي اصبحت من ذلك الحين تحوي اثمن الاثار الشرقية الكنسية في العالم . راجع في ذلك كتاب سيزوستريس بك سيداروس وعنوانه : Les Patriarcats p. 93 ونبذة القس اسحق ارمله « السريان في القطر المصري » في المشرق ٢٣ : ٥٨٦ ومجموعة Lettres édifiantes t.III p. 279

واليك ما جاء في تاريخ فرحات المخطوط بخصوص بناء هذا الدير واثبات حق الرهبان اللبنانيين فيه . وقد أسهب في ذلك لانه ذهب بنفسه الى رومية لفض المشكل بين الرهبان والقس جبريل حوا كما سترى قال :

« وفي هذه السنة (١) ابتدأت مكاتيب القس جبريل حوى تتوارد من رومية الى القس عبد الاحد رئيس الرهبان اللبنانيين في ان يرسل اليه رهباناً الى رومية ليسكنوا ديراً عمره لهم سيدنا البابا . وسبب ذلك ان القس جبريل ترك بلاد الشرق بعد خروجه من الرهبان اللبنانيين كما ذكرنا سابقاً ودخل مدينة رومية . ولانه كان حافظاً علم السلوك جيداً وحاذقاً بأخذ الخواطر كان يسلك عند اكابر رومية وعند بعض مطارينها وكردينالياتها . واتصل اخيراً بقدس سيدنا البابا وكان وقتئذٍ اقليمس الحادي عشر متصفاً بكل قداسة . فاحبه البابا جداً وذلك بسبب الصناعة الموجودة عنده في الكلام والحركات . ثم ان البابا ارسله الى مصر في خدمة . فلما رجع اراد ان يحسن اليه عن خدمته فسأله اذا كان له رهبان ليعمر لهم ديراً في رومية فاجابه نعم ان لي رهباناً وكان يشير الى الرهبان اللبنانيين . فأعطاه كنيسة عتيقة اوحش كنائس رومية على اسم مار بطرس ومرجلين قرب كنيسة مار يوحنا لاتران وعمر له فيها كم قلاية . فلما رأى القس جبريل حوى انه التزم بتحصيل الرهبان — لان البابا بعد كمال العمارة قال له ان يرسل يأتي برهبانه ، وهو عارف بنفسه ان ليس له رهبان — فأخذ يكاتب القس عبد الاحد ويتضرع

---

(١) ١٧٠٧

اليه في ان يبعث له رهباناً . فكتب له في هذه السنة مكتوباً اولا في عشرة تشرين الاول هذا مضمونه : ان ربنا سهل لكم مكاناً مجاناً من غير ان تتكلفوا شيئاً فارسلوا راهبين قسوساً ليبقى الدير في تصريفكم »

« ثم كتب مكتوباً ثانياً في ١٤ آذار يقول فيه للقس جبريل فرحات ارسلوا مكتوباً اولاً تستكتروا فيه خير المطران كراديني لانه سعى في عمار الدير ومكتوباً لاخي سيدنا البابا لانه وكيل الدير ، ومكتوباً للكردينال بنياتلي لانه منسام على كنيسة الدير ، ومكتوباً لسيدنا البابا لانه نحنن عليكم وانعم عليكم وساواكم مع باقي الرهبنات واعطاكم ديراً في رومية أم المداين . واستكتروا خيره عن كلفة العمارة وعن خرج الرهبان لانه هو يموّنهم » ثم كتب للرئيس العام مكتوباً ثالثاً في ١٩ من اذار يقول فيه « آمر قدس سيدنا البابا بعمار ست قلالي ومطبخ وبيت مايدة وقبو مونة في دير مار بطرس ومرجلين . ومتى تمت العمارة امر قدس البابا ان ارسل اليكم حتى ترسلوا الي اخوة . اعلمتكم بهذا حتى تكونوا على حذر » ثم كتب للريس العام والقس جبريل فرحات مكتوباً رابعاً في ٦ تموز يقول « اعلموا ان الدير عن قريب يتم . المرجو منكم ان ترسلوا لنا قسيسين مع الاولاد الذين يرسلهم سيدنا البطرك الى المدرسة » فالناتج من مضامين هذه المكاتيب ان سيدنا البابا عمر الدير المذكور لاجل الرهبان اللبنانيين لسد دين رهبنة مار انطونيوس بدليل قوله اولاً « صار لكم مكاناً مجاناً » وقوله ثانياً « اعطاكم البابا ديراً في رومية » وقوله ثالثاً « امرني سيدنا البابا حتى ارسل اقول لكم لتبعثوا رهباناً » وقوله رابعاً « ارسلوا لنا قسيسين » ومع هذا كله لم يصدقه الريس العام ولا التفت الى مكاتيبه لان روح الله كان يدبره »

٣ — سفر الرهبان الى رومية

جاء في مذكرات القس عبدالله :

« وبعد تمام بناء الدير وقبل تمام بنائه لم يزل القس جبريل يراسلني من رومية لارسال الرهبان ويزعم ان الدير تعمر باسمكم ولا اريد شركة غيركم ولا غير قانونكم واكون انا تحت طاعتكم . وكلام ومكاتيب مثل هذه بكثرة الى هذه السنة التي كتب لنا فيها ان العمارة تمت ابعثوا الرهبان من كل بد . وسيدنا البابا امرني ان ابعث بطاب رهبانكم وغير رهبانكم لا اريد . وهذه المكاتيب باقية عندنا الى اليوم . لكن لاني تربيت مع القس جبريل حوى وعالم بطبعه جيداً ارتبت وشككت في كلامه وخفت لئلا يخدعنا ويفسخ الرهبنة . فاظهرت سريرتي للاخوة المدبرين فاغتاظ بعضهم مني وشكوا فيّ شكاً قبيحاً لانهم تخيلوا اني لا اريد شركة القس جبريل لئلا يوجد في الرهبنة اكبر مني بما انه كان رئيساً قبلي . فلما عرفت ظنهم وسمعت كلامهم انهم راغبون في شركته اطلقت لهم الحرية في ذلك وارسلنا القسيسين كما ذكرنا سابقاً . وكتبت انا مكتوباً مستطيلاً للقس جبريل مضمونه انه يدخل معنا بنية صالحة وينذر ويكون رئيساً على اخوته ثلاث سنين . وابتهلت اليه كثيراً ليستقيم بنيته ولا يشمت الناس فينا ولا يردنا للمحاربة والهتيكة . وكل شيء توهمته بالمذكور تم بالفعل وصار كما يجيء شرحه في طيه . وقبل ان يسافر القسيسان الى رومية عقدنا مجمعاً لتغيير الرؤساء في شهر آب وقدمناه قبل حينه لاجل الاخوة المسافرين الى رومية ليعرفوا قبل سفرهم من هم الرؤساء لان زمن التغيير كان قريباً . فانتخبني المجمع رئيساً عاما مرة رابعة »

وقال فرحات « وحددوا (في هذا المجمع) بعض فرائض تخص المدبرين ورؤساء الديورة والمبتدئين وآمروا فيه بتجديد النذر مرة واحدة

في كل سنة يوم عيد القديس يهوذا الرسول الواقع في ١٩ من حزيران لان القانون تثبت ليلة عيده (١) »

وكتب فرحات في تاريخه :

« وفي هذه السنة (٢) ارسل جبريل حوى مكتوباً خامساً من رومية الى القس عبد الاحد في ١٥ من ت٢ قائلاً « نعلمكم ان الدير قد تم وقدس سيدنا البابا جاء اليه ونظر فيه وقال لي ان اكتب اليكم حتى يجيء من الاخوة الرهبان كم واحد مقدار سنة » فهل عاد يمكن ان توجد عبارات أوكد من هذه تحقق ان هذا الدير بني لهؤلاء الرهبان ومع هذا كله فلم يصدقه الريس العام ذاك الناطق فيه روح الله وقال « انه لم يطلب من رهبانا حباً فينا بل لانه ليس له رهبان وان طلب رهباناً غيرنا ما يمكنه ان يعاشرهم والان التزم بالرهبان فما عاد يمكنه ان يكذّب حاله ليلا ينهك أو ينضر » وهذا كان حقا لانه بقي في رومية كالمجنون تائها ما يصدق متى يرى راهبا يأتي اليه حتى يقول « جاءت رهباني » وأما مدبرو الرهبنة فلان نظرهم وفكرهم كان بشريا قاوموا الريس وألزموه ان يرسل رهباناً ليلا يفوتهم دير رومية . فجهز نحو رومية راهبين غصبا عنه احدهما القس يوسف بتن . وهو احد الثلثة المؤسسين هذه الرهبنة (٣) وكان رجلا مملوءاً تواضعاً وجهاداً . وكان مشرفا على القدامة لان نعمة الله كانت تدبره . وقد اتقن فضيلتي الصبر والبساطة

---

(١) يعني تثبيته من البطريرك الدويهي وبعد ان ثبته الحبر الاعظم سنة ١٧٣٢ جعلوا تجديد النذور في عيد القديس انطونيوس ابي الرهبان الواقع في ١٧ ت١ حسب رسم الفرائض راجع مقالة الكفري في المشرق ٤ : ٣٦٢

(٢) ١٧٠٨ (٣) دخل الرهبانية وقد عنى البتن وقرالي وحوى ولم يعد فرحات نفسه من المؤسسين لانه دخل بعدهم بسنتين ولم ينذر وهجرها من سنة ١٧٠٠ الى سنة ١٧٠٦ كما سبق القول

في الغاية . والنظر اليه يعلم الفضيلة . كابد في الرهبنة اتعاباً لا توصف وكان يساعد اخوته وينشطهم في خدمة الله بكل قوته وقد قتل كثيراً من آلام النفس . وارسل معه رفيقا القس يوسف شاهين الحلبي حدث السن والرهبنة الا انه مجاهد عمال عارف باللغة الافرنجية . واعطى مما مكتوباً للقس جبريل حوى مضمونه ان الاخوة واصلون اليك كما طلبت منا مرات كثيرة فان دخلت في قانوننا تكن عليهم رئيسا ثلث سنين وان كنت لا تريد ان تدخل فلتكن لك قلاية في الدير تعيش على خاطرك وليكن القس يوسف بتن رئيساً ويتسلم الدير ولا يكن لك تصرف في الدير اصلا . وهذا يكون ظاهراً تجاه سيدنا البابا والجميع (١) وان لم ترض ذلك ولا هذا فلترجع الاخوة الينا . والرب يكون معك . ولا تعمل معنا اموراً تكون غايتها الهتيكة والفتنة لان الرهبان ما ارسلتهم الا بالزام سيدنا البطرك والمدبرين وارسلت لك مع الاخوة شروطا مما يمكنهم ان يثبتوا في رومية ان كنت لا تقبلها »

« ومن جملة الشروط المبعوثة ان الرهبان في رومية لا يعاشروا النساء ولا يساكنوا علمانياً ولا يخرجوا للزيارات وان يحفظوا طقس الرهبنة وعوايد الكنيسة الشرقية . والشرط الاهم انهم لا يسكنوا الدير الا بعد ان يصرفهم فيه القس جبريل بموجب تملك في يدهم انه ما عاد له في الدير تعلق بل صار للرهبان اللبنانيين كما هي نية سيدنا البابا . وكتب له شروطا غير هذه ما يمكن سلوكها في رومية » ثم سافر الرهبان نحو رومية فوصلوا اليها في عشرة من ك١ في هذه السنة بعد ان كابدوا مشقات لا توصف » بحراً وبراً وكانوا قاربوا الموت . فلما رآهم القس جبريل حوى كاد يطير عقله من الفرح لعظم ما كان فيه من القلق

---

(١) اي : يجب ان يعلم البابا والجميع ان الدير للرهبانية وانك لست منها

فأعرضوا عليه المكتوب والشروط فرضيهم من كل قلبه وقال « انا رجعت اليكم وصرت واحداً منكم » ودهنهم بمثل هذا الكلام كثيراً وما دروا ان السم من العسل . فجعلوه رئيساً عليهم وسلموا له الطاعة كانه يسوع . واحضرهم قدام سيدنا البابا ففرح بهم كثيراً ووكل عليهم اخاه وعين لهم علافة كل شهر عشرين قرشاً رومانياً غير علافة القس جبريل . فنية سيدنا البابا ان الدير والعلافة للرهبان اللبنانيين لكن نية القس جبريل الخفية كانت خلاف ذلك . والحق لمن له « الحق »

٤ بين القس عبدالله وحوا

ولا بد لنا هنا من اثبات الرسالة التي كتبها القس عبدالله الى القس جبريل حوا مواطنه ورفيقه القديم فهي صورة ناطقة لشخصية مؤسس الرهبانية تتجلى فيها حسن طويته وقداسته ودعته وتفانيه مع بعد النظر والحزم وحسن التدبير فضلاً عن فصاحته . وقد نشرها الاب لويس بابيل في تاريخ الرهبانية (١) نقلاً عن سجل البودي قائلاً :

واما تحريره الذي اورد خلاصته كما اعلاه فقد عثرت عليه . ولما فيه من صراحة وسهولة التعبير بلهجة الصدق بمسحة البساطة المسيحية وتزينه التمنيات الصالحة الصادرة من جلجلان القلب خالية من كل تصنع بشري وكل ذلك مقرون بروح الفطنة ومصلح بملح الحكمة رأيت ان اثبته بحروفه فيكون خير قدوة ... وهذا نصه : الى تقبيل ايادي ابينا القس جبريل المكرم حفظه الله تعالى . فاولاً انني كثير الاشواق الى تقبيل ايديكم بكل خير . ثانياً وصل الينا منكم جملة تحارير وآخرهم

---

(١) ٣ مج ٢ ص ٢ ٧١

تاريخه من تشرين الثاني . وفهمت جميع ما ذكرتم لي وللقس جبريل فرحات بالتفصيل الا واحدة لم نفهمها بالتوضيح وهي غاية خاطركم في سعيكم ونتيجة ايهابكم لنا الدير من حيث اختلاف المقاصد الواقعة بيننا سابقاً كما هو واضح عندكم جيداً . ولذلك حصلت الافهام عندنا مبلبلة والاوهام كثيرة . وسابقاً كاتبتكم في ايلول بمثل هذا المعنى وما جاءني منكم جواب وما كنت عارفاً انا ان القضية تطول هل القدر ولو عرفت ذلك لكنت ارسلت لكم مكاتيب كثيرة ولكن صار الذي صار وسفر البحر على هذا ومثله . ثم عدنا راجعنا قدس سيدنا البطريرك الاكرم بالقضية بالتمام وكشفنا له افكارنا بالتفصيل فاشار علينا مع الاخوة المدبرين ان الاوفق والواجب ان نبعث لكم رهباناً لكن لا يسيرون الا كسيرتهم في بلاد الشرق لا اقل ولا اكثر . فحددت لهم جملة شروط هي واصلة تتأملونها فان حسنت بنظركم وارتضيتم بها كان خيراً ومعهم اجازة ان يسكنوا ديركم كما طلبتم . ثم نعود الى امركم من حيث ذاتكم فان قبلتم الدخول معنا كواحد منا فلكم الرياسة عليهم وفيهم بحسب القانون الى ثلاث سنوات ودبروهم كما يلهمكم الله تعالى مع ملاحظة الشروط الواصلة معهم بالتمام . وان كنتم لا تهوون الدخول معنا ولكم الخاطر ان توهبونا الدير هبة فاكتبوا تمسكاً لرهبنيتنا مضمونه انه ما عاد لكم تصرف فيه البتة الا بنوع السكنى فيه برأسكم فقط . وتوضحوا ذلك لقدس سيدنا البابا وغيره بالوجه الذي يخلصكم ان القس يوسف هو الرئيس او غيره . والنتيجة يفهم عند الكل انه ما بقي لكم فيه (اي في امر الدير) شيء وان الدير تدبيره راجع لامر الرئيس الكبير الذي في الشرق . فهذا الرأي ايضاً جائز . والا اي ان كنتم لا توضحون الامور جلياً وتريدون ان تجعلوا الرهبان المقيمين عندكم على الوجه

الضائع او تبقوهم في الدير برومية وتجوا للشرق كما ذكرتم لي في بعض مكاتيبكم وتعاملونا بوجه آخر تحت حال تحتمل نهايته الاختلاف والاشتقاق كالاول وتعودوا تخرجونا من ديركم مهجين مهتوكين أو نلتزم بتحريف قانوننا وطقسنا فهذا غير ممكن ان ترتضيه على ذواتنا ونسلم فعله بل الاوفق ان ترجع الينا الاخوة وتبقى المحبة مكانها . وانتم اخبركم خسارة جسدانية وروحانية ورثت علينا المخالفة بيننا فيما سلف . وانا خائف كثيراً ان الشيطان يعيد الماضي وهذا الفكر صدني كثيراً حتى لا ابعث الرهبان الا بعد اخذ خاطركم باتمام . لكن سيدنا البطرك المكرم وغيره من الرؤساء واخوتي المدبرين اجمعوا كلهم علي بالمشورة ان ارسل الرهبان اليكم . فرأيت الرضوخ لهم واجب وارجو الهي ان خوفي لا يكون له فعل اصلاً . وليكن معلوما عندكم ان هذا الحساب منعني ايضا عن المكاتبة لقدس سيدنا البابا وغيره كما ذكرتم لنا (١) بل ان جرت الامور بيننا وبينكم على الخاطر فمعكم اجازة ان تجتمعوا مع الاخوة الواصلين اليكم وتكتبوا عن لساني مهما شئتم بوجه الله . اعني لا يكون في المكاتيب كلام ينتج منه ضرراً لقانوننا وعوائدنا . بل قدام الله تعالى يكون قصدنا وقصدكم واحد . ولا تفتكر في ان تضع علينا اسم تعليم او منفعة قريب بوجه الزام (٢) فان ذلك ممتنع بالكلية وغير ممكن ان ندخل تحت هذا الالزام في مكان او في زمان البتة . ولو ان قانوننا لم ينف التعليم ومنفعة القريب لكنه ايضاً لم يلزم في ذلك اصلاً . وغاية سيرتنا ورهبنتنا خلاص نفوسنا ونفوس رهباننا .

---

(١) اراد حوا استدراج انس عبدالله بالكتابة الى اولياء الامر في رومية ليثبت اقواله لهم فأبى عبدالله ان يورط نفسه والرهبانية قبل ان يفوز من حوا بصك التنازل عن الدير

(٢) اي ان يلتزم الرهبان بالتعليم او بخدمة الرعية

وتابع القس عبدالله رسالته الى حوا قائلاً :

وذكرتم لي في بعض مكاتيبكم عن امور تلاميذ رومية فالتلاميذ يا أبي المكرم من حيث انهم تحت الزام منفعة القريب فدخولهم بيننا ممتنع والا فتصير الرهبانية رهبنتين وضم الحالين تحت رياسة واحدة في بلاد الشرق ممتنع بل بعلمكم انهم متى دخلوا بيننا دارونا مدارهم سرياً ونعود الى الانقسام ثانية وهذا شيء مستشنع جداً عند الله والناس ولذلك ما استطعت أن ندخلهم بيننا والنتيجة لكم واضحة لان الاشارة تكفيكم عن طول الشرح . فبقي ان وصل اليكم الاخوة بالسلامة واحب الله تعالى ان تجتمعوا ولا فيما بينكم وتوضحو لهم ضميركم كما قدام الله تجنبوا كل دقة عقل وحذاقة وافعلوا فعل البساطة اللائقة باهل القداسة . فان اتفقتم معهم على ما هو واضح عندكم وعندهم وكتبتم لهم تمسكاً بتنزلكم ذاتكم عن امور الدير وكل استحقاق في ذلك بخط يدكم وارسلتموه لنا كنتم في وظيفة الرياسة على ديركم وهم تحت طاعتكم . وان سلمتموهم وما دخلتم معهم واحببتم الاقامة في الدير وحدكم فالموضع موضعكم وخرجكم على الدير والا فليزوروا رومية ويعودوا من غير مراجعة لانني خائف ليلا تمسكنا الى ان تقشع لك غيرنا وتهججنا بلطافة وتجذب منا شرذمة الى رأيك . ولا تحسب كلامي هذا بنوع توبيخ لك . لا . يعلم الله . بل ان هذه افكاري كشفتها لك ببساطة كما هي قدام الله ونحن بانتظار جوابكم وانشاءالله لا يكون الا الخير ويرجع الماء الى مجاريه وتعود الرعية الى راعيها . ومن هو الذي لا يعرف ان الرهبان رهبانكم والنصبة نصبتكم وغرسة يمينكم . من هو القس عبدالله ومن يكون ابن قراعلي فما هو الا القس جبريل الحوى وتأسيسه وبنايته ولولاه ما ابتدأ بها بادىء ولا سعى بها ساع . فلا تدعها يا داود ارملة مهجورة وانت مسيحها بل فليقتل مواب تواضعك اسمَ ابيشالوم عبدالله الطالب مقامك . فان الله دعا اياك

اولاً لا خلفاءك . أو ما سمعت ما أجاب الله ذاك الكليم الكبير لما قيل له ايرأس شعباً غير شعبه زعم « ان شئت ان تنزعني عنهم فامح اسمي من ذكرك » . فيا لها من محبة راع صالح وليس بأجير كما انها فيك انت ايها الأب القديم والرئيس الحقيقي وستمدح بلا بد في رجوعك الى اولادك اذا كنت مأموراً من الله بالعودة الى اخوتك لتثبتهم بما انك الصفا القايم عليه بنيانهم . أما انا تلميذك وابنك (١) فاني لا أحس في ذاتي براحة مثل ان اراك قد عدت الي حيث انا وأموت تحت طاعتك وفيها تكون لي النهاية كما فيها كانت البداية ومنها تنسمت روح الرهبنة . والرجاء بالله تعالى انه على يدك تتم وتنقضي بخير بشفاعة جميع القديسين امين .

(عن سجل الاب توما اللبودي الموجود في رومية) اخوكم القس

٥ — الائتلاف والاختلاف عبدالله قراعلي

قال القس عبدالله في مفكرته الخطية :

« في اواخر هذه السنة (٢) وصل القسيسان الى رومية وائتلفا مع القس جبريل . وفي سنة ١٧٠٩ وصلت الينا مكاتيب الاخوة من رومية مع مكاتيب القس جبريل الحوى يذكرون فيها المحبة وكلامه بينهم وانهم سالكون بموجب القانون بالتمام ومنعوا النساء من دخول كنيستهم وانهم تحت طاعتنا في كل شيء . وامثال ذلك . ثم كتب ايضاً القس جبريل يقول « اني تنزلت عن دير مار بطرس ومرشلين وصار تصرفه بيد الاخوة وانا واحد منهم وهذا خطي يشهد علي » ولما وصلت هذه المكاتيب الينا

---

(١) يدعوه ابا للرهبانية ويدعو نفسه تلميذه وولده ليسهل له طريق الرجوع اليها والى رئاستها العامة كما كان سابقا . وهذا منتهى التواضع والتجرد (٢) ١٧٠٨

سر خاطرنا وشكرنا الله . انما انا كنت انتظر خبر نذر القس جبريل وكنت خائفاً دائماً لعلمي انه يستصعب عمل النذر وهو كان سبب خروجه اولاً من عندنا »

وجاء في تاريخ فرحات :

«وفي سنة ١٧٠٩ أرسل القس جبريل مكتوباً في ٢٧ نيسان قائلاً: ان الاخوة وصلوا طيبين في ١٠ ك١ سنة ١٧٠٨ ونحن حافظون كل طقوس وعوائد الرهبنة فكأننا في دير مار اليشع . ومن جهة أوهامكم من صوبي — تلك التي ذكرتم لي عنها انكم خائفون لئلا يحصل بعض امور — فكونوا على ثقة ان نيتي صالحة لكم ولكل امر فيه نفعكم روحاً وجسداً . وهذا خط يدي يشهد علي انه ما عاد لي تصرف في دير مار بطرس ومرجلين بل تصرفه في يد الاخوة وأنا واحد منهم . لان سيدنا البابا عمر الدير حتى تسكن فيه رهباننا . ونحن مجتهدون لنرى وقتاً مناسباً نطلب فيه منه ان يمن علينا ببراءة في الدير ليكون باسم الرهبان اخوتنا اللبنانيين رهبان مار انطونيوس . واعملوا همة وارسلوا رهباناً ايضاً حتى يترتب الدير في أيام قدس هذا البابا . لان كل ما يرتبه يدوم »

« فلما رأت الرهبان مكتوبه هذا فمنهم من شك في قوله ومنهم من صدقه . واما الرئيس فكان معه على حال واحدة . وانما عمل معه رحمة وارسل له رهباناً الى رومية لئلا ينفضح فيها . واما القس جبريل حوى فاستقام مع الرهبان الذين وصلوا اليه ثمانية اشهر في صلح ومحبة يمشي معهم على القانون . وانفرد عن الناس بالكلية حتى تعجبوا منه معارفه لانه كان يدور رومية كل يوم . وكان اذا سئل لماذا انت متجنب هكذا يجيب : ان اخوتي الرهبان جاؤوا والتزمت ان احفظ قانون رهبنتي واتحد مع يسوع بالانفراد »

وفي اليوم الثامن من ت١ لهذه السنة بينما كان قداسة الحبر الاعظم

أكليمنضوض ١١ ماراً بالقرب من كنيسة الدير سمع اصوات تراتيل اذ كان الرهبان يتلون صلاتهم الفرضية في الخورس . فدخل الى الكنيسة . ولما رأوه اضطربوا وقصدوا ان يتركوا الصلاة فمنعهم وتقدم فأخذ عكاز الرئيس ومقامه وترأس الصلاة وأمرهم ان يواصلوها الى النهاية . فامتثلوا ولما انتهت وبارح الحبر الاعظم الدير رفعوا العكاز الذي اتكأ عليه وحفظوه في مكان خاص تذكاراً لهذا الحادث . وهو محفوظ الى الان . وكتبوا عليه بالسريانية والعربية والطليانية واللاتينية ما حرفيته « اتكأ على هذا العكاز قدس سيدنا البابا اقليموس الحادي عشر في اليوم الثامن من شهر تشرين الثاني سنة ١٧٠٨ » ويبلغ طول العكاز متراً وثلاثين سنتيمتراً واستدارته عشرة سنتيمترات . وطول المتكأ ٣٠ س وسمكه ١٢ س .(١)

فما أجل مغزى هذا العمل في اتحاد الكنيسة ورئاسة راعيها الاكبر على كل الملل . يتخشع الحبر الاعظم ونائب المسيح على الارض ورئيس ثلاثمائة مليون لصلاة رهبان غريبي الوطن والجنس واللغة . فيدخل معبدهم ويترأس فيهم صلاة بالسريانية ترتل بالحان غريبة قديمة . فيعلن انه واحد منهم في المذهب والمعتقد ورأسهم كما انه رأس كل فئة من ملايين الفئات التي تؤلف الكنيسة الجامعة المنتشرة فوق الكرة الارضية .

ولسوء الحظ ان هذا التضامن العجيب في العالم من جهتي المعتقد والنظام وهذه المظاهرة الصغيرة في مكانها العظيمة في مغزاها لم تحل دون انقسام الاغراض في فئة ضعيفة مؤلفة من ثلاثة افراد . واليك تفصيل ذلك .

قال القس عبد الله :

« وقبل ان تكمل السنة جاء الينا خبر ان القس جبريل افتتن مع الرهبان واختلفوا . فتذكر الاخوة المدبرون كلامي . ولما كان سنة ١٧١٠

---

(١) راجع مجموعة بليبل مج ١ ص ٧٤

وصل الينا القس يوسف شاهين راجعاً من رومية واعلمنا بكل ما صار لهم مع القس جبريل الحوى . وصح القول ان المذكور لا يريد ان ينذر . لانهم لما طالبوه بالنذر حسب وصيتي لهم أخذ يتعلل عللاً باردة واستبان فعله معنا انه كان قاصداً قصداً خبيثاً ، وهو قصده الاول ، أن يسحب الاخوة وان قدر الرهبنة كلها الى رايه ويكون رئيسها . لانه دخل الى سيدنا البابا واقنعه انه يلزم لديره رهبان واناس يعرفون اللاتينية فيأخذون بعض الوظائف ويكون معاش الدير من الوظائف التي بيدهم . ومن كلامه هذا صار البابا يقول « اريد اناساً منكم يعرفون اللاتينية » ولم يكن البابا مطلعاً على نية القس جبريل لهذا كان يتكلم في ما لا يعلمه . لان ليس في رهبنتنا احد يعرف اللاتينية ولا هذا غرضنا . انما القس جبريل أشهر هذا الكلام حتى اذا خرج الرهبان من رومية لا يقع اللوم عليه بل يسنده الى ان البابا لا يريدهم . ومرات كان يقول لهم « ان اردتم انا آتيكم بحلة من نذوراتكم وتكونوا تحت طاعتي لا تحت طاعة رئيسكم » وكلام كثير وخصومات عدة صارت بينهم يطول شرحها أعرضنا عن ذكرها . ونتيجتها واحدة . وهي ان القس جبريل اراد ان يختلس الرهبنة الى رأيه بالحيلة فما استطاع . لان القسيسين اللذين عنده ما أطاعاه . ولشدة القس يوسف شاهين عليه التزم القس جبريل ان يرسله الينا بعد ان عزم على حبسهما عنده ليصيرهما رهبانه رغماً . »

ونجد في تاريخ فرحات الخطي تفاصيل أخرى غريبة عن هذا الخلاف قال :

« ثم بعد انقضاء الاشهر المذكورة انقلب وتغير عن قصده الحميد وشرع يقول للرهبان انا أحصل لكم من سيدنا البابا على حلة من نذركم حتى تخرجوا من رهبنتكم وتكونوا معي . لان سيدنا البابا يريد اناساً يعرفون اللاتينية حتى ينفعوا . ولم يعرف أحد سبب تقلبه غير انه قد تحقق اخيراً من النتائج ومن قوله ان اموره كانت مخادعة حتى يحظى من هذه الرهبنة

بكم راهب ويسحبهم بصناعة الى هواه . وصبر معهم هذه المدة حتى يلين عريكتهم ويرتب اموره عند الناس . فلما رأى الاخوة مشتدين في قانونهم ومع رئيسهم وماله فيهم طمع التزم ان يبين حاله . فقالوا له لماذا ما قلت لنا هذا الكلام في ابتداء مجيئنا . اجابهم « لو قلت لكم لرجعتم وكنت انفضح » فيا لها من امور يضحك منها . وقد تمت فيه نبوءة الريس العام الذي قال له في مكتوبه « لا تعامل الرهبان بوجه تكون غايته الاختلاف والانشقاق وتخرجهم من ديرك مهججين مهتوكين او انك تلزمهم بتحريف قانونهم » لانه هكذا صار . فكم مرة هججهم لما لم يعملوا حسب مراده وغدوا حايرين كيف يعملون لانهم غرباء البلاد واللسان . والقس جبريل له معارف كثيرون يحمونه والرهبان غير معروفين . هو يتكلم وهم سكوت وليس لهم احد يلتجئون اليه وصاروا كأنهم في اسر البرابرة يطلبون منه خرجية حتى يرجعوا فما يعطيهم . مسك عليهم حسنة قداساتهم وأخذ منهم الخرجية التي كانت فضلت معهم من الطريق . وكان يثلبهم عند الرومانيين بانهم عديمو الذمة والعقل وتكلم في عرضهم النقص وجعل حاله رئيسهم غصباً واخفى مكتوب الرئيس الذي كان ذاكراً له فيه « ان دخلت في قانونا كن رئيساً على الرهبان » فاحتالوا عليه وأخذوا منه المكتوب ونقلوه الى الافرنجي واعرضوه على الكردينالية والمطارين والاكابر . فتحققوا انه ما هو من هذه الرهبنة . لكن لاجل الفتن التي صارت بينه وبين الرهبان نقصت قيمته وقيمتهم عند البابا وباقي الرومانيين . فبعد ان كانوا يكرمونهم اهملوهم . ولكن القس جبريل لمعرفته باللغة ولكثرة محبيه استقام على سلوكه عند الناس وخاصة انه كان يرضي الناس بقوله لهم ان سيدنا البابا يريد اناساً يعرفون اللاتينية حتى يأخذوا وظايف في رومية يكون مدخولها معاشاً لسكان الدير . فرضي البابا بذلك لتوفير العلافة وبدأ يقول « اريد اناساً يعرفون اللاتينية » واشتدت التجاريب

على الرهبان في رومية وهم من ضيقتهم ومن خداعه لهم واحتياله عليهم ضاع تدبيرهم . غير انهم كانوا متمسكين بطاعة رئيسهم كمراد الله ولاجلها احتملوا من المذكور اضطهاد الشهداء .

٦ — عودة الرهبان

قال القس عبدالله في مفكرته :

« اما القس يوسف البتن فما امكنه الوصول الينا غير انه أرسل الينا يطلب الخلاص . فلما فهمنا نحن الاخبار من القس يوسف شاهين حصلنا في الحيرة والندم على ارسالنا الراهبين وصرنا نفكر كيف نخلص القس يوسف البتن . وترجح عند الاخوة المدبرين ان نرسل البعض من الاخوة لكي يتلافوا الامر بجهة من الجهات . اما ان يتفقوا مع القس جبرايل الحوى او يفتحوا ديراً في رومية أو يخلصوا أخاهم القس يوسف البتن ويرجعوا الينا . وفي هذه السنة ظهرت الاخبار عن البطريرك يعقوب (١) وبعد احوال وأهوال جرت التزم البطريرك بالمسير الى كسروان فأخذني معه . ولما وصلنا الى كسروان فارقته وذهبت الى دير اللويزة ومنه رجعت الى الجبة الى دير مار انطونيوس قزحيا هرباً من كثرة السجس . . واجتمعت بالاخوة وتذاكرنا بامور رومية واعتمد رأينا على ارسال ثلاثة اخوة الى رومية لاجل غرضنا السابق . فأرسلت القس جبريل فرحات رئيس دير مار اليشع النبي ومعه القس يوسف شاهين الذي جاء من رومية والشماس بولس يونان وكان اصله من طائفة الروم وصار مارونياً »

وقد اصحبهم القس عبدالله بعريضة رفعها الى الحبر الاعظم سرد فيها واقعة الحال بكل سذاجة وانه اضطر الى ارسال رهبانه الى رومية للمرة الثانية اطاعة لرغبة قداسته . واليك نص هذه العريضة (٢)

---

(١) هو الذي حطه الاساقفة عن وظيفته واقاموا بدلا منه المطران يوسف مبارك الريفوفي وسنفرد لهذه الحادثة فصلا خاصا لعلاقة صاحب الترجمة بها

(٢) نقلها القس طوبيا العنيسي عن اصلها المحفوظ في دير الرهبان الحلبيين برومية وتكرم علينا بها

«اقبل الارض لدى اقدام الاب الاعظم ، الحبر المقدس مار اقليمس البابا المحترم دام شانه . وبعد فالمعروض على قدسكم هو ان القس جبريل الحوى الراهب طلب مني سابقاً جملة رهبان من اخوني اللبنانيين ليسكنوا ديركم مار بطرس ومرشلين ويسيروا فيه كسيرهم في بلاد الشرق على ان ذلك مراد قدسكم وتمام ارادتكم . ولما كرر الطلب بذلك وتحقق عندي ان هذه هي نيتكم الصالحة فبادرت انا الحقير في الطاعة لمرسومكم الشريف وارسلت ايانا القس يوسف بستن والقس يوسف شاهين الى الدير المذكور لمساكنة القس جبريل . فصار انهم بعد ما استقاموا عنده زمانا وجدوه خلاف الامل وذلك ان سيرته هي خلاف سيرتنا ومقصوده غير مقصودنا ولهذا ما امكنهم مساكنته . ثم عاد القس يوسف شاهين راجعاً الى الشرق الى جبل لبنان واخبرني بالواقع ثم اعلمني ايضا بان قدسكم لا ترغبون في رجوع الرهبان الى الشرق بل أن يبقوا في رومية . ولذلك حصلت انا عبدكم في الحيرة أولاً لان طاعتكم لازمة وثانياً لان مساكنة اخوتي مع القس جبرايل مستصعبة جداً بسبب اختلاف السيرة ولهذا ما امكني ان اقول او افعل شيا فيه . اني أرجعت اليكم القس يوسف ومعه ابانا القس جبرايل فرحات الاكبر في اخوني ليقبلوا اقدامكم المقدسة ويعرضوا على قدسكم الحال الواقع ويسمعوا منكم الغرض الذي قصدوه في امرنا بما اننا ملتزمون في السعي نحو غرضكم ولم نزل مستعدين لخدمة قدسكم في كل امر خاصة في الامور الممكنة لنا من وجه اللغة السريانية والعربية والتليانية . ثم ان اردتم ان نباشر اللغة اللاتينية فممكن ذلك ان سمحتم قدسكم لاحد تلاميذ مدرسة الموارنة ان يدخل معنا والا فارسموا بما ترونه وتقصدونه لنا لاننا منتظرون امركم ومراقبون اشارتكم ودمتم ودامت رياستكم . ثم اقبل الارض لدى اقدامكم »

حرر في جبل لبنان في تشرين الاول سنة ١٧١٠ عبدكم عبدالله اللبناني

خادم الرهبان اللبنانيين

واليك ما جاء في مذكرات القس عبدالله بخصوص هذه القضية :

« وفي سنة ١٧١١ وصل القس جبريل فرحات ورفقته الى رومية بالسلامة واجتمعوا بالقس جبريل الحوى والقس يوسف البتن وسمعوا كلامهما فظهر لهم غش وغدر القس جبريل الحوى بالرهبان . ولذلك اعتمدوا على ترك القس جبريل الحوى وديره بالتمام وعزموا على فتح دير جديد في رومية ان امكنهم ذلك . فاطمأن خاطر القس جبريل الحوى في ذلك لانه كان يخاف من مخاصمتهم . وكان لا يريد ان يفتحوا ديراً غير ديره . الا انه بقي ما بين يدافع الرهبان ويلاطفهم يوماً فيوماً الى ان دعي من الحبر الاعظم ليمضي الى جبل لبنان (١) . . فسلم حينئذ الحوى رياسة الدير الى القس جبريل فرحات على ان ينتظره الى ان يرجع من الشرق وبعد رجوعه يعملوا الاتفاق بوجه من الوجوه . وبعد سفره اراد الرهبان افتتاح دير آخر كما سبق القول ولما لم يمكنهم ذلك لاسباب حدثت من اناس ضدهم صار القس جبريل فرحات في ضجر واوهام كثيرة من رومية من قبل اعداء الرهبنة . فسلم الدير بيد الخوري ابرهيم الغزيري رئيس دير مار يوحنا رشميا سابقاً . هذا كان القس جبريل الحوى ارسل طلبه لعنده بسبب معرفته لغة اللاتين وكان يبغض رهبنتنا وكان قدم الى رومية لاجل قضاء امور البطريرك يوسف . وبعد ان سلمه القس جبريل فرحات الدير أخذ المذكور رهبانه والقس يوسف البتن وسار قاصداً الى جبل لبنان وترك بلاد الغرب وراء ظهره . وقبل وصولهم الينا عقدنا المجمع العام لتغيير الرؤساء فانتخبوني رئيساً عاماً مرة خامسة في عشرة ايام من تشرين الثاني . وفي افتتاح سنة ١٧١٢

---

(١) مترجما للقاصد الذي اوفده الحبر الاعظم لفحص قضية البطريرك يعقوب عواد

وصل الينا القس جبريل فرحات ورفقته واخبرونا بجميع ما عرض لهم مفصلاً . فقلنا الحمد لله على خلاصنا من القس جبريل الحوى . وهجرنا فكر رومية من عقلنا وقنعنا ببلادنا »

اما جبريل فرحات الذي اكتوى بنار هذه الحادثة فقد سرد لنا في تاريخه الخطي تفاصيل جديرة بالنشر تنبيء مرة اخرى بصواب نظرية القس عبدالله الذي رأى الاستغناء موقتاً عن مركز لرهبانه في رومية الى ان تسمح الظروف . فخالفه المدبرون فنزل هذه المرة عند رأيهم كي لا يعد مستبداً بالسلطة . وقد سرد فرحات حكاية ما جرى قال :

وفي هذه السنة (١) جاء القس يوسف شاهين من رومية واراد الرئيس العام ان يرسل يأتي بالقس يوسف بتن ويترك دعوة روميه بالكلية فما مكنه المدبرون من ذلك بل الزموه بالمحبة أن يرسل رهبانا آخرين ومعهم القس يوسف شاهين الى رومية ليبصروا لهم هناك ديراً اخر يعيشون فيه من تعبهم . فأرسلوا حينئذٍ القس جبرايل فرحات رئيس دير مار اليشع ومعه القس يوسف وشماس آخر بولس حلبي اصله من الروم . ووكلوا في دير مار اليشع موضع رئيسه القس توما البودي (٢) رجلاً عاقلا مهذباً حسن التدبير مجاهداً في الفضيلة (٣) حلبي الاصل . »

« واما جبريل حوى فانه ملك الدير وعلاقته وأرسل الى الشرق يطلب الخوري ابرهيم الغزيري المقدم ذكره حتى يسلمه الدير لانه يعرف اللاتيني لكونه تعلم في مدرسة رومية »

---

(١) ١٧١٠

(٢) الذي صار رئيسا عاما في سنة ١٧٣٥

(٣) لقد اخطأ من نسب هذا القسم من تاريخ الرهبانية الحطي الى القس توما البودي اذ لو كان كاتبه لما اجاز لنفسه هذا المديح

« وفي سنة ١٧١١ وصل القس جبريل الى رومية في ١٧ من ك ٢ ورفقته معه طيبين . واجتمع بالقس يوسف البتن واستخبره عن الامور السالفة كلها وعرف منه اشياء أمرّ من التي سمع بها . فنزل مع رفقته في دير مار بطرس ومرجلين واجتمع بالقس جبريل حوى فعاتبه على ما جرى . ثم قال له اننا عدينا لك عن الدير وما فيه انما جئنا حتى نبصر لنا ديراً غيره نسكنه فأطمأن خاطره . ثم انهم واجهوا سيدنا البابا وقبلوا اقدامه واعطوه مكاتيب من ريسهم العام يخبره بالقصة مختصراً . فقال لهم أمضوا اقعدوا في الدير لكن انا اريد اناساً يعرفون باللاتيني » حسبما تلقن من القس جبريل ولكن لما كان هذا البابا في ذاك العهد لا يتعاطى بتدبير شيء ما اصلا ولا له تصرف في شيء بل مرجع الامور كلها كان الى المجمع فما امكن ان يفضهم على حال وخاصة ان بعض اناس من حزب القس جبريل حوى كانوا يشنعون في حق هذه الرهبنة المقدسة . وكان الشيطان يحركهم حتى كانوا يثلبونها عند الكردنالية والاكابر . وكنت اذكر اسماءهم لكن اعرضت عن ذلك لئلا نضعهم عثرة للضعفاء ولكونهم تركوا الله وراء ظهرهم وتعصبوا على مقاومة هذه الرهبنة واضطهادها . فلا تعجبوا من ذلك لان امور الله من عادتها ان تكون مبغوضة من الشيطان وتلاميذه . وكل رهبنة قامت في بيعة الله ما خلت من المعاندين والمضطهدين . ولا بد من الشكوك لكن الويل لمن تأتي الشكوك على يده »

« واما الرهبان فانهم سكنوا الدير وسكتوا الى ان يروا لهم وقتاً مناسباً يفتشون فيه على دير . لانهم خائفون من القس جبريل حوى لئلا يعطل عليهم »

وهنا يخبر كيف ان القس جبريل حوى سافر الى لبنان ترجماناً يمشي قدام رئيس رهبان مار فرنسيس لانه ابن للغة والبلاد والطائفة » فوكل القس فرحات في الدير .

« وبعد خروجه من رومية وصل الخوري ابرهيم المذكور الى رومية قاصداً من قبل البطريرك الجديد لاجل التثبيت ولان القس جبريل حوى ارسل وراءه حتي يسلمه الدير عوضاً عن اخوته الذي بدأ بينهم وكان منهم وارسل أتى بهم . وبمقدار ما كان في ابتداء الرهبنة حريصاً على نشؤ هذه الرهبنة ونموها فاكثر من ذلك صار اخيراً حريصاً على تبديدها واضمحلالها . ولكن رأي الله خلاف رأي البشر لانه ما زال ينميها يوماً فيوماً . وهي كانت تنمو واعداؤها كانوا ينقصون . ثم جاء ايضاً الى رومية المطران جرجس بنيمين مطران اهدن من قبل طائفته حتى يخبر سيدنا البابا بالامور الغريبة التي حدثت عندهم (١) ومعه مكاتيب وشهادات في الامور التي جرت . ومعه ايضاً القس ميخائيل القبرصي المطوشي الماروني وكان رافقه من مالطه . وكلهم نزلوا في الدير عند الرهبان . فصار الدير منزول طائفة الموارنة . فسلم حينئذ القس جبريل فرحات الدير وعلاقته الى الخوري ابرهيم حسب مشيئة القس جبريل حوى ولو لم يفعل ذلك لكان حدث شرور عظيمة »

« وفي هذه السنة وقفت على رسالة ارسلها من مدينة روميه القس يوسف شمعون الحصروني (٢) سنة ١٧١٠ يذكر له فيها من جهة دعوة الرهبان اللبنانيين مع القس حوى في رومية فيخبره هكذا : انه حدث انشقاق ما بين الرهبان والقس جبريل حوى من جهة تسليم الدير وسلوكهم حسب شروط رئيسهم التي معهم وارادوا ان يرجعوا الى الشرق فمنعتهم حتى لا يخرج الدير من طائفتنا ووعدتهم بأني امشي قدامهم وافهم سيدنا البابا قضيتهم حتى يسلمهم الدير . وقد افهمت سيدنا البابا امورهم ودعوتهم فلما فهمها آمر ان يطيبوا خاطرهم وقال ان الدير ما ابتناه لا لجماعتهم وما ارسل أتى بهم الا حتى

---

(١) في قضية تنزيل البطريرك يعقوب عواد

(٢) هو السيد يوسف السمعاني الشهير

يسلمهم الدير . ولوقته أوصى اخاه حتى يشتري لهم البستان القريب من الدير وبدأ يراسلهم بالهدايا لحسن سيرتهم . وقال ايضاً ان واحداً من الحواشي اخبره ان البابا يريد ان القس جبريل حوى يدخل في قانون الرهبان اللبنانيين . ثم اخبر البطريرك ايضاً في رسالة هذه نصها : ان شاءالله عن قريب يصير كل شيء على خاطرهم فالمأمول من قدسكم توصوا القس جبريل حوى حتى يدخل معهم او يتنزل عن الدير . وقولوا للقس عبدالله رئيس الرهبان اللبنانيين ان لا يظن بان سيدنا يشغل الرهبان في مدرسة الحكمة او في مكتبة مار بطرس لانه ما يريدهم يطلعوا من الدير ويدوروا في السوق اصلاً لان البابا اقام لهم خادماً علمانياً يتسوق لهم حوايجهم لئلا يخرجوا من ديرهم مثل الرهبان الكرتوسيان »

« وانا اعجب من صاحب هذه الرسالة كيف انحرف عن الحق بعد ان عرفه وشرع فوق ذلك يحاربه . فلو رأيت الان فعله بعد رسالته هذه لظننته انه شخصان متضادان » (١)

« وفي هذه السنة وجد لهم الرهبان اللبنانيون الذين كانوا في دير رومية ديراً خارج رومية بعيداً عنها نحو سبع ساعات قرب مدينة صغيرة اسمها تيفولي على اسم العذراء لقبه دير رونشي مكان جرد مخصب وله ماء وارض للفلاحة . ولما ارادوا ان يسكنوه منعهم مجمع الكردينالية بحجة انهم غريبوا اللغة والبلاد والرتبة . ولهذا التزموا ان يرجعوا الى بلادهم فرجعوا وتركوا رومية وراءهم »

---

(١) لعل تغير السمعاني على الرهبان كان لعدم انحيازهم الى حزب البطريرك يعقوب عواد الذي كان السمعاني في رومية اكبر مدافع عنه وحوى من معضديه كما سنبين ذلك . وكلمة الان » الواردة هنا تدل على ان فرحات كتب هذه الاسطر قبل سنة ١٧٢٣ التي اعاد فيها المجمع دير رومية الى الرهبانية وكان السمعاني اقوى مساعد لهم في استرداده كما سيأتي شرحه في حينه . وهذا مما يؤيد قولنا ان فرحات وصل بتاريخ الرهبانية الى سنة ١٧٢٤

« وفي سنة ١٧١٢ رجع الرهبان اللبنانيون ووصلوا الى بلاد الشرق الى جبل لبنان وما عاد لهم التفات الى ان يسكنوا بلاد الغرب ورأوا بلادهم اوسع لهم »

وقد عاد هذا الدير الى الرهبانية بعد اثنتي عشرة سنة كما سيأتي تفصيله . واليك ما قاله فرحات شعراً في هجو حواء

بمرجلين صادفنا فعالاً ... تذكرنا فعال المفترينا
بانسان ارانا الخير لفظا ... بلا معنى فخلناه معينا
دعانا اولا حتى حضرنا ... فكان من الرجال الناكثينا
وكان سحابه فينا جهاماً ... وخلب برقه وعداً لدينا
فلا تعجب لشخص قد تكنى ... بمعنى اسم ام العالمينا (١)
فان السيف من معناه يكنى ... بشر حيث كان به كمينا
بنى ما قد بناه على دمانا ... دم الشهداء اضحى وهو فينا
فان يثبت كذا يشهد عليه ... وان يسقط جزاء الظالمينا

الفصل العاشر

نمو الرهبانية الاقتصادية

١ - تنظيم العمل

الاقتصاد عماد كل دولة . ولما كانت الرهبانية اللبنانية نشأت كدولة قائمة بنفسها ، لها شرائعها وادارتها واعضاؤها ، تحتم عليها لضمان حياتها ، ان ترتكز على هذا الاساس المتين ، فتسد حاجاتها من منتوجات اراضيها وأيدي ابنائها وتقتصد في نفقاتها ، فتستغني عن الخارج بقدر الامكان والغنى هو الاستغناء .

هذا ما فكر به واقدم عليه مؤسسها . فهو بعد ان اتم وضع نظامها

---

(١) حواء

الروحي وتحكيم اجزائه . و ث في رهبانيته بمثله وكلامه روح التعبد واماتة النفس مع فضيلتي الطاعة والتجرد ، وضمن لها المسكن والاراضي والايدي العاملة ، صرف همه الى تنظيم العمل . والعمل اليدوي كان وما زال ميزة الرهبان في لبنان من اول ظهورهم حتى لان ، فان اهملوه وقعوا في عجز الموارد وصد التجارب . لان الشغل عدو البطالة والبطر ، وهو يشغل الراهب عن العالم ويروض جسمه لمقاومة هواجسه ، فضلا عما يوفر عليه من المال ومن اثقال الاجراء ونفقاتهم

وليس على وجه البسيطة من قوة ادبية اعظم من هيئة منظمة دستورية ، يتطوع جميع افرادها للعمل في سبيل المصلحة العامة باخلاص ونشاط وتجرد تحت ادارة واحدة تستمد سلطتها منهم ، وتكون مسؤولة لديهم ويكونوا مسؤولين لديها . فكل عمل تقوم به هذه الهيئة لا شك ناجح ، لان الاخلاص والنشاط يضمنان النجاح ، والتجرد يضمن الوفر . واذا جاء النظام فوزع المال الناتج من هذا العمل باقتصاد وحكمة وعزز بما يفيض منه المشروعات الحديثة اصبحت الهيئة في يسر وتقدم مستمر .

لما تسلم القس عبدالله تدبير الرهبانية الفتية لم تكن مجهزة بسوى دير واحد ، مار اليشع في اسفل بشري ، وحوله قليل من الارض المهملة . وما لبث هذا الدير ان غص بالرهبان .

ولكن العناية الالهية ، التي القى عليها اتكاله ، دبرت له بعد قليل دير مرت مورا في اهدن على اثر سفر حوا ، وعادت اليه مدرسة زغرتا على اثر عودة فرحات . ثم سهلت له تملك دير مار يوحنا رشميا ودير مار انطونيوس سير في المتن ، وبعدهما دير اللويزه في ساحل كسروان ودير قزحيا في الشمال . واستمرت الزياده في الديورة مطردة فكان للرهبانية دير رومية فدير السنديانة بعكار فدير مار بطرس كريم التين في بيت شباب فدير ماميش في القاطع . وهكذا تسنى له بمدة رئاسته على الرهبانية التي

لم تبلغ سبع عشرة سنة ، ان يكتسب لها ثلاثة عشر ديراً جعلها كاوكار نحل وزع عليها رهبانه ليجنوا من الاراضي التي حولها ما يكفيهم لمعاشهم .

ولم تدخل هذه الديورة في ملك الرهبانية بطريق الانشاء والشراء بل بطريق الهبة . وقد ربحها بسعيه وقداسته . فسعيه في تهذيب الاحداث والحاق المدارس المجانية بكل دير من ديورته وجهوده في احياء موات ارزاقها ، حمل القرى على اهدائها اليه طمعاً في تحسين اوقافها وتعليم اولادهم . فضلا عن ان عطر القداسة الذي فاح منه في رهبانيته وجمال النظام الذي سنه لها كان جاذباً قوياً لكل نفس راغبة في العبادة والعزلة والعيشة المشتركة مع هواة هذه العيشة . ومن هؤلاء كان بعض اصحاب الديورة فانضموا الى الرهبانية وضموا اليها ديورتهم كالاويزه وصير وقزحيا . وقد مر بك كل ذلك تأييداً لما نقول . قال البودي في سيرة صاحب الترجمة « وامتلأت الديورة رهباناً حتى حكم المدبرون على رئيسهم في ثلاث مجامع بان يمتنع عن قبول المبتدئين او يقتصر على خمسة منهم فقط يكون من وراثهم نفع بليغ للرهبانية روحاني ام جسداني » (١) . وما حمل المدبرين على الخوف والجزع ان الديورة التي كان رئيسهم يأخذها على عهدته كانت خراباً وارزاقها يباباً فكيف تعول الجيش المتكاثر من الرهبان . ولكن همة القس عبدالله كانت فوق كل همة ونظره فوق كل نظر . لا غرو انه تسلم هذه الديورة فقيرة متداعية فكان عليه ترميمها وتوسيعها وتأثيثها وتخصيص ريع يقوم باود رهبانها ولكنه كان يشعر باصبع الرب في الرهبانية الحديثة فيزداد ثقة بعنايته ويشعر بقوة على تحويل هذه القفار الى جنائن وهذا الفقر الى ثروة . فقد كان يعد كل دير يضمه مكاناً جديداً للاستعمار ، واوقافه ثروة جديدة للاستثمار ، والمبتدىء نفساً جديدة مضمونة لله وخدمته ، ويداً عاملة تزيد في منفعة رهبانيته .

---

(١) المشرق ١٠ : ٦٣٥

ومن اطلع على المبالغ الطائلة التي انفقها على تحسين هذه الديورة واصلاح اراضيها وقف مندهشاً أمام مقدرة هذا الرئيس الهمام الحكيم متسائلاً عن المورد الغزير الذي كان يغترف منه . فقد بلغ ما انفقه على اصلاح سبعة من هذه الديورة اربعة وثمانين الفاً وتسعة وعشرين غرشاً (١) والغرش في ذاك الوقت كان معادلاً لخمسين غرشاً ذهباً من عملتنا الحاضرة (٢) والسر في ذلك كان العمل بانتظام . وليس عليك الا ان تطالع ما قاله في هذا الخصوص في كتابه « المصباح الرهباني في شرح القانون اللبناني » (٣) لتعرف ضميره وخطته السديدة فانك تقرأ فيه

« عمل اليد الرهباني يجب ان يكون بقدر القوة لا ازيد ولا انقص . لان الله سيطالب كلاً منا عن عمل أيدينا بمقدار القوة التي اعطاناها . وسيطالبنا بجسمنا الذي خلقه الله سالماً ان عملنا فوق طاقتنا فجعلناه آلة لا تنفع منها عاجزة عن العمل . . . فيجب على الراهب الصحيح الجسم ان يلازم العمل روحياً كان ام جسدياً . لئلا ينغلب للبطالة وليفلت من شرها والرذائل المتولدة منها . لان البطالة آفة كافة الاعمال الشريرة . والراهب العامل يقاتل شيطاناً واحداً اما البطال فعليه ان يقاتل شياطين كثيرة . وقد حتم القديس بولس على البطال بالنفي والطرد من الجماعة . . . ولو يكن العمل غير مفيد للاخوة فيخطىء صاحبه ضد الفقر وضد المحبة . . . ولا يأتي الراهب

---

(١) سجل اللويزه المخطوط ص ١١

(٢) راجع بليبل ج ١ صفحة ٤٢٠ حيث تجد قائمة باسعار الحاجيات في ذاك العهد وصفحة ٩٠ حيث بيان نفقة ترميم مطحنة نهر ابي علي بقرب كفرحورا في زاوية طرابلس

(٣) الفصل الحادي عشر في عمل اليد

عملاً الا ما يقلده رئيسه لئلا يصبح عمله خطيئة ضد القانون »
هذه هي القواعد الذهبية التي وضعها لرهبانه وطبقها بنفسه فكانت سبب نجاحهم الاقتصادي اي العمل المنتظم والمعتدل المستمر. وقد قسم رهبانه في العمل الى ثلاث فئات كلاً حسب استعداده ومقدرته. فاهل العلم خصصهم للادارة وتعليم الرهبان والاحداث فضلاً عن الرسالة والتبشير. وأهل المدن للصنائع اليدوية التي حذقوها او تدربوا عليها قبل دخولهم الرهبانية. وولج فلاحي الجبل اعمال الزراعة. وقد تكلمنا عن التعليم والارشاد وسنقول كلمة في اعمال الرسالة. فنقتصر الان في الكلام عن الادارة المالية والزراعية والصناعية.

— ٢. الادارة المالية

كان الرئيس عبدالله اذا دعي لتسلم دير جديد فاوض اصحابه واستكتبهم صكوكاً تضمن للرهبانية حرية التصرف بالدير واستثمار ارزاقه. وقد كانت هذه الصكوك احسن مثال لما كتب في ذاك العهد لتضلع صاحبها من الشرع المدني كما سنبينه في فصل خاص. ثم عمد الى ترميم ذاك الدير وتوسيعه وتأثيثه وعين له الرئيس اللائق والوكيل والرهبان واشرف بنفسه قدر ما كانت تسمح له وظيفته على سير النظام الروحي والادبي واليدوي فيه الى ان يثبت من تدرب سكانه الجدد على القيام بواجباتهم ووظائفهم كل حسب مكنته واختصاصه.

وقد رأى رغبة في زيادة التوفير والنظام ان يوحد حسابات الرهبانية ويولي عليها وكيلاً تحت اشرافه سماه الاقنوم العام يتسلم دخل الديورة فيودعه خزانة الرهبانية العامة ويقدم لها حاجاتها ويدون كل ذلك في سجل عام يفرد فيه باباً خاصاً لكل دير. وكان لهذا الاقنوم وكلاء في المدن يقيمون في بيوت خاصة بالرهبانية سموها الاناطيش ليبتاعوا مؤن الديورة ولوازم رهبانها بالجملة وفي الفرص الملائمة ومن عملاء تزيهين مقتدرين. ولا يخفى

ما في هذا الترتيب من اقتصاد، للفرق بين اسعار الجملة والمفرق والشراء في ساعة الحاجة ومن تجار مجهولين. فضلاً عن تخفيف الاثقال والاسفار عن رئيس الدير اذا نزل المدن ومنع تسرب التراخي والفوضى بين رهبانه اذا غاب عنهم. واذا اضطر احدهم او احد رهبانهم الى المرور بالمدن أوى الى الانطوش بدلاً من الفنادق او بيوت العامة، مما لا يليق بالراهب ويعرضه للخسارة المادية والروحية (١)

ووقع اختياره للقيام بوظيفة الاقنوم العام على تلميذه الحبيب القس توما البودي. قال عنه فرحات في تاريخه المخطوط « كان واسع العقل حسن الفطنة والمعاشرة وقد جاء عند حسن ظن رئيسه به فبرهن عن مقدرته المالية والادارية وقدم للرهبانية خدمات كبيرة كما تشهد له سجلاتها فأقامته في سنة ١٧٣٠ رئيساً عاماً عليها.

وكان مؤسس الرهبانية شديد التمسك بمبادىء الاقتصاد وقد جعله من واجبات نذر الفقر وثمرة اماتة الجسد التي توصلهم الى طريق الكمال. فراقب تطبيق هذه المبادىء مراقبة شديدة حتى اصبح الوفر في نفقات الرهبانية مورداً ثانياً لها. وكان مثالاً حياً لما ينصح به كما تشهد حكاية الارز الذي طبخه له الرهبان بالسمن لما حل مريضاً في دير قزحيا وقوله المأثور « بالكم من هذا المبدأ لئلا يخرب الدير » (٢)

وقد برهن على مقدرة فائقة في الادارة المالية. رأيت انه لما تسلم دير قزحيا لم يجسر احد الرهبان على تولي ادارته لارتباك حالته المالية وثقل الضرائب المقيد بها. ناهيك عما كان يلحقه سنوياً من مظالم الحكام. فاضطر الرئيس

---

(١) راجع بليبل ج ١ صفحة ٤١٠
(٢) المشرق ١٠ : ٦٣٣

عبدالله ان يتولى رياسته بنفسه فضلاً عن الرياسة العامة . وقد اوصله بمدة وجيزة الى حالة يسر تمكن بها من اعاشة اربعين راهباً فيه ما عدا الاجراء والمساكين والايتام ، كما مرّ بك في حكاية البطوش .

ولكي يحول في جهاد رهبانه الاقتصادي دون وقوعهم في رذيلتي البخل والانانية والطموح الى عيش اليسر والرفاهية اوجب عليهم ان يشركوا الفقير واليتيم والشارد والعاطل في ما يوفروه من عملهم وتقتيرهم . فعين في اغلب الديورة منازل منفصلة عنها يدخل اليها بابواب خارجية تعرف بالمنازيل « يأوي اليها ، فضلاً عن الضيوف ، اصحاب العاهات والفقراء دون تمييز في الجنس والمذهب وبصورة مستديمة . وكان يكلف رهبانه خدمتهم كما لا تزال العادة جارية في دير قزحيا . وقد حتم ايضاً على كل دير العناية بتربية ثلاثة ام اربعة ايتام فيطعمهم ويكسوهم ويهذبهم لوجه الله الكريم (١)

وحكاية البطوش التي مرت بك عن لسان تلميذه توما البودي (٢) تشهد ان هذا الرئيس كان بخيلاً على نفسه ورهبانه كريماً على اخوة المسيح . فلم يكن يكتفي باعالتهم في وقت الرخاء ، وقد كان الرخاء في لبنان اندر من الكبريت الاحمر ، بل يزيد تمسكاً بهم في ايام الضيق والمحن ، وما كان اكثرها في ذاك العصر . فانما فكر رهبانه في احدى سني المجاعة ان يصرفوا الفقراء والبطوش الذي كانوا عالة على الدير ، مانعهم بقوله « ان صرفناهم ماتوا جوعاً والرب قادر على ان يقيتنا ويقيتهم » فخجلوا وامتثلوا . ولما كان شتاء تلك السنة قارساً حملهم على ان يبتاعوا لهم الكسوة اللازمة ليستحقوا بركة السيد القائل « كنت جائعاً فاطعمتموني وعرياناً فكسوتموني . وكلما فعلتم باخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه (٣)

---

(١) بليبل ج ١ ص ٤١٦ و ٤١٧

(٢) المشرق ١٠ : ٦٩٨ و ٦٩٩

(٣) متى ٢٥ : ٣٥ — ٤٠

٣ — احسان الحلبيين

ومن الموارد التي فكر بها القس عبدالله لسد العجز في ميزانية الرهبانية والقيام بمشروعاتها الجديدة جمع الاحسان بواسطة رهبانه . واول من وضع امله فيهم مواطنوه الحلبيون لعلاقات القرابة والوطنية بينهم وبين رهبانه ، وقد كان الحلبيون نواتهم . فلقوا في مدينتهم قلوباً مفتوحة وايادي مبسوطة .

وهو اول من قصد اليهم واستدر كرمهم في سنه ١٦٩٩ كما قلنا . وكلف بعده هذه المهمة رفيقه وصديقه القس جبرايل فرحات لما كان له لدى مواطنيه من الخدمات الروحية والادبية التي أكسبته في نفوسهم مكانة كبيرة وفي قلوبهم محبة خاصة . وقد رحل اليهم اربع مرات في مدة ترهبه (١)

ولا بدلنا هنا من الاشارة الى ما قدمه الحلبيون للرهبانية الحديثة من المساعدات المالية وما جمعه رهبانهم لها من الحسنات في الشرق والغرب .

ذكر فرحات بين حوادث سنة ١٧١٤ ما يلي :

« وفي هذه السنة حرك الله قلب رجل مسيحي ماروني خائف الله غيور وألهمه الاحسان الى هذه الرهبنة . واسم الرجل يوسف ابن الزكره . فانه جعل لهذه الرهبنة عادة في حلب وهي ان يلم لها احسان من موارنة حلب في كل سنة يوم عيد الجسد نحو مئة قرش او اكثر قليلا . وصارت الرهبنة تقدم عن المحسنين المساعدين بهذا الخير صلوات وقداسات للاحياء والاموات منهم » ولا يبعد ان يكون فرحات صاحب هذا الاقتراح

---

(١) جاء في ترجمة فرحات المنشورة في المشرق (٧ : ١٠٧) للمأسوف على علمه الخوري جرجس منش انه رحل الى حلب ثلاث مرات والصحيح اربع كما سنبينه في كلامنا عن انتخاب فرحات رئيسا عاما

وظل الرهبان بعد هذه السنة يترددون بدون انقطاع الى الشهباء للارشاد وطلب المساعدة من ذويهم ومحبيهم. وكان لهم فيها انطوش ينزلون فيه باقٍ حتى اليوم. ويستدل من صك توكيل وجدناه بين اوراق دير اللويزه كتبه في ١٨ ت ١ سنة ١٨٣١ الاب جناديوس الزوقي الرئيس العام على الرهبانية الحلبية في تلك السنة وبعث به الى الاب غسطين شراباتي الحلبي انه كان للرهبان الحلبيين في ذاك الوقت « بعض محلات » في حلب. وتجد ايضًا بين اوراق دير اللويزه ثلاث حجج وقفيات بخط المطران عبدالله قرألي، منها حجة مورخة في سنة ١١٤٣ هـ (١). وقف بها المطران جرمانوس فرحات على الرهبانية الحوش (٢) الخاص باسرته بحارة الصليبيه بوكالة انطون زكره. وحجتان اخريان حاملتان لتاريخ سنتي ١٧٣٥ و ١٧٣٨ يتضح منهما « ان هيلانه الحلبيه بنت المرحوم المقدسي المرحوم ميخائيل فرحات » وقفت جميع ما تملكه من مال وعقار على الرهبان الحلبيين بسعي المطران عبد الله.

وقد عثرت ايضًا بين اوراق هذا الدير على شهادة اعطيت للرهبان الحلبيين في ٢٧ ت ٢ سنة ١٧٤٥، عقيب الخلاف الذي نشب بينهم وبين البلديين بعد وفاة مؤسس الرهبانية، مضمونه باختام وتواقيع اعيان الطائفة في حلب من ضمنهم، المقدسي بولس ميخائيل قمره علي، وابنه ؟ ميخائيل، يعلنون فيها « ان جميع الصدقات الموروده من الطائفة المارونية في مدينة حلب الى الديورة الكائنة في جبل لبنان سواء ارسلت سابقًا او ترسل لاحقًا هي لمعاش اولادنا الرهبان الحلبيين الموجودين هناك لانهم اولادنا واخوتنا واقرباؤنا وانسباؤنا. فما دخل ويدخل ديورتهم من مدينة حلب من نذور

---

(١) ١٧٣٠ قبل وفاته بسنتين

(٢) الدار

وحوايج مثل بدل وصلبان وقماش ومحارم ودراهم ولم صواني سنوية مختصة بعيد القديس انطونيوس ام بغيره هو لهم ولا لاحد سواهم »

وجاء في سجل دير اللويزه الآنف الذكر (١) « ان الاثاث الموجود في الاديرة (٢) من نحاس وقصدير ورصاص وحديد وساعات كبار وبسط وسجادات ولحف وفرش وغيره مع بيوت كاملة وأثاثها هو بكماله من حلب الى الرهبنة ويوازي تقريباً خمسين الف قرش . وثمن بدلات وغفارات واحقاق للقربان الاقدس يوازي مبلغ خمسة وعشرين الفا تقريباً »

وبعد وفاة المطران عبدالله ساءت احوال الرهبانية المالية وتراكمت عليها الديون . ومما زاد في محنتها اقفال ابواب حلب في وجوه رهبانها لقلة افراز بعضهم وافراطهم في الغيرة المسيحية كما يستدل من عريضة رفعها الحلبيون في ١٢ حزيران سنة ١٨٤٨ الى البطريرك سمعان عواد (٣) تقرأ في مقدمتها « لما جاء الرهبان الى حلب في اول مرة واستقاموا عندنا مدة غير قليلة مقدار سبعة اشهر صار لهم اكرام وجبر خاطر ليس بقليل وقد عاملناهم بكل بشاشة ومحبة واسعفناهم بحسب الامكان امتثالاً لامركم وتوصيتكم فيهم » وقبل هذا التاريخ وبعده حول الرهبان الحلبيو الاصل وجوههم الى الغرب وتسلحوا بشهادات وتوصيات من البطاركة والاحبار الاعظمين ورؤساء مجمع انتشار الايمان جالوا بها رومية وضواحيها وبقية بلدان ايطاليا وتوصلوا الى المثول امام عواهل فرنسا واسبانيا والبرتوغال فلقوا منهم اكراماً وكرماً . وقد حملوا لويس ١٤ على ان يهدي اليهم صورته ويتخذ الرهبانية تحت حمايته الخاصة كما يتضح من البراءة المحفوظة

---

(١) صفحة ١٢

(٢) لغاية سنة ١٧٣٨

(٣) هذه العريضة محفوظة بين اوراق دير اللويزه وقد نشرناها في غير هذا المكان

حتى الان في خزانة وزارة فرنسا الخارجية وفي خزانة بكركي الخطية (١)

٤ – الزراعة

ولكن القس عبدالله كان يعلم ان مورد الاحسانات غير مضمون وان الزراعة أمتن اساس يجب ان تستند اليه الرهبانية . فكان اذا ضم ديراً الى املاكها حول سواعد رهبانه المفتولة الى اصلاح الاراضي الموقوفة عليه ، فيثمر عرقهم في تربتها وتصبح عن قريب جنة خصيبة ومورداً ضامناً لمعاشهم . وكان ينتهز الفرص الملائمة لتوسيع املاك الديورة فاذا زادت عن مقدرة رهبانه سلمها الى شركاء يعنون بها ويقاسمون الدير نصف ريعها حسب نظام الاقطاعية الذي كان سائداً في ذاك العهد وما زالت آثاره باقية حتى الان في لبنان .

وكان يمدهم في بادىء الامر بالمال والادوات والبذور اللازمة لاحياء ما عهد اليهم من الاراضي حتى اصبح كل دير مع شركائه مزرعة قائمة بنفسها ومثالاً ينسج عليه فلاحو لبنان وملاكه في الاستثمار والتنظيم والنشاط .

تفتخر الطائفة المارونية بانها مجموع قوم هجروا سهولهم الخصبة وجوّها المعتدل ومياهها المتدفقة وبساتينها الشهية ومعيشتها الهنيئة ليعتصموا بجبال وعرة جرداء تنكر عرقهم وتسرق اتعابهم ، طمعاً في صيانة دينهم وحريتهم . فرأى القس عبدالله وهو على رأس جمعية قوية منظمة ان يعود الى احتلال هذه الحقول فيعزز البقية الباقية فيها من اولاد الطائفة او يتوسع رويداً رويداً في استرجاعها لابناء ملته . واول ما وجه نظره الى سهول عكار القريبة من ديورته حيث للموارنة بعض قرى ومزارع . واليك ما جاء في مذكراته :

---

(١) تجدها بين مجموعة الاوراق الرسمية

« وبعد سفر فرحات ورفقائه [١] افتتحنا ديراً في بلاد الدريب في قرية القبيّات . كان اصله ضيعة دُثرت تعرف بالسنديانه فسميناه دير السنديانه وأقمنا عليه رئيساً القس جرجس من غوسطا من بيت القشوع . وبقي الدير المذكور في يدنا نصف سنة وتركناه لجور الحكام »

ذهب هذا الحلم سريعاً من مخيلة مؤسس الرهبانية فرأى ان الوقت لم يحن بعد الى رجوع ابناء ملته الى ارض الميعاد التي كانت لاجدادهم فعاد الى حصر جهوده في لبنان معقل الطائفة والنصرانية . وكأن الله اراد ان يعوض الرهبانية من هذه الخسارة فسهل لها امتلاك دير في قاطع كسروان شرق قرية بيت شباب في الوادي المفتوح تحت بكفيا يعرف بدير مار بطرس كريم التين ، ليكون حلقة اتصال بين ديورتها في الشوف وكسروان ، ونقطة يزحفون منها الى احتلال قمة شويا الحصينة والاستيلاء على دير مار الياس فيها . واليك ما ورد في مذكراته :

« وفي سنة ١٧١٢ افتتحنا دير مار بطرس وبولس في قرية بكفيا . اوهبه لنا المطران حنا (٢) الذي كان سلمنا سابقاً دير قزحيا . ودير مار بطرس هذا كان مزرعة صغيرة فيها بيتان فقط من غير كنيسة وقلالي ، فابتنينا فيه كنيسة صغيرة على اسم السيدة مريم مع بعض لوازم الرهبنة . وكانت النفقة بعضها من مال المطران يوحنا وبعضها من مالنا . واقمنا عليه

---

(١) الى رومية في اواخر سنة ١٧١٠

(٢) حبقوق وقد سبق القول ان اسرة حبقوق التي وقفت على الرهبانية دير قزحيا نازحة من بكفيا

القس جرجس قشوع الغسطاوي المار ذكره (١)

وجاء في سجل الرهبانية :

« وكان الدير عماره فلاحي وعديم الرزق . فانشأته الرهبنة من الاصل وتكلفت على بنائه وشراء ارزاقه ٤٥٦٧ قرشاً »

ولما كان عدد الرهبان في ازدياد مستمر وكان يصعب على منشىء الرهبانية صد الراغبين في دخول حظيرتها فكر لضمان قوتهم ان يستأجر لهم اراضي زراعية من املاك الدولة المعروفة « بالبكليك » . فاستأجر من الشيخ عيسى حماده الشيعي حاكم مقاطعة الجبة اراضي عين بقره . وكانت « تبتدىء من مرج كفرصغاب حتى زمام قريـة بلوزا » كما جاء في صك هذا الايجار المحفوظ في دير قزحيا (١) وهذه الاراضي الخصبة تابعة الان لهذا الدير

وفي سنة ١٧١٤ تملك القس عبدالله للرهبانية قطعة ارض سباخ بزمام قرية كفرحورا على ضفة نهر ابي علي بمقاطعة زاوية طرابلس . وكان يتبعها طاحون خربة تعرف بطاحون الشيخ . ولما لم يكن لها من مالك شرعي فاز من متسلم طرابلس بحجة تملكها لقاء دفع ستة غروش سنوياً بصفة خراج ما دامت الارض سباخاً وخمسة غروش عن كل مئة شجرة بعد غرسها اشجاراً وخمسة على الطاحون بعد تدويرها . وقد انفقت الرهبانية على اصلاح هذه الارض وطاحونها مبلغ الفي قرش ما عتم ان استعاضتها ، لانها تحولت بوقت قصير الى بستان نضر يدر عليها الخيرات واصبح الطاحون مورداً لا يستهان به . فأثار منظرها الشهي جشع احد البشاوات فادعى ملكيتها ، وداعاهم امام محكمة طرابلس . ولكن عبدالله كان اكثر تعمقاً منه في الشريعـة

---

(١) نذر في سنة ١٧٠٩ وله من العمر ١٩ سنة . راجع بليبل ج ١ ص ٨٠ واقيم في سنة ١٧٢٩ مدبراً اول ونائبا عاما في مدة غياب القس ميخائيل اسكندر في رومية (بليبل ج ١ ص ١٥٢) وفي سنة ١٧٣٨ اقيم رئيسا على دير مشموشه (بليبل ص ٣٠٥)

(٢) بليبل ج ١ ص ٨٥

فأوفد فرحات والبودي الى محكمة طرابلس فاثبتا حق الرهبانية وبطلان دعواه (١)

ويظهر ان رئيس الرهبانية كان يلاحظ بنفسه اعمال الاصلاح الجارية في هذه الارض فينشط رهبانه ويرشدهم . واذا اتاح له العمل الاستراحة كان يختلي مع ربه في مغارة هنـاك ما زالت معروفة حتى يومنـا بمغارة قراعلي (٢)

وفي سنة ١٧١٥ استأجر أيضاً للرهبانية اراضي قرية بسبعل لمدة ثلاثين سنة معاهداً الحكام على دفع ما يصيبها من الرسوم الاميرية (٣)

٥ — الصناعة

الصناعة من اهم اسس الاقتصاد في كل دولة وهيئة بعد الزراعة لانها توفر شراء ما تحتاج اليه من الخارج . وقد أخذ الغرب عن الشرق مبادىء الصنائع والفنون (٤) وقد اصاب هذا الفرع من التقهقر ما اصاب بقية فروع الحضارة الشرقية . لكن المدن السورية ، وخاصة حلب ودمشق ، احتفظتا باسرار هذه الصنائع والفنون . ولما كان الحلبيون من امهر صناع الشرق فقـد استخدم مؤسس الرهبانية مواهبهم لفـائدتهـا وألف مـن الرهبـان لجاناً تقوم كل منها بعمل خاص تحت رئاسة معلم ماهر . فاصبح لدى الرهبانية ،

---

(١) بليبل ج ١ ص ٨٨ — ٩٠ والمشرق ٤ : ٣٦٤

(٢) استقينا هذا الخبر من رفيقنا في مدرستي رومية وباريس المأسوف على فضله وعلمه الخوري عمنوئيل فضل من آل الضاهر ومن اهالي كفرحورا الذي اختفى بغرق باخرة وهو عائد من الترنسفال الى وطنه

(٣) بليبل ج ١ ص ٩١

(٤) راجع E . Rey : les colonies franques en Orient p . 211 ومقالات الاب يوسف ايوب في مجلتنا السورية والبطريركية السنة الثالثة والرابعة والخامسة تحت عنوان « ما اخذه الغرب عن الشرق »

فضلاً عن الزراع ، الفرانين والطباخين والبنائين ،وما يتبع فن البناء من المهن كالتبليط والتكليس والنجارة والحدادة والسنكرة . وكانت هناك فئات تشتغل في الحياكة والتطريز والصباغة والخياطة والسكافة والطب والجراحة والنقش والتصوير . ناهيك عن فئة اخرى اختصت بنسخ الكتب البيعية والدينية والمدرسية اللازمة لكنائس الرهبانية ومدارسها وديورتها وتجليدها

وقد جعل نظاماً خاصاً لهؤلاء العمال ليكونوا متعلقين رأساً بالرئاسة العامة توزعهم على الديورة حسب حاجتها . وفي مجمع المدبرين باللويزه سنة ١٧٣٦ تقرر « ان لا يصير عمار في الاديرة الا ما يشتغله الرهبان فقط » (١) وكان الرهبان يقيمون بايديهم الجسور والمعابر على الانهر القريبة من ديورتهم فضلاً عما كانوا يشيدونه من الكنائس والديورة (٢) .

وقد اسس المعامل للصناعات اليدوية في ديورة كثيرة . وان لم تبقِ لنا الايام آثار ما انشأه منها في عهد رئاسته (١٧٠١ — ١٧١٦) ، فما اتصلت بنا معرفته مما قام في حياته من الصناعات راجع الى سعيه وخطته . لأن رئاسته على الرهبانية لم تنته بسيامته الاسقفية سنة ١٧١٦ بل ظل معتبراً من الجميع داخل الرهبانية وخارجها حتى وفاته رئيسها الاعلى واباها المسموع الكلمة . ولم يكن روساءوها يأتون أمراً مهماً او نظاماً جديداً الا بعد اخذ رأيه واستئذانه .

وقد سارت الرهبانية في باب الاعمال اليدوية على الخطة التي رسمها لها . ففي سنة ١٧٣١ نجد في دير مار بطرس كريم التين معملاً للحدادة كان الاخ مارون الجبيلي المعلم فيه والاخ سابا النفاخ (٣) ولا يبعد ان تكون مجاورة هذا الدير لقرية بيت شباب مصدراً لثروتها الصناعية التي

---

(١) بليبل ج ١ ص ٣٣٢
(٢) بليبل ج ١ ص ٢٤٩
(٣) بليبل ج ١ ص ١٦٩

اشتهرت بها في الحدادة والسنكرة وصنع الفخار وحياكة الاقمشة وغيرها

وقد اقام الرهبان في دير اللويزه نولا لحياكة الاقمشة الصوفية اللازمة لملبس الرهبان والتي بقيت آثارها حتى يومنا هذا في دير قزحيا شاهدة لمتانتها ولمعان الوانها . ولعل انوال الزوق وليدة انوال دير اللويزه القريب منها ، فالصناع في الزوق يستجلبون من حلب حتى الان لحياكة اقمشتهم الحريرية الخيوط الفضية والذهبية « المقصب » .

وفي رأينا ان انوال الزوق تأسست خاصة لصنع الثياب الكنسية لان اشغال الحرير من الكماليات فلا يعقل ان يقدم الصناع على تأسيس معمل لا حاجة للبلاد اليه وخاصة في جبال فقيرة مضنوكة كلبنان .

وقد كان الرؤساء الروحيون يستوردون من حلب الثياب الكنسية المصنوعة في انوالها كما تشهد عدة تحارير وبيانات محفوظة في خزانة بكركي الخطية وخاصة بين اوراق البطريرك يوسف التيان (١) مما يدل على ان الحلبيين ، واخصهم افراد اسرة قرألي ، كانوا يرسلون البدل الكنسية الى البطريرك المذكور والاساقفة ويطلبون بدلاً من ثمنها تقديم القدادات عن انفس ذويهم . ومن الساعين في هذا الامر القس ارسانيوس دياب الذي يذكر في تحاريره ما قدمه بهذه الطريقة ابن اخته بولس قره علي وغيره . وفي وصل بامضاء المطران يوحنا الحلو وكيل البطريرك المذكور المؤرخ في ٢٥ ك ١ سنه ١٨٠٣ بيان لخمس عشرة بدلة للتقديس ارسلها الاب المذكور من حلب يطلب عن كل واحدة تقديم ٦٠ قداساً فيكون المجموع تسعمائة قداس .

ويظهر ان هذه الثياب الكنسية كانت تلقى رواجاً في لبنان ففكر الحلبيون ان ينشئوا معامل لصنعها في ديورة لبنان وفي بعض قراه كزوق مكايل تلبية لهذه الطلبات . وفي رسالة بعث بها البودي الى الاب يواصاف البسكنتاوي برومية طلب منه ان يرسل اليه « شريط وسجق ميس

---

(١) ١٧٩٦ — ١٨٠٩

لزوم البدلات لكثرة الاحتياج الى هذا الصنف لتتمة عمل البدلات » (١) وقد تكشف الايام صحة رأينا .

ومهما كان من الامر فان ما نجده من آثار مصنوعات البدل الحلبية في لبنان يشهد لهم بسلامة الذوق ودقة الصنع ومتانة الحياكة . والبدلة الشهيرة المحفوظة في دير قزحيا أتقن مثال لهذه المصنوعات . وقد اقر الفنانون الغربيون بعجزهم عن صنع ما يماثل الوانها البديعة التي حافظت على رونقها بعد مرور مئتي سنة واكثر . ولعل سر صبغ هذه الالوان يرجع الى عهد بلوغ الصنائع والفنون الجميلة في الشرق أوجها

وكان المصورون والنقاشون من الرهبان يزينون جدران الكنائس باجمل الصور المقدسة وأزهى الرسوم واكثرها تفنناً . حتى ان موارنة حلب « طلبوا من البطريرك يعقوب عواد ان يتمنى على نائب الرهبانية العام ليرسل اليهم الابوين بطرس القبرسي المصور وابرهيم كرباج الحلبي (٢) ليصورا لهم ما يحتاجون اليه في كنائسهم » فسمح الاب المذكور بسفرهما واصحبهما بكتاب توصية الى المطرن جرمانوس فرحات فعين للاب بطرس كرسياً للاعتراف في كنيسة الطائفة (٣)

وقد وجه السيد يوسف السمعاني بعيد المجمع اللبناني الى الرهبان رسالة ينبههم في البند ١٦ منها على القيام بالصنائع المفيدة لديورتهم ورهبانيتهم مثل نسخ الكتب وتجليدها والتصوير والحياكة والنجارة والبناء وما اشبه ذلك . وطلب من الرئيس العام ان يرسل من رهبانه الى رومية من يتعلم الصنائع الغير المعروفة في الشرق (٤) وقد اجتهد الرهبان في ان

---

(٢) بليبل ج ٢ ص ٣١١

(٢) بليبل ج ١ ص ٤٠٧

(٣) اي انه صرفه بخدمة الرعية . وكانت العادة في حلب تقضي على كل تلميذ ان يقدم لمعلم اعترافه في عيد شفيعه نقوداً او هدايا بصفة عيدية

(٤) بليبل ج ١ ص ٣٤٨

يدخلوا الى لبنان صناعة الجوخ التي كان وما زال الشرق بحاجة شديدة اليها . وكان المونسنيور السمعاني قد وعدهم وهو في لبنان « ان يتسحضر من اوروبا اثنين يعلمانهم شغل التوب » . ولما علم القس توما البودي رئيسهم العام من رئيس دير حريصا براهبين من الفرنسيسكان « يعرفان بشغل الجوخ » طلب من السمعاني في سنة ١٧٣٩ ان يسعى بارسالهما او ارسال غيرهما من الخبيرين بهذا الفن (١)

فان لم يكن لمؤسس الرهبانية اللبنانية من فضل سوى تنشيط الزراعة والصناعة والفنون في لبنان ونشرها بواسطة رهبانه لكفاه فخراً يخلد له في قلوب ابنائه الذكر الصالح

الفصل الحادي عشر

المحابس والتجارب

١ — المحابس وقانونها

يختار النسر لمأواه اوكاراً شاهقة في اعلى الجبال، بعيداً عن مكايد الانسان ، اقدر الحيوانات واشرها ، وعن ضوضاء صغار الطيور وطياشتها . فيعيش مع أفراخه آمناً هادئاً حراً ، متمتعاً بالمناظر الرائعة ، مسيطراً على المجالات الواسعة ، قريباً من السماء حيث يرتفع ويسبح على هواه . وقد يحلق حتى هالة الشمس الوهاجة ، فيتبهر باضوائها ويستحم بحرارتها

هذا دأب النفوس السامية . تهرب من ضجة العالم وقلق مطامعه ومخاطر شهواته الى ديورة العبادة ، حيث حياة النظام والمحبة الاخوية والكمال المسيحي . وقد تحرم نفسها لذة هذه المعاشرة وهذه الصداقة ، مفضلة العزلة التامة مع العزة الالهية . فتستأنس برحشة الكهوف ووعورتها وظلمتها ، حيث السكون المساعد على

(١) بليبل ج ١ ص ٣٢٤ و ٣٢٥

التأمل والصلاة ، مع راحة النفس والضمير وصفاء العقل وحرية المخيلة . فكأني بها تنفك من آخر قيد يربطها بسلسلة العلاقات الارضية لتطير في جو السماء الروحية، حيث تبسط اجنحة افكارها وعواطفها وترتفع بنشاط وشوق حتى هالة العزة الالهية فتسطع بانوارها وتلتهب بنارها .

بعد ان وطد القس عبدالله دعائم الرهبانية على اساس متين من الانظمة الروحية والمادية ، ظن ان الوقت قد حان ليلقي عن عاتقه اثقال الرياسة ويتفرغ الى عيشة الانفراد والتأمل في احدى المحابس القريبة من دير قزحيا . وفيما هو يتطلع الى هذه الامنية شاهد عن بعد امواج تجارب هائلة زاحفة في عرض البحار نحو مركب الرهبانية لتلطمه وتبتلعه ، ورأى نفسه مضطراً الى الامساك بدفتها بكل ما أوتيه من عزم ودهاء لينجو بها في هذه الزوبعة المريعة .

ولكن هناك نفوساً قد عتقت من مسؤولية الادارة وتاقت الى عيشة الانفراد والهدوء والتقشف بعيداً عن المشاغل والاضطرابات والمنازعات، فاصبحت احوج الى محابس ضيقة خشنة معتمة من ديورة رحبة مهندمة . فهل يحرمها هذه اللذة الروحية ؟ فعمد القس عبدالله الى ترميم المحابس وتنظيم معيشة الراغبين في سكناها جاء في مذكراته :

« وفي هذه السنة (١٧١٢) ابتنينا محبسة مار بشواي »

وقال في حوادث سنة ١٧١٦ :

« وفي هذه السنة تحرك قلب البعض من الاخوة الكهنة لطلب السكوت والانفراد . وهذه كانت شهوة القس المرحوم يوسف البتن . فطاوعتهم الى ذلك وافردتهم الى مكان في وادي قزحيا يُعرف بعربتا . وكان عددهم اثنين واسم الواحد انطونيوس وهو شيخ يُعرف بابن مبارك . والآخر شاب يعرف بابن شوشان . وضيقت عليها القانون اكثر مما هو في الدير وسلمتهما الكرم الذي هو امام محابسهما ليعملاه ويقاتلا الضجر . وجهزا لهما قلاية جعلوها كنيسة على اسم مار بولا اول المنفردين . فكان معاشهما من الدير عوض تعبهما »

وقد لخص الاب لويس بليبل هذا القانون في تاريخه (١) قائلا :

« وهذه الرسوم التي وضعها مؤسس الرهبانية الاب عبد الله قراعلي منها قانونية ومنها اصطلاحية . فالقانونية هذه خلاصتها :

اولاً : يجب على من يرغب في عيشة الانفراد ان يكون صحيح الجسم وقد اكمل خمس سنين في الرهبانية بعد النذر الاحتفالي وامتحن عزمه

ثانياً ان يتقيد بطاعة رئيس الدير الذي تنتمي اليه محبسته وان لا يكون في المحبسة اكثر من ثلاثة ولا اقل من اثنين

ثالثاً ان يحفظوا القربان الاقدس في معبد المحبسة ويكثروا من زيارته ليلاً ونهاراً

رابعاً ان يلازموا عمل اليد هرباً من البطالة لانها ام الرذائل . واذا لم يكن لهم عمل يدوي يشتغلون به فليشغلوا وقتهم بالصلوات والتأملات

خامساً ان يحضروا الى دير الاخوة في الاعياد الكبيرة كالميلاد والقيامة ومار انطونيوس وليتناولوا طعامهم على المائدة العمومية مع الجمهور اذا ارادوا .

وأما عوائد الحبساء أي القوانين الاصطلاحية فهي :

اولا ان يمنعوا النساء عن الدخول الى داخل سور المحبسة بالكلية وان يعتزلوا مخالطة العالمين

ثانياً ان يكون على كل ما يستعملونه من مأكل ومشرب وملبس وفرش وخلافه مسحة الفقر الكلي . وان لا يعلو على رأسهم موسى اي ان يطلقوا شعور رؤوسهم ولا يقطعوا منها شيئاً ابداً شأن النذير للرب

---

(١) ج ١ ص ٤١١ وقد تكلم الخوري بطرس غالب عن هذا القانون في مقالته عن الحياة النسكية في لبنان المنشورة في المشرق ٣٧ : ٧٤٧

ثالثاً ان يحفظوا فريضة الصوم بصورة دائمة الى الظهر اذ يتناولون طعامهم المرسل لهم من دير الاخوة . وأن لا يأكلوا لحماً مطلقاً (١) . ولهم ان يتناولوا طعاماً خفيفاً في المساء اذا شاؤوا . واما في الصيامات والقطاعات فليصوموا الى الغروب اذ يتناولون طعامهم مرة واحدة ويكون مؤلفاً من البقول والحشايش فقط . وليمتنعوا بتاتاً عن اكل الفاكهة على اختلاف اشكالها والوانها وانواعها وعن كل مشروب روحي ايّاً كان

رابعاً ان يحفظوا الصمت دائماً وان دعت الضرورة فليكن كلامهم وجيزاً بصوت خفي

خامساً ان لا يرقدوا في الليل اكثر من خمس ساعات وما بقي من الليل فليحيوه بالصلوات والتأملات . وأن يتلوا فرضهم الكهنوتي في الفرض الكبير .

سادساً ان لايبارحوا محابسهم .

« ومن عوائد الحبساء النشيطين ان يزيدوا على هذه الرسوم بعض تقشفات واماتات ولكن باذن الرئيس . منها لبس المسح الشعري الخشن وفوقه العباءة فقط . وشد الوسط بزنار من حديد فيه اشواك حادة تغرز باللحم فتسبب آلامات وجراحات اليمة يستعملونه طول الحياة ، والرقاد على أديم الارض شتاءً وصيفاً بدون غطاء . ووسادة الرأس قطعة من خشب معقدة او حجر غير مهندم . والمطانيات الكثيرة العدد . وصلب اليدين ساعات متتالية . والصوم الى يومين وثلاثة مع مواصلة عمل اليد وتسميم فروض الصلوات الطويلة . الى غير ذلك من الاعمال التي يخترعها مبغضو العالم ومحتقرو نعيمه الزائل »

وقد انشئت في الرهبانية محابس عديدة على هذا النظام بجوار ديورة مار بطرس

---

(١) اكل اللحم كان محرماً على كل الرهبان

كريم التين وطاميش ومشموشه وحوب وعنايا وميفوق والقطاره وكفيفان (١) لا يزال أغلبها قائماً الى اليوم . وقد ازهرت وأثمرت ثماراً شهية، قدمت الرهبانية موخراً بعضها الى الكرسي الرسولي ليضعها على المذابح ، كالحبساء شربل مخلوف والحرديني (٢) ودانيل العَلم وانطونيوس الباني وغيرهم

ويظهران محبسة مار مخايل التابعة لدير قزحيا (٣) تجددت في عهد رياسة مؤسس الرهبنة . فقد ذكرها مع غيرها الاب بتيكوه اليسوعي الذي زار هذا الدير سنة ١٧٢١ وتعرف الى صاحب هذه الترجمة قال : (٤)

« يسكن هذا الدير ثلاثون راهباً حلبياً بينهم اثناعشر كاهناً ويقيم فيه موسسهم الاسقف عبدالله الرئيس الاول عليهم قبل تسقيفه ، والذي قبلنا ببشاشة عظمى . ان هذا الحبر يحيا في هذا الدير حياة قداسة حقة كأبسط الرهبان ، وعيشة أضيق من عيشتهم الشظفة ولا يتميز عنهم الا بثوبه البنفسجي . وقد امسكنا هناك يومين كاملين وأرانا الدير وما جاوره وهو قسمان كل على حدة ولكل قسم كنيسة . غير ان صلاة القراءة تقام في الكنيسة الكبرى وزينة الكنيستين نظافتها بليغة . وارانا ايضاً مغاور اخرى كلها معابد بينها معبد جميل على اسم القديس ميخائيل فيه ثلاثة مذابح وغرفتان صغيرتان يسكنهما رهبان يتمون رياضاتهم الروحية . وفي اخر الجبل الموازي مغارتان اخريان فيهما اثنان من رهبان الدير نفسه يسيران سيرة التوحد الكاملة فلا يخرجان منهما ابداً ولا يتحدثان الى احد الا الى الرئيس ليكشفا

---

(١) راجع عنها بليبل ج ١ ص ٩٣

(٢) راجع في قضيتهما مجلتنا البطريركية ٥ : ٩٢ — ٩٤ وعن الاول مقالة الخوري بطرس غالب في المشرق ٢٧ : ٧٤٤

(٣) تأسست سنة ١٤٩٥ راجع المشرق ٢٤ : ٧٥٢ حيث تجد وصف محابس دير قزحيا

(٤) المشرق ٣٩ : ٢٩٢ — ٢٩٧ وليس ١٩٧ كما جاء خطأ ، حيث تجد تعريب مذكراته بقلم القس انطونيوس شبلي .

له افكارهما كل يوم ، وكلاهما كاهنان يقيمان الذبيحة الالهية في معبد صغير محفور في الصخر »

ومحبسة عربتا التي ينوه بها المرسل اليسوعي قائمة حتى يومنا وهي مبنية على الجبل المحازي للدير جنوبا وقد تجدد بناءوها اخيراً (١)

واول من دخل محبسة مار بيشاي كان فرحات بعد رجوعه من بلاد الغرب مع يوسف البتن ورفقائه . فما لاحت للعائدين قمم لبنان حتى أبرقت سريرتهم وارتاحت نفوسهم لخلاصهم من سجس حوا ودسائسه وبلوغهم الى لبنان وطنهم الثاني العزيز ورؤيتهم رئيسهم واخوتهم المحبوبين . واول نعمة سأله فرحات والبتن هي ان يسمح لهما بالانقطاع الى المحبسة . فلبى الرئيس رغبتهما وخصص لفرحات محبسة مار بيشاي الجديدة

فقد قال فرحات في تاريخ الرهبانية (٢) « وفي سنة ١٧١٢ ابتدأ الرهبان بعمار محبسة مار بيشاي . وكانت خربة فعمروها ووسعوها وتقووا فيها مغارة وسكنها رهبان عديدون وهم تحت طاعة رئيس دير قزحيا ويشتركون في معيشتهم وواجباتهم مع رهبان الدير المذكور . »

وهذه المحبسة قديمة جددها سنة ١٥٢٦ الخوري يوحنا المتريتي رئيس دير قزحيا وزاد على مذبح مار بيشاي مذبحين آخرين (٣)

وكأن نفس فرحات الكبيرة قد تولاها الضجر من القلاقل التي عانتها في الغربة ، وملّ من « مرارة التنقل في صقلية واسبانيا ومالطه» (٤) وصغرت من عظمة القصور والكنائس التي شاهدتها في بلاد الغرب ، فأحبت ظلمة هذه المغارة وخشونتها وفقرها وسكونها « واعتكفت فيها ما شاءت

---

(١) المشرق ٢٤ : ٧٥٣

(٢) المشرق ٢٤ : ٧٥٣

(٣) المشرق ٤ : ٣٦٣

(٤) راجع ترجمه للخوري جرجس مقش في المشرق ٧: ١٠٧

من الزهد والقنوت والتأمل والمطالعة والتأليف » (١) ولا بد أن صدى هذا الكهف قد ردد أسمى أشعاره ، وصخوره لانت لارق شعوره ، وأشواكه قد اهتزت لرنة اناشيد هذه النفس الملائكية وحنينها وتغزلاتها الروحية . وهي القائلة :

الله الله أنت السمع والبصر في العاشقين وأنت الفوز والوطر
هويتكم والهوى مني على كبر يا حبذا والهاً قد زانه الصغر

٢ — النبوءة و التجربة الاولى

ولكن العزة الالهية التي سمحت لفرحات بأن تدنو شفتاه من خمرة العزلة معها ، وتتذوق حبها صافياً في هذا الهدوء ، فتهتز أوتار قلبه وتخرج تلك النغمات السماوية ، وقفت في وجه رغبة رفيقيه يوسف البتن وعبد الله ، وفيها نفس الشهوة وذات الجذوة . فالاول بعد أن عاقته بعض الاشغال على الالتحاق بفرحات في محبسته علل النفس بدخول غيرها . لكن المولى فضل دعوته الى وليمته العلوية حيث يتجرع من تلك الخمرة جرعات مشبعة بلذة ما بعدها لذة . اما الثاني فكان عليه تجرع مرارات الادارة وفواجع المصائب والاخطار الهاجمة على الرهبانية وافرادها . واليك حكاية ذلك باختصار نقلاً عن تلميذه البودي ، الذي قال في ترجمة حياته (٢) :

« اما اموره السرية المعروفة عند اعيان الرهبان فقد انعرفت من قبل المواهب التي كانت له : يقول القديس افرام « ان الانسان الذي أتقن الصوم والصلوة والهذيذ الروحي فانه يعطى من الله موهبة معرفة المزمعات » والحال ان هذا المغبوط كان قد حصل على هذه الثلثة : اولاً الصلاة كان متى انتصب فيها وحده حالاً كان يشخص ما قصده من غير تعب : ثانياً

---

(١) المشرق في المحل ذاته

(٢) المشرق ١٠ : ٦٩٦

الصوم كان سهلاً لديه جداً : ثالثاً السهر كان اكثر لياليه ساهراً وذاك الرقاد القليل كان يرقده وهو قاعد من غير ان يستند الى شيء واستقام يرقد وهو جالس مدة اربعة عشرة سنة الى ان ارتسم مطراناً . فان اردت ايها القارىء الحبيب ان تصدق ان ابانا حصل على هذه الثلاث فضائل ها انذا اريد ان اظهر لك الاشياء التي اطلعنا عليها :

« اولاً ليلة الواحدة وهو منتصب في صلاته في الكنيسة في آخر الصلوة رأى ذاته حزيناً . فاذ تأمل ذلك زاد حزنه فتوجه الى قلايته ليرقد قليلاً كالمعتاد ولما كان بين الوعي والرقاد نظر شهب نار في القلاية وشيئاً يقول له : انظر يا عبدالله . وحين فاق رجع الى الكنيسة وجثا امام الهيكل وهو يهتف نحو يسوع بقوله : عرفني آثامي يا الهي . وثاني يوم عرض ذلك على احد اخوته الرهبان المعتاد ان يعطيه سره غير اوقات وقال له هكذا « يا فلان تجربة شيطانية صارت في الرهبنة وانا لم اقدر ان اتسلى لكن في هذه الليلة يأتيني خبرها » وهكذا صار لان بعد يومين اتاه الخبر عن دير ما ان لولا عناية الله وصلاته لصار سقطة عظيمة في احد الرهبان . والغريم بالذات اي صاحب التجربة جاء هو بذاته الى عنده واعطى المجد لله الذي ما سمح في كمال التجربة »

« ثانياً مرة واحدة كان موجود ابونا المشار اليه في دير مار انطونيوس قزحيا فارسل طلبني بعد صلاة الستار لاني كنت غائبا في اشغال الرهبنة (١) فعجبت انا من ذلك وما خليت من آثار الوهم وصرت كأني مذهول ونبه علي ان لا احد يجي عنده وانتصب يصلي زماناً وبعد ان خلص صلاته طلبني لاكون قاعداً جنبه وقال لي هكذا « علي هم لا يقدر ولم أر لي مسلي يسليني » اما انا بما اني عارف انه يتكلم بالغيب مما سبق له مراراً عدة وبما

---

(١) كان اقتنوما عاما كما قلنا

كان لي عليه [من] دالة ونحن وحدنا قلت له هذه الالفاظ : بديت تبشرنا بالعكس . فتبسم وكان جوابه لي : بدك مرزبة حتى تصير راهب . فرديت له الجواب . قول حتى نقشع . فقال . يا توما الرهبنة قادمة على تجربة عظيمة بخسائر بليغة . ولكن انا مستصعب واحدة ان في هذه التجربة موت رهبان قتلا وانا فكرتي لئلا تكون انت واحداً منهم . فقلت له اخبرني كيف يكون موت رهبان قتلا بسلاح او بغيره . أجاب . يا ولدي هذا شيء مخبأ عني وكان مرادي ما تفارقني لانني اخاف عليك . »

وقال البودي في مكان آخر (١) « ولنرجع الى قوله السابق عن التجربة وموت الرهبان قتلا . فبعد مدة قليلة صار زمان المجمع (٢) ولما التأم ترامى على جمهور الرهبان المجموعين للقرعة ان يقيموا رئيسا عاما غيره لمن يريدون لان مراده ان يروح الى المحبسة التي كان هو قد انشأها قبال دير قزحيا في عربتا بزعمه انه يريد ان يقام رئيس عام على الرهبنة غيره في زمانه لينظر التدبير . وبهذا النوع كان يتوسل الى الرهبان ويعدهم انه ولو كان في المحبسة ما يتخلى عن رشدهم ورشد رؤسائهم في القانون . وايضا كان يقول : هكذا الله طالب مني . فمن زود لجاجته على الرهبان بما ذكر اخفوا راياتهم وكان جواب اكثرهم : فلتكن مشيئة الله ومجده الذي هو غاية المراد . وفي حين القرعة وكشفها ما ظهر ولا ورقة بغير اسم عبد الله . فأهطل الدموع مستغيثا بالله لاجل التجارب المزمعة ان تظهر وهي في عقله . أما الرهبان فصرخوا بصوت واحد نحوه : انك ما دمت في الحياة ما يكون رئيس غيرك والذي دبرك الى الان يدبر أولادك بعدك . وبعد انتهاء المجمع كان جميع الرهبان فرحين برئيسهم . اما الفرح الروحي الذي كان

---

(١) المشرق ١٠ : ٧٣٠

(٢) ت ٢ سنة ١٧١٤ (حاشية للناشر)

بينهم فانا عاجز عن وصفه .

« وبعد ذلك اجتمع مع مدبريه وكان حزينا جداً . فالبعض كانوا يظنون ان حزنه لانه اقيم رئيساً وما سلك كلامه في قبول المحبسة فقط . ولكن قد اطلع الذي أطلعه سابقا على تجربة الرهبنة والقتل بقوله : يا فلان في تجربة أخرى مزمعة ان تصير وهي امرّ من الاولى التي اخبرتك بها وهي سيف ذو حدين اي اما عصاوة الله وبيعته (١) او خراب الرهبنة وتبديد الرهبان . اما في هذه الثانية أموت حالاً (٢) . واما في الاولى فليس منها مهرب (٣) »

وهنا يخبر البودي كيف انه نزل الى طرابلس بعد المجمع لكي يجهز الرؤساء الذين انتخبوا والذين عزلوا فأتاه مرسال يخبره عن سقوط صخر عظيم على قزحيا وقتل بعض الرهبان تحت الردم . فتوجه حالا مع بقية الرهبان الى الدير المذكور وقبل وصولهم اليه بنحو ميلين تساقطت صخور كثيرة عليهم ولكنهم نجوا بصلاة الرئيس عبد الله وسبب ذلك كثرة امطار تلك السنة فقد دخلت المياه بين شقوق الصخور وفصلتها عن بعضها فهوت الى الوادي . قال وبعد وصولنا توجهنا لنأدي الطاعة الى ابينا كالمعتاد فرأيته غير مضطرب اصلاً . فعاوننا الاخوة في تعزيل التراب والصخور لنشيل الرهبان من تحت الردم حتى المساء (٤)

---

(١) يتنبأ هنا عن استصدار البطريرك يعقوب عواد امراً من رومية بالغاء الرهبانية كما سيجيء الكلام

(٢) اي انه يفضل الموت على ان يعصى الله وكنيسته

(٣) اي قتل الرهبان

(٤) قتل في هذه الفاجعة القس يوسف البتن مدبر الرهبانية ورفيق القس عبد الله المحبوب والاخ روفائيل من عائلة الحواقله من زوق مصبح

وبعد ان رجعنا من الاشغال طلبني ولما جلست التفت الي بهذا القول : كيف رأيت يا ولدي . فقلت له هذه تجربة ما لها تسلية . اجابني انت ولد بعدك طفل الى متى اتعب معك . أنسيت يا توما حين قلت لك عن تجربة مزمعة . أما قلت لك اني قاشع تجربة بخراب وخسارة عظيمة وقتل . فقلت له نعم بالعمى هذه هي . قال انصت لكي اخبرك . اعلم انه منذ فارقتني كان كل يوم يزداد الوهم والحزن علي وبعض الاحيان كنت أظن اني اعدم حياتي من زود الضيق الذي كان يستولي علي وخاصة في الليلة التي وقع الصخر واستدام هذا الى صلاة الليل . وكنت تلك الليلة وبعد الصلاة توجهت الى قلايتي هرباً من المياه الباردة التي في الكنيسة (١) فأتى يوسف البتن وكشف لي افكاره كمعتاده وكأن الله ارسله ليودعني فأخذني سبات النوم بعد خروجه من عندي وانا في حد الحزن . وبعد برهة من الزمان حسيت كأن الدير هبط فينا كلنا . فحين انتبهت حسيت كأن واحداً يقول لي : قم انتهت وانقضى الحكم . وحال انتباهي رأيت ذاتي كأني ما عرفت الحزن ابداً وهذه كانت التجربة التي اخبرتك عنها يا تويم . فقلت له : بعد عندك غيرها تبشرنا بها . أجابني هي ضهرك للسياط والمكافحة عن اخوانك

يقول فرحات في تاريخه « وفي سنة ١٧١٦ عمر الرهبان دير قزحيا

---

(١) لان الكنيسة منقورة في الجبل فترشح منه المياه اليها

أحسن مما كان عليه فكان خرابه سبب عماره » بيد ان هذه الفاجعة كانت أول المخاض اما الضربة القاضية فقد أعدها اعداء الرهبانية بمساعدة البطريرك يعقوب عواد لتقويض اركانها وتشتيت اولادها . وقد تنبأ عنها مؤسسها كما رأيت

وقال لتلميذه البودي « لو تمت أموت موتاً » اي ان حياته معلقة بحياة الرهبانية . وما كان يزيد في همه ان هذه الضربة سوف يصوبها رئيسه الروحي ويؤيدها المجمع المقدس فلا سبيل للعصيان لان العصيان خطيئة ، ولا سبيل لتلافيها ، لان ليس بعد سلطة الكرسي الرسولي سلطة يلجأ اليها . وهذا ما كان يزيد غمه غماً . ولكي تعرف مبلغ تعلق هذا الاب الحنون باولاده فأليك الحكاية الآتية نقلاً عن ترجمته لتلميذه البودي قال (١)

« ويوماً ما كنا قاعدين في دير مار انطونيوس قزحيا على السطح بعد العشاء وكنا أنوف من خمسة واربعين راهباً (٢) وكان يتكلم ابونا بامور روحية حسب عادته . ومن عادته في آخر التنزيه لا بد يرمي كلمة ما تضحك الرهبان وتبسطهم وكانت هذه دليلاً ليبدأوا يتكلمون مع بعضهم . فحين صار ما ذكر التفت الي والى اثنين من المدبرين وقال هكذا « انظروا الى هذا الثمر المنتقى في خدمة يسوع وهذا الجمهور المبارك الذي لا بد لعدو الخير ذاك الاركون ان يضرب البعض منهم . ومن قوله هذا اهطل الدموع »

---

(١) المشرق ١٠ — ٦٩٩

(٢) رأيت كيف ان هذا الدير عندما تسلمه عبدالله كان بحالة مالية مرتبكة للغاية حتى لم يقبل احد الرهبان الترأس عليه فاضطر مؤسس الرهبانية ان يتولاه بنفسه فاوصله بحسن تدبيره الى حالة من اليسر مكنته من اعاشة هذا العدد الوفير من الرهبان وخدمة الدير

ولكي نفهم السبب الذي حمل البطريرك يعقوب عواد وحزبه على اعداد هذه الضربة القاسية لا بد لنا من الاشارة الى الحوادث التي جعلته عدواً للمطران عبدالله ورهبانيته مع انه لم يأت شيئاً ضده عن سوء قصد بل اطاعة للرؤساء كما سترى

٣ — تنزيل البطريرك يعقوب

قضية تنزيل البطريرك يعقوب عواد عن كرسيه خبطت الطائفة المارونية اربع سنين ، وأشعلت في قلبها فتنة دام سعيرها اربعة وعشرين سنة ، ووضعتها في مأزق حرج ازاء الكرسي الرسولي ، ووضعت الكرسي الرسولي في احرج المواقف ازاءها . فقد تحدت في غضبها سلطته وحطت بطريركها عن مقامه وأقامت وكيلاً مكانه . فخشي الكرسي الرسولي ، ان هو ارغمها على ارجاعه ، أن يحرج صدرها . فتريث الى ان همدت سورة غضبها وتبينت خطأها وتفرقت كلمتها ، فطلب اعادة البطريرك المخلوع ولو ساعة يستقيل فيها ، ليكون تنزيله قانونياً . ولما وثقت رومية من طاعة الشعب ، أعلنت براءة بطريركه واصدرت امرها في اعادته ، فطأطأ الشعب رأسه خاضعاً وقبل اليد التي رذلها . فتجلت حكمة رومية وطاعة الطائفة باجمل مظاهرهما . وكان لهذه الفتنة تأثيرها البليغ في مصير الرهبانية اللبنانية الفتية ومؤسسها فقد ادت الى نفور البطريرك منهما وسعيه في الغاء الرهبانية .

ويطول بنا الشرح لو قصدنا تلخيص اهم اطوار هذه القضية ، فرأينا ان نقتصر على اثبات ما وجدناه بصددها في مفكرة مؤسس الرهبانية ، معلقين عليها بايجاز ومرجعين الراغب في التفاصيل الى الكتاب الذين عالجوها والوثائق التي اختصت بها . لافتين النظر الى الاعذار التي يسوغ لنا ان نستمدها لابطالها الثلاثة : البطريرك يعقوب والمطران جرجس بن يمين رئيس

الحزب المناوىء له والقس عبدالله قرألي زئيس الرهبانية

فالبطريرك يعقوب كان من انجب تلاميذ مدرسة رومية المارونية ومن اطولهم باعاً في الكتابة ومن اقرب رجال البطريرك الدويهي القديس [١] . فيصعب على المؤرخ قبول كل التهم الشنيعة التي عزيت اليه من تبديد رزق الكرسي البطريركي واملاكه وسوء السلوك والاخلاق . وغاية ما يمكنه تصديقه عليه ضعف الرأي والارادة وانقياده لمشورة احداث اغبياء عديمي الخبرة والذمة [٢] . فتلطخ بقذارة سمعتهم ، وكبا بسخافة رايهم ولبس مسؤولية تبذيرهم . فنفر منه الرؤساء والعقلاء الاعفاء والنزهاء . واولهم المطران جرجس بن يامين اسقف اهدن ، المشهود له بالغيرة والعلم وطهارة الذيل والسيرة ، الذي جمع عليه كلمة المطارين فحاكموه وحطوه وسجنوه [٣]

اما القس عبدالله فكان ، كما صرح في مذكراته ، من اخص اصدقاء البطريرك وامين سره وماله . فلما سمع من فم قديس كالمطران جرجس عن الذنوب الفظيعة المنسوبة الى البطريرك ، ذهل واشمأزت نفسه الشريفة العفيفة وكرهه في تصرفاته لا في شخصه وضحى بصداقته ومصلحته وراحته لراحة ضميره . ولما استل الرؤساء سيف الحرم فوق رقبة كل من لا يبوح

---

(١) سقف على طرابلس سنة ١٦٩٨ وانتخب بطريركا خلفا للبطريرك اميلوزاوي في ٥ ت ٢ سنة ١٧٠٥ راجع ترجمته في تاريخ الموارنة للدبس ص ٤٣٠ — ٤٣٦

(٢) تاريخ الموارنة للدبس صفحة ٤٣٠ وسلسلة البطاركة للدويهي صفحة ٤٥ حيث اثبت ناشرها رشيد الشرتوني راي معاصرين للبطريرك الخوري يوسف الدويهي والمطران فرحات

(٣) راجع كتاب ريسطهوبر الذي عربه الخوري بولس عبود ونشره بعنوان : تقاليد فرنسا في لبنان صفحة ٢٥١ وقد خصص صفحات ٢٥٠ — ٢٨٦ للوثائق المتعلقة بهذه القضية وسنرجع اليها مراراً

بمعلوماته عن البطريرك واموال الكرسي المتهم بتبديدها ، حمله ضميره الحي على ان يكتب سراً الى المطران جرجس بما لديه من سر ومال ، فأشهر هذا الرسالة واتخذها سلاحاً ماضياً ضد البطريرك المخلوع لشهرة صاحبها في القداسة والرصانة .

واليك كلامه في ذلك ببساطته وصراحته ، نورده هنا تمهيداً لفهم الحوادث الخطيرة التي تملأ القسم الثاني من حياته ، اي عهد اسقفيته المرتبط بها ارتباطاً وثيقاً . قال :

« وفي هذه السنة (١٧٠٩) ظهرت الاخبار الردية عن البطرك يعقوب واضطربت الطايفة المارونية وصار المذكور يرسل يأخذني لعنده ويستشيرني ويودع عندي ماله لانه كان بيني وبينه وداد ومحبة وكان فكري فيه صالحا . وكان هو يقول لي كثيراً ان رهبنتكم أريدها ان تكون خزنتي وكان يقضي لي اشغالي كما اريد ، من دون الفضة وحدها ما كان يراعيني بها . اما من جهة الامور الروحية فكانت على خاطري . فلما ظهرت عنه هذه الاخبار وكان خصمه المطران جرجس مطران اهدن ارسلني البطرك اليه لان المطران المذكور كان في كسروان . فلما سمعت كلام المطران تبين لي ان قوله صحيح واخذني الشك بالبطرك وابتدأت ابغضه لكنني ما تركت احداً يعرف ذلك . ورجعت عند البطرك من غير ان افيده شيئاً لان اخباره اشتهرت كثيراً . ومن بعد احوال واهوال جرت التزم البطرك بالمسير الى كسروان [1] فأخذني معه . ولما وصلت

---

(١) حيث اجتمع المطارين عليه . وفي تاريخ فرحات انه « وكل موضعه على قنوبين وارزاقه واحداً من الرهبان اللبنانيين اسمه موسى البلوزاني رجلا عاقلا حسن الراي والتدبير والاخلاق خايف الله جداً معدوداً من اكابر الرهبنية اللبنانية ومن جملة مدبريها » وقال البودي ان المذكور نسيب المطران جبرايل البلوزاوي اسقف حلب

الى كسروان فارقته وذهبت الى دير لويزه ومنه رجعت الى الجبه الى دير مار انطونيوس قزحيا هرباً من كثرة السجس [١] . وبعد ايام وصل الينا والى البلاد جميعه مكتوب منشور من حضرة المطارين يقول ان من يعرف شيئاً عن البطرك من الاخبار المتهوم بها ولا يخبرنا يكون محروماً ولاني كنت سامعاً من بعض الناس بعض اخبار ارسلت اخبرت بها المطران جرجس مطران اهدن سراً لانه كبير المطارنة . فلم يكتم السر وفشا خبر هذا المكتوب عند الكثيرين واتصل بسمع البطرك وحزبه وصار سبباً لبغضتهم لي »

« وفيما بعد عقدت المطارين مجمعاً في كسروان ونزعوا البطرك من درجته [٢] وأقاموا للكرسي وكيلاً يقال له المطران يوسف الشامي مطران بيروت . [٣] وبعد مدة قصيرة رسموا مجمعاً واقاموا بطركاً مطران صيدا يعرف بالمطران يوسف الريفوني [٤] فلما سمعت انا الخبر بادرت الى كسروان واعلمت المطران جرجس بدراهم البطرك المودوعة عندي سراً واستشرته بكيفية تدبيرها لاني ظننت انها مال الكرسي وخفت ان يجيء اهل البطرك يأخذونها غصباً ويلحقني اللوم من البطرك الجديد

---

(١) لان مجمع المطارين حجر على البطريرك في دير اللويزه . الدبس صفحة ٤٣٠

(٢) وتقدم مقدم الاساقفة فعراه من الحال الحبرية وامره بالاقامة في دير لويزه بكسروان محظوراً عليه الخروج منه (الدبس ص ٤٣٠) وحبسوه واهانوه جداً ونزعوه من جميع الدرجات (كلام فرحات في سلسلة الدويهي ص ٤٦)

(٣) تسقف سنة ١٦٩١ وتوفي سنة ١٧١٣ . الدبس ص ٣٧٩

(٤) من اسرة مبارك مؤسسة دير ريفون تسقف سنة ١٦٨٣ . الدبس ٣٧٩ قال فرحات (سلسلة ص ٤٦) « وكان رجلا بسيطا اصله راهبا من دير سيدة ريفون ومن قرية غوسطا »

والمطارنة أجمع . فلم يعرف المطران جرجس تدبير القضية بفهم بل اشاع خبر الدراهم . فسمع البعض من اقارب البطرك الذين لم يكونوا عارفين بها وتشاوروا مع القس سمعان ابن اخي البطرك الذي هو الان مطران [١] وكان عارفاً بالدراهم واتفق رايهم على ان يوهبوا الدراهم الى حاكم البلاد العاصي لاجل غرضين الاول ان يجعلوا الحاكم صديقهم والثاني ليمنعوا البطرك الجديد من اخذ الدراهم لوهمهم انه يأخذها [٢] . وهكذا صار لان الحاكم [٣] ارسل جنوده الى دير قزحيا حيث كانت الدراهم واخذها قهراً ولحق الرهبان بسببها تعب وحقارة بطول شرحها . وكنت انا في كسروان . وبعد اخذ الحاكم الدراهم سرت انا الى الجبه الى دير قزحيا واجتمعت بالاخوة وتذاكرنا بامور رومية » [٤]

وفي خزانة بكركي في جرار البطريرك يعقوب عواد وثيقة بالكرشوني رقمها ٤ مؤرخة في ٢٥ آب سنة ١٧١٠ ومهورة باختام المطارين : جرجس (بن يامين [٥]) مطران اهدن ويوسف (الشامي) مطران بيروت ويوحنا (حبقوق) مطران قزحيا ويوحنا (محاسب) مطران دير مار شليطا وميخائيل (البلوزاوي) مطران حلب والياس (الجميل) مطران

---

(١) المطران سمعان عواد رقاه عمه سنة ١٧١٥ الى درجة الاسقفية واقامه بناديكتوس ١٤ بطريركا سنة ١٧٤٣ (الدبس ص ٤٣٥ و ٤٣٨)

(٢) كتب ثلاثة شيوخ من كسروان الى قنصل فرنسا في طرابلس طالبين تسليم المال الى الريفوني لانه خاصة البطريركية لا السيد يعقوب . فوصل كتابهم بعد ضياع المال . رستلهوبر ٢٥٧ انما القنصل المذكور استجلب الحلل البيعية والانية المقدسة الخاصة بالبطريركية التي كان اودعها الخوري الياس الصمعاني ديري الفرنسيسكان واليسوعيين في طرابلس ورفض تسليمها للحاكم (رستلهوبر ٢٥٩)

(٣) الشيخ عيسى حماده المتوالي . رستلهوبر ص ٢٥٧

(٤) دير رومية

(٥) هكذا وجدنا اسمه في وثيقة بخط الخوري اندراوس اسكندر القبرسي بخصوص شركة الوردية وهي في خزانة بكركي جرار البطريرك يعقوب عواد تحت رقم ٢٧

طرابلوس وموقعة باسمي المطران جبرائيل (الدويهي) مطران صرفند (صيدا) وجرجس (اسطفان الغوسطاوي) مطران العاقورا .
وهذا نصها :

« وجه تحرير الاحرف هو اننا نحن اصحاب الاسامي المرقومة والمختومة اعلاه شرطنا على نفوسنا ورضينا ان حضرة اخونا المطران يوسف الريفوني المكرم الذي اقمناه وكيلاً ورضيناه يكون علينا بطركاً وان جميع ما يخرج ويتدين على مرسال رومية والاولاد الذين ينبعثوا للمدرسة وخرجه وخرج الكرسي وما يخص دايرته . فان كان يجيه التثبيت من الحبر الاعظم المحترم ما له علينا حق ولا مستحق من جميع ما يتكلف واذا ما جاه التثبيت بل تغيرت هل احوال جميع ما يتكلفه نورده له اياه من رزق الكرسي . ونحن كافلين ضامنين وعلى ذلك وقع الرضا منا ومنه وانشاء الله الخير يكون . حررنا له هذه الوثيقة بيده لاجل الاحتياج اليها وبيان الحق »

حرر في ٢٥ من شهر سنة ١٧١٠ ربانية صح صح

٤ — اعادة البطريرك يعقوب

جاء في مذكرات القس عبدالله قرألي :

« وفي سنة ١٧١١ دُعي القس جبريل الحوى من الحبر الاعظم ليمضي الى لبنان . وذلك ان الموارنة لما نزعوا البطرك يعقوب من درجته كما سبق القول واقاموا مكانه البطرك يوسف الريفوني شق ذلك على السيد البابا وكاتب رئيس رهبان مار فرنسيس الذين في القدس الشريف ان يتوجه الى جبل لبنان يسترد البطرك يعقوب الى كرسيه ولو ربع ساعة ثم ينزعه حتى لا يكون نزعه الا بامر الحبر الروماني وان امكن يسترده بالتمام . ثم ارسلوا اليه القس جبريل حوى بما

انه ابن البلاد واللغة [١] ليعينه على مقصده . فسلم حينئذٍ القس جبريل الحوى رياسة الدير الى القس جبريل فرحات وسافر . وبعد سفره سلم فرحات الدير بيد الخوري ابرهيم الغزيري رئيس دير مار رشمسيا سابقاً . هذا كان القس جبريل حوى ارسل طلبه لعنده بسبب معرفته لغة اللاتين وكان يبغض رهبنتنا وكان قدم الى رومية لاجل قضاء امور البطرك يوسف [٢] . »

« وفي سنة ١٧١٣ كانت الرهبنة ساكنة هادية من المحن الخارجة وكان البطرك يوسف يسعى معي بالسلامة لانه كان خايفاً من البطرك يعقوب الذي نزعه المطارين من كرسيه وحصل في مدينة صيدا عند رهبان مار فرنسيس رهبان القدس [٣] وكان في السر يشتكي مني ويدبر بالسؤ

---

(١) كان صديقا للبطريرك يعقوب ووكيلا على امواله المودوعة ببنك رومية كما سترى

(٢) سبقه الى رومية المطران جرجس بن يامين والقس ميخائيل القبرصي المطوشي حتى يخبر سيدنا البابا بالامور الغريبة التي حدثت عندهم . كلام فرحات في اللالى ص ١٤٠ والمجلة البطريركية ٦ : ٣٢٤ وكان سفرهما في اخر سنة ١٧١٠ رستلهوبر ص ٢٥٧

(٣) وصل القاصد الاب لورانس ده سلوانس مندوب البابا الى صيدا في تموز سنة ١٧١١ وبمساعدة قنصل فرنسا في طرابلس وبعض مشايخ ال الخازن في كسروان تمكن من الحضور الى ريفون مقر السيد يوسف وفي جلسة عقدها مع المطارين في ١٣ آب سنة ١٧١١ اظهر اوامر البابا برد البطريرك . وكان الاساقفة قد وصلتهم من رومية رسالة كتبها المطران جرجس اعظم خصم للبطريرك يعقوب حرضهم فيها على الخضوع للكرسي الرسولي فأخرج القاصد السيد يعقوب من سجنه ورده الى كهنوته فاقام قداسا حافلا انما اثر ان يستقيل للصعوبات التي كانت تكتنفه ولانكار الاساقفة سلطانه والخضوع له فجيء به الى دير الفرنسيسكان في حريصا وفي شباط ١٧١٢ عاد الحارس الى صيدا بعد ان جال في حلب ومصر فاستدعى البطريرك الى هناك ريثما يرد حكم رومية . رستلهوبر ص ٢٦١ — ٢٦٥ والدبس ٤٢٢

عليَّ وعلى الرهبنة من حيث اننا كنا ارتضينا بعزله . فلما دخلت سنة ١٧١٤ قوي عزم البطرك يعقوب ولاحت له علائم النصر على البطرك يوسف لان البعض من المطارين الموارنة خانوا البطرك يوسف لاجل منافسة جرت بينهم متولدة من حب الدنيانيات وكتبوا ضده الى رومية . فوافق ذلك غرض الرومانيين كثيراً من حيث انهم كانوا يشأون ترجيع البطرك يعقوب لانه عزل بغير امرهم وأبرموا على ترجيعه الى كرسية . وحدث من قبل ذلك نوايب كثيرة يطول شرحها . وفي شهر ايلول تنيح بالرب البطرك يوسف [١] فسهلت حينئذٍ رجعة البطرك يعقوب الى كرسيه ورجع بعناية الرومانيين وعضد من حكام الدروز والحماديه والبعض من اعيان الموارنة [٢] وكثرت التجاديف وتعاظمت الشكوك كثيراً « وفي شهر كانون الاول وصل البطرك الى دير قنوبين وسرت اليه مع البعض من اكابر الاخوة وقدمنا له الطاعة حسب مرسوم الكرسي الروماني »

تجد في جرار البطريرك يعقوب من خزانة بكركي الخطية تحت رقم ٥٣ رسالة او مفكرة بالكرشوني وجهها اليه العلامة السمعاني ، تعرف منها شيئاً كثيراً عن سير دعواه في رومية وما بذله كاتبها ، مع حداثة عهده ، من المساعي الناجحة في سبيل ابن قريته ونسيبه وموكله . وهي بلا تاريخ لكنها كتبت بعد ٣٠ حزيران سنة ١٧١٣ ، ميعاد صدور براءة اكليمنضوس ١١ [٣] التي تشير اليها الرسالة ، وقبل اواخر ايلول الذي

---

(١) في ٨ ايلول سنة ١٧١٣ (الدبس ٣٧٩) وقيل انه مات مسموما : كلام فرحات في سلسلة الدويهي ص ٤٦)

(٢) رافقه الشيخ نوفل الخازن نفسه . رستلهوبر ص ٣٧٤

(٣) راجع اصلها اللاتيني في مجموعة البراءات المارونية للعنيسي ص ١٩٩ وترجمتها العربية مطبوعة في مطبعة البربوغنده ومحفوظة في جرار البطريرك يعقوب تحت رقم ٩ وتجد ايضا هذه الترجمة في ذيل المجمع اللبناني ص ٣٩ حيث تحمل خطأ ٢ تموز وفي المقاطعة الكسروانية للعتوني صفحة ١٣٠ حيث تحمل خطأ تاريخ ١٣ حزيران

ترك فيه هذا البطريرك صيدا بعد وفاة مزاحمه المطران يوسف الريفوني في ٨ ايلول من تلك السنة ، لان الرسالة انفذت اليه وهو في هذه المدينة كما يستدل من فحواها . وهي تحوي فوائد اخرى جمة حملتنا على نشرها هنا برمتها ولو خرجنا قليلاً عن الموضوع الاصلي :

« قدس سيدنا البطريرك الانطاكي مار يعقوب بطروس المكرم دامت رئاسته امين

القس يوسف بن شمعون السمعاني

« ١ — مكاتيب لقدس سيدنا البابا والمجمع المقدس عموماً والكردينال فبروني والكردينال سكريبنتي والكردينال دي لاتريمولي والكردينال الباني والكردينال دادا والكردينال برباريني والكردينال براشاني وكيل المدرسة والكردينال اكواويوا اخو مدبر المدرسة الذي صار وكيل الطايفة السبانيولية . والكردينال كاسيني الكبوشي الذي كتب لرهبانه في حقكم [1] والكردينال تولوماي الايسوعي والمنسنيور كواليري ياصحبي المجمع الذي اسمه سيلبيوس، مطران اتيناس وهو تعب جداً في المصلحة . وللبادري دياس الفرنسيسكاني والبادري سانياتي مدبر مدرسة الروم الذي كان سابقاً مدبر مدرستنا وهو باعث لكم ورقه وصليب من فضه وللبادري اكواويوا مدبر المدرسة اخو الكردينال اكواويوا وهو اجتهد معنا في الدعوة كثيراً قبلما يصير مدبر المدرسة ولما صار مدبراً زاد اجتهاده وما التفت الى الخصما بل طردهم من المدرسة ومن جملتهم موسى الدلبتاني وقطع رجل المعلومين من الدخول للمدرسة ومراده يزين الكنيسة ويجعل قداس كبير وفرحاً عظيماً لاجل اعادتكم للكرسي . وانا قلت له لا يفعل ذلك حتى تجي مكاتيبكم تخبرونا

---

(١) كان الرهبان الكبوشيون واليسوعيون والكرمليون من اكبر المضادين للبطريرك يعقوب راجع رستلهوبر ص ٢٧٠ — ٢٧٦ و ٢٨٠

فيها انكم جلستم على الكرسي . والكانونيكا [١] ديونيسيوس الحقلاني الذي تعب معنا وهو كاتب لكم مكتوب . والكانونيكا بيانكي رفيقكم في الدرس وهو حافظ خزانة المجمع المقدس وله تعب جزيل في دعوتكم ولما كانوا الكردينالية معتمدين على قبول تنزيلكم [٢] فاعترض لهم واقنعهم وهو صاحب حقيقي . والقس جبرايل حوا الذي فضله على الجميع . والقس بطرس مبارك اليسوعي [٣] طمنوا خاطره في اخيه الخوري ؟ وللمطران جرجس اغفروا له من اجل المسيح .

وهذه المكاتيب المذكورة يكون مضمونها شكران للبابا وللكردينالية انهم حكموا بالعدل وما التفتوا الى كلام المغرضين . وللبادريه ولغيرهم انهم حاموا عنكم لزود محبتهم لكم . واذكروا في البعض منها ان القس يوسف بن شمعون السمعاني [٤] اخبركم عن غيرتهم ومدحهم في مكاتيبه . وفي هذه المكاتيب لا تذكروا عن رجوعي الى بلادي

ثانياً ورقة وكالة للقس يوسف تكون باسم يعقوب فطروس فطريركا وانطيوخيا وتكون على طرحية كبيرة بخط كبير وشرح طويل

ثالثاً مكتوب آخر للبابا وللمجمع والبعض من الكردينالية وخصوصاً لساكريبنتي [٥] وفيروني يكون تحريره بشهرين بعد تحرير المكاتيب المقدم

---

(١) Canonico كتبها بالالف السريانية التي تعبر عن حرف ه اكثر من الواو العربية

(٢) هذا يدل على ان قضية البطريرك يعقوب لقيت صعوبات حتى في رومية

(٣) هو مؤسس مدرسة عين طورا ومسلم ادارتها الى اليسوعيين . راجع ذيل المجمع اللبناني ص ٦٧ راجع ترجمته في الذبس ص ٤٦٦

(٤) هو كاتب الرسالة نفسه

(٥) رئيس المجمع المقدس

ذكرها تطلبون فيه ان يأذنوا لي بالرجوع اليكم . واذكروا انكم اعتمدتم على تدريجي لدرجات وانهم اما يبعثوني واما يكفوني . انا ليس بطالب درجات لا عندكم ولا عندهم لكن اذا كتبتم هذه المكاتيب اما انهم يتركوني اعاود لبلادي واما انهم يعطوني وظيفة تحرز

رابعاً اذكروا في مكاتيبكم للبابا وللمجمع انكم اوصيتم وكيلكم القس يوسف ان يعرض اليهم بعض مصالح بالفم لان مرادي اطلب لكم منهم خرجية وانهم يبعثوا لكم هدية ويطبعوا كتاب القداس ام غيره كما تذكرون لي في مكاتيبي وذلك يكون في المكاتيب المذكورة في الباب الاول وليس في الباب الثالث

خامساً الحواقله في رومية ادعوا ان لهم على البيت الموقوف من المطران سركيس المرحوم ثلاثماية سكوث روماني . وذلك ان المطران سركيس استقرض من واحدة ثلاثماية سكوث حتى اشترى البيت ووصى ان يجعلوا له فايدة السكوثات المذكورة لبينما يوفوها كاملا . وتلك الامرأة وصت في دراهمها لابرهيم الحقلاني [1] . وابرهيم الحقلاني وصى لاولاده . وأولاده اليوم طالبين مني ومن القس جبرايل ان نعطيهم دراهمهم . فكان الجواب لهم اني اكاتب قدسكم . الحال اني اطلعت على حقيقة الامر عند النوطارية [2] وقريت وصية الاثنين اعني وصية المطران سركيس ووصية تلك الامرأة والحواقله وفيهما ان وارث المطران سركيس اعني دير مار بيشوي ام بطرك قنوبين اما انهم يوفوهم ثلاثماية سكوث في وقت واحد إما انهم كل سنة يعطوهم فايدتها وبعد ذلك يوفوهم الثلاثماية سكوث . وان ما وفوهم الثلاثماية

---

(١) العالم الشهير ووكيل الامير فخر الدين المعني لدى دوق توسكانا توفي برومة سنة ١٦٦٤ راجع الدبس ص ٣٨٥

(٢) كتبة العدل

سكوت يبقوا دايماً يعطوهم فايدتها . فصار الاتفاق بيني وبينهم ان رضي قدسكم اني اجعل البيت الوقف على كيسهم عشر سنين ويستوفوا في هذه المدة دراهمهم ولا يبقى لهم بعد ذلك حقاً لا على الرسمال ولا على الفايدة فالامر أمركم وكيفما رسمتم اكتبوا لي ولهم

سادساً . في حين اشاعة الامر الشريف [١] الواصل للشرق بخصوص اعادتكم للبطريركية وفي حين جلوسكم على الكرسي اما ابعثوا المكاتيب مع رهبان القدس واما ابعثوا احداً من طرفكم يأتي الى رومية . وهذا المرسال يكون ابن اخيكم القس سمعان ام القس داود القدسي ام غيره كما ترون اللايق . ووصوه ان لا يعمل في رومية شيئاً الا بشوري حتى لا يخبص . مرادي ان تبعثوا القس سمعان . ومن جهة الخرجيه خذوها من قنصل صيدا [٢] ام من رهبان القدس ام من غيرهم وانا ارد لهم اياها في رومية من الدراهم الفاضلة لكم في البنك التي هي في يد القس جبرايل حوا [٣] . وانا كتبت لكم سابقاً ان تبعثوا الشماس مخايل اسود ام غيره وذلك كان مداراة للزمان والمكان فان بعثتموهم ما كان عاطل واذا بعثتم غيرهم فالخاطر خاطركم . وكذلك القس داود ان بعثتموه مليح وان ما بعثتموه مليح . وان القس سمعان فبعتانه [٤] احسن من عدم بعتانه . ولكن أن احتجتم اليه ام الى غيره — فيكفي ان توصلوا لي المكاتيب

---

(١) يشير هنا الى براءة البابا اكليمنضوس الحادي عشر الصادرة في ٣٠ حزيران سنة ١٧١٣

(٢) حيث كان البطريرك مقيماً كما قلنا . وكان القنصل الفرنسوي بوللار من اكبر مساعديه . راجع رستلوبر ٢٦٤—٢٨٦

(٣) هذا يدل على ان البطريرك يعقوب اودع بعض ماله احد مصارف رومية ووكل عليه القس جبرايل حوا (٤) ارساله

سابعاً اذا بعثتم اخونا القس سمعان ام غيره فمن كل بد تبعثوا لي معه صبياً من قرايبي يكون عندي وأعلمه العلوم وابقي له وظايفي [١] . ويكون مكتسياً مليح ولو كان ابن خمس سنين ام اربعة مثل ابن اخي الشدياق مخايبل ام ابن اختي هيلانه

ثامناً . اعيد لكم الاخبار التي كتبتها في عدة مكاتيب وهي : ان صار مجمع في ٢٠ اذار من هذه السنة [٢] وبرروكم فيه وابطلوا عزلتكم ووكلوا في تدبير الكرسي الاقدم في المطارنة لبينما يشرعوا انكان تنزيلكم باطل ام لا . وفي اليوم الثامن من ايار صار مجمع آخر وحكموا ان تنزيلكم باطل واعادوكم الى الكرسي وآمروا المطارنة والشعب والطائفة أن يطيعوكم ويقبلوكم بطركاً ومن خالفكم يكون محروم وحرمه محفوظ للبابا وللمجمع . وفي اواخر ايار وصلوا القس اندراوس القبرسي وبطرس حلابو وما لحقوا ان يقدموا المكاتيب التي معهم لان الدعوه كانت انفضت بالكلية [٣] . اما القس اندراوس فلوقته كتب ورقة للمجمع أقر واعترف فيها انه طايع لكم وطايع وخاضع لمرسوم المجمع . وكتب للريفوني ولغيره ان يطيعوكم . واما

---

(١) تعين في سنة ١٧١٠ مترجما للفتين السريانية والعربية في المكتبة الواتيكانية الدبس ص ٤٧٤

(٢) ١٧١٣ . الدبس ٤٣١

(٣) جاء في براءة اكليمنضوس ١١ الصادرة في ٣٠ حزيران ان المجمع المقدس عقد جلسة في ١٩ حزيران ونظر في الشكاوي التي حملها القس اندراوس ابن سمعان الماروني فوجد ان الاثبات لها . وتجد في خزانة بكركي في جبرار البطريرك يعقوب تحت ارقام ٦ و ٧ و٨ و ٩ ترجمة واصول اوامر المجمع المقدس المذكورة اعلاه مع براءة اكليمنضوس المطبوعة . ولهذا البابا براءتان اخريان في هذه القضية الاولى صادرة في ١٣ ك ٢ سنة ١٧١١ لتفويض الاب لورنس فحص الدعوى والثانية في ١٨ اب سنة ١٧١٤ يمدح فيها الطائفة لخضوعها للكرسي الرسولي في قبول البطريرك ويحرم كل من يجدد العصيان عليه . راجعهما في مجموعة براءات المنيسي ص ١٩٧ و ٢٠١

حلابو فهو اليوم داير في رومية مثل مجنون والجميع يتضحكون عليه . المطران جرجس كاتب لكم يستغفر منكم . والجميع في رومية ارتدوا الى الحق . الشماس جبرايل بن انقره الحلبي سعيت له في خرجيه من سيدنا البابا حتى يتعلم العلوم في رومية ووضعته في بيت القسوس بلبس افرنجي وعمال يتعلم عندي اللاهوت ومرادي عن قريب ارسمه قسيس وهو كاتب لكم ولقرايبه ولجميع اهل حلب يحرضهم على طاعتكم [1] . الشماس ابرهيم الصمراني اجتهد في نصخ العروضات التي كنت اقدمها في دعوتكم وهو محترص جداً على العلوم . الشماس جبور عواد طيب والكل شاكرين من حسن سلوكه الا ان ذهنه ما هو طيب كثير وهو قاتل روحه حتى يطلع لعندي وانا ما اردته حتى لا اغيظكم واغيظ الرؤساء وهو بعده ما حلف . ان رسمتم اكتبوا لمدبر المدرسة ان يجعل الاولاد يصلوا ويقدسوا على طقس كنيستنا في الآحاد والاعياد مثل مدرسة الروم وان يجعل لهم معلم ولو كان بثلاث غروش بالشهر يعلمهم السرياني والعربي [2] . . . مدرسة البرو باغنده

---

(١) كان موارنة حلب اول من خضع للبطريرك يعقوب . رمتاهوير ص ٢٧٥

(٢) في جرار البطريرك يعقوب بيكركي تحت رقم ١٦ تحرير بالطليانية كتبه الاب ميخائيل رئيس اليسوعيين برومية الى البطريرك يعقوب بتاريخ ٢٦ اذار ١٧١٨ يطلب منه ان يرسل مع الاب اندراوس اسكندر ستة احداث للمدرسة المارونية ويؤكد له اهتمامه بتعليم التلاميذ الطقس السرياني واللغة السريانية . والمعلم جرجس بن يامين بعد ان دخل الرهبانية اليسوعية قضى بقية حياته في تعليم تلاميذ هذه المدرسة الطقوس والالحان المارونية فضلا عن اللغتين السريانية والعربية والوعظ . راجع ترجمته في الدبس ص ٤٦٨

خاتمة

يسر القاصد الى أعالي لبنان أن يتوقف هنيهة ، بعد أن يقطع نصف المسافة ، ليسرح بصره فوق ما اجتازه من الشطوط والاودية والهضبات والقرى والغابات ، فيرتاح الى مشهد مجموع أجزائها المتناسقة المتحاسنة ، وقد وزعت الغزالة عليها ، بسخاء وسلامة ذوق ، أنوارها الزاهية وظلالها اللطيفة

فلنلق نحن أيضاً نظرة عامة على ما سردناه من تفاصيل حياة القس عبدالله قرالي الرهبانية كراهب وكرئيس ، قبل ان نخطو الى القسم الثاني من ترجمته الخاص بحياته الاسقفية . فتكتحل عيوننا بجمال خطوطها الرئيسية ، وتنعكس أنوارها على مرآة مخيلتنا ، وتنطبع على ألواح ذاكرتنا .

جاء عبدالله الى لبنان ليدفن في احدى صوامعه شبابه وما يعلق به من احلام لذيذة وآمال بعيدة ، فيعيش مع ربه منعزلاً منسياً ناسياً ، مستعيضاً بعبادته عن اهواء النفس الفتية ، وباسره عن مجالات الحرية المشوقة ، وبصحبته عن مؤانسة الرفاق وملاهي العالم ، وبحبه عن حنين العائلة وملاذها .

وكان يرافقه شابان من مواطنيه : حوا والبتن . ولما لم تركن أنفسهم الى عيشة الرهبان العباد الغير المرتبة وديورتهم المزدوجة ، حيث فوضى النظام وخطر الاختلاط بالعالم وبالنساء على الفكر والقلب ، انزووا في دير صغير بأسفل اهدن في اعالي الجبال ، ووضعوا لهم نظاماً يتمثون عليه . فلمعوا كالمنارة واجتذبوا اليهم ، كما يجتذب المصباح الفراش ، نفوساً عديدة تواقة مثلهم الى العبادة الهادئة المرتبة ، أشهرها وأجملها فرحات . ولم يعتم أن اصبح الافراد الثلاثة مجموعاً معتبراً عرف بالرهبانية الحلسية ، واصبح لهم

ديرين للصيف والشتاء : مرت مورا في اهدن ، ومار اليشع في وادي بشري .

وكانوا قد أقاموا عليهم رئيساً رفيقهم حوا لكهنوته ومعرفته بالسياسة الخارجية ، فلما كثر مرؤوسوه ارتبك وتجبر وظهر عجزه عن سياسة نفسه وسياستهم ، فاستبدلوه بعبد الاحد . ثم سعى حوا للعود الى الرياسة عن طريق الانقسام فانقسموا فئتين وديرين . فأصاب حوا الفشل وعبدالله النجاح ، لان ذاك اختار نفسه وهذا اختاره الله . ثم فرحات الفتنة فهجر الرهبانية وتحول الى معلم في زغرتا ، ونبذ حوا فكرة الترهب وركب البحر الى مالطا ورومية هائماً وراء الأوهام والاحلام ، فعاد رهبانه الى لواء عبدالله ، الذي اصبح وحده مؤسس الرهبانية وقائدها وحامي ذمارها .

قادها في طريق الفضيلة والعلم والعمل ، وفتح ابوابها لجميع الطوائف والمذاهب ، ودعاها الرهبانية اللبنانية بدلاً من الحلبية . فتوافد اليه الطلاب من كل حدب ، من مدينة حلب ومن قرى لبنان ، من اطراف سوريا وما بين النهرين ومن قيليقية وفلسطين : موارنة وروم وسريان من كاثوليك وارثوذكس . ولم يصد اليهودي والدرزي والسني عن الدخول . بيد انه قبل أن يتخطوا باب الحظيرة الرهبانية كان يطلب اليهم أن يخلعوا خارجاً العصبية والفروقات الطائفية والمذهبية . فكان الجميع اخوة متساوين متضامنين متحابين ، منتمين الى اب واحد وراعٍ واحد ومرشد واحد هو عبدالله . واصبحوا جوقة كبيرة من ملائكة الارض ، منصرفة الى العبادة والاماتة والعمل اليدوي ، متمسكة بنذور الفقر والطاعة والعفة المسيحية .

شوّق منظرهم الكثيرين من ابناء الطوائف الشرقية ، خاصة الحلبيين ، فقصدوا الى لبنان معقل الكثلكة في الشرق وألفوا لطوائفهم رهبانيات تسير على

هذه الطريقة ، تتلمذ اكثر مؤسسيها لمؤسس الرهبانية اللبنانية واستندوا لى نفوذه ، وأخذ كلهم قانونه واسترشدوا بآرائه . فنشأت الرهبانية الحناوية للروم الكاثوليك في الشوير وانقسمت بعدئذ الى حلبية وبلدية ، كما انقسمت الرهبانية اللبنانية بعد وفاة موسسها . وتألفت رهبانية الحلبيات الملكيات في زوق ميكائيل والارمنية في دير مار جرجس عوكر وانتقلت منه الى دير الكريم . وتأسست الرهبانية الانطونية المارونية في دير مار اليشع برمانا واعتمدت قانون الرهبانية اللبنانية . وحذت الرهبانية الكلدانية حذوها في اتخاذ هذا القانون . وعممت المجامع المارونية على ديورة النساء المارونيات القانون الذي وضعه المطران عبدالله قبرالي لراهبات دير حراش . فازدهرت الحياة الرهبانية القانونية في لبنان وأصبح عبدالله انطونيوس الثاني منظماً ومرشداً وأباً للجميع .

ولم يكن لاولاده في بدء رياسته سوى مأوى واحد منزوٍ في قعر وادي قديشا ، لاصق بأسفل جداره الايمن الشاهق ، معلق فوق نهيره الطائش المعربد . وقد ضاق بهم ، وضيق الصخر عليهم المجال ، وضيق الحكام عليهم المعاش . فاهتم عبدالله في توزيعهم على مقاطعات لبنان ، وتوصل الى ان يضم الى رهبانيته ديري مار يوحنا رشميا ومار انطونيوس سير في الشوف ، ودير اللويزه في كسروان ، ودير مار بطرس كريم التين في المتن ، وفي الشمال ديري مرت مورا اهدن ومدرسة زغرتا ودير قزحيا مع محابسه ، وفي عكار دير السنديانة بالقبيات . وافتتح لهم أناطيش أو منازل في طرابلس وبيروت وصيدا وعكا وحلب

أولدت هذه النهضة الروحية نهضة اخرى تثقيفية علمية بالمدارس المجانية التي انشأها عبدالله بجانب كل دير وفي كل قرية تجاوره وفي ظل كل كنيسة يخدمها رهبانه . وهي المدارس القروية التي فاخر ويفاخر لبنان بها بقية الاقطار الشرقية والتي جعلت ابناءه في مستوى ممتاز من الرقي

الديني والادبي والخلقي . وعكف عبدالله وتلاميذه على وضع التآليف التي تمس اليها حاجة العقول والنفوس في الفروع الدينية والسطقسية والشرعية والادبية والعلمية واللغوية ، وتألف لجنة من مجيدي الخطوط نسخ اثمن وانفع ما حفظته تقلبات الدهر من كنوز الشرق في شتى العلوم والف منه مكاتب الديورة ومون بها كنائسها . وجمع في دير اللويزه مكتبة كانت تعد خزينة لبنان العلمية . فهذه النهضة التي امتدت من لبنان الى سائر البلاد الشرقية والتي ننعم بها نحن الان قد كان عبدالله نافخ نارها ومشعل اوارها .

وهو الذي نشط النهضة الزراعية الصناعية الفنية في هذا الجبل ورسم خططها . وقد توخى بها خاصة أن يشغل ايدي رهبانه في ما يعود عليهم بتحصيل القوت وصون النفس من تجارب البطالة ، والاقتصاد في النفقات وأثمان اللوازم . فجعل لكل دير طباخه وخبازه وخياطه واسكافه وخدامه من الرهبان ليستغنوا عن العلمانيين ويتجنبوا مخالطتهم ، ورتب الباقين في اعمال الفلاحة والبستنة . فانتشرت حول الديورة الحقول النضرة والمزارع المتقنة ، وكان اكثرها بوراً ومهجوراً ، والقليل المشغول كان شحيح المحصول . واوى الرهبان في مزارعهم الكثير من العائلات اللبنانية وأشغلوا العدد الكبير من الأيادي العاملة ، وعلموها اصول الزراعة ، فأفادوا واستفادوا .

وألف عبدالله لجانًا يتخصص افرادها في شتى المهن والفنون وكان تدبيرهم راجعًا اليه رأسًا يوزعهم على الديورة حسب حاجاتها . فرمموها ووسعوها وشادوا كنائسها وزينوها وانشأوا حولها الجسور والمعابر ومهدوا اليها الطرق وعمروا بيوت الفلاحين . وكان بينهم البناء والحجار والنحات والنجار والسنكري والحداد والمبلط والنقاش والمصور والفاخوري والحائك .

وتخطت هذه الصنائع الى القرى المجاورة فاشغلت الالاف من الايادي العاطلة ، ووفرت على لبنان أموالاً طائلة كانت تتسرب الى الخارج لشراء حاجاته .

فحق لنا أن ندعو عصر عبدالله عصر لبنان الذهبي اذ نشأت فيه على يده ويد رهبانيته ، هذه النهضات الروحية والعلمية والزراعية والصناعية ، وان نلقب مؤسس الرهبانية اللبنانية بمؤسس ثقافة لبنان وثروته الاقتصادية .

وان عجبت كيف ان راهباً بعيداً عن العالم ملازماً غرفته وكنيسته استطاع ان يقوم بهذه الاعمال الوطنية الواسعة دون ان يتخطى بوابة ديره ، فاعلم ان الرهبانية اقوى هيئة ادبية تتألف في البلاد ، والقابض على زمامها قابض على اقوى اداة عاملة فيها ، فكيف به اذا كان بشخصه قوة حزبية جمعية . وانك تعلم ايضاً ان النار من شرارة وقد تمتد الى غابات ومناطق ، فاذا عرفت جوهر هذه الشرارة الممتاز زال عجبك وتحول الى اعجاب .

قال القس توما عن معلمه « بدأ هذا المغبوط ان يعمل قبل ان يعلم ، يسبقه رفاقه السعداء كل منهم على قدر قوته حسب ما كان يرشدهم »[1]

وضع عبدالله القانون بخطه ونفذ بنوده في نفسه . شرحه لاولاده في

---

(١) المشرق ١٠ : ٦٣٠

« المصباح الرهباني » وانارهم بمصابيح فضائله . فكان صورة حية للقانون ولشرحه بتقواه وايمانه وصلواته وتقشفه .

بلغ من ثقته بالله ان اجتاز برباطة جأش اشد الازمات الأدبية والمالية التي هاجمت رهبانيته وصدمته وصدمتها ، فتغلب بسكينته على الد الاعداء واقواهم ، وجابه بدعته اكبر الظلام واقساهم . فكان الاضطهاد يتحول امام عزمه الى انتصار ، والغضب يتلاشى امام حلمه ، والاهانة تنقلب امام تواضعه الى إهابة . كان الرؤساء يعتبرونه ، والحكام يخافونه ، والشعب يجله ، والفقراء يحبونه ، والرهبان يقدسونه . اوقعته استقامته في احرج المواقف ، فتخلص منها ببساطة شجاعته . كان صارماً على نفسه وعلى الغني ، مناصراً للضعيف ، شفوقاً على الفقير الى حد الحنان ؛ وقالوا الجنون : يقتر على رهبانه ليطعم البطوش ويكسوهم في اضيق ايام المجاعة والغلاء . كنت تراه يخجل من ذكر حسناته ويخفي صيامه وتقشفاته ، ويجهر بسيئاته ويعترف كتابة بالام نفسه . بلغ من نسكه ان يكتفي برغيف كل يومين مع قليل من الطبيخ ، ويلبس المسح على اللحم ، ويحشو فراشه بالعيدان . ينام اول الليل ساناداً ظهره الى حائط ، ويقضي بقيته في الكنيسة ساهراً متأملاً ، ذارّا الرماد على راسه كاكبر الخطأة . يصلي تارة منتصباً كالصنم بحضرة اله الالهة ، وطوراً جاثياً متخشعاً كالملاك ، وحيناً ممارساً المطانيات . وقد كانت ركعاته تتجاوز الالف في الليلة الواحدة ، ليقمع جسده ويكبح جماحه ، حتى تكلكلت ركبتاه واهترت اصابع يديه وهزل جسمه . قال البودي « وكان منظره يثير الشفقة » اما هو فكان آخر من يشفق على جسده .

هذه صورة وجيزة رائعة حقيقية لرجل الله القس عبدالله قرالي ، ونظرة

سريعة ما ابهرها على الاثنتين والعشرين سنة التي قضاها في الرهبانية عابداً ناسكاً رئيساً ، من سنة ١٦٩٤ التي أم فيها لبنان للترهب ، الى سنة ١٧١٦ التي اعفي فيها من الرياسة العامة ليسلم رعاية ابرشيتي بيروت ودمشق . وقد ظل مع هذه المهام الجديدة راهباً بكل معنى الكلمة ، والمرجع الاعلى للرهبانية اللبنانية وقل للرهبانيات اللبنانية التابعة لقانونه .

انظر سياسة الله في خائفيه : قصد عبدالله الى لبنان ليعيش فرداً فأصبح بعمله مجموعاً كبيراً ومرجعاً عظيماً . قصد ان يحصر عمله في نفسه وفي رهبانيته فصار مصدراً لنهضة لبنان والشرق المباركة . وها هو يجبر على توسيع عمله ، حتى لا يكون رجل نفسه ورجل الرهبانية والرهبانيات فحسب ، بل رجل الطائفة والوطنية والكنيسة . وسيعمل لخيرها الروحي والزمني بكل نشاط واخلاص وذكاء الى ان تستأثر به رحمة الله الغير المتناهية ، ومحبته المجازية عبيدها الامناء خير الجزاء .

بيروت في غرة اذار سنة ١٩٣٢

الخوري يوسف قرألي

مطبعة العلم بيت شباب

Cet ouvrage contient , outre la biographie du grand et saint évêque , l'histoire de la fondation de l'Ordre Libanais , dont les institutions ont été adoptées par la plupart des Ordres Catholiques Orientaux de la Syrie et du Liban : quatre ordres Maronites , trois ordres Grecs - Catholiques pour les hommes et les femmes , et les deux ordres Arménien et Chaldéen .

Cette première partie va de l'année 1672 , date de naissance de l'évêque Carali , à l'année 1716 , date de sa promotion à l'épiscopat. Elle parle de savie monacale en tant que religieux et supérieur général. La seconde sera consacrée à sa vie publique en tant qu'Archévêque

Notre illustre Réformateur est arrivé , par la bonne organisation et direction de ses institutions , à donner essort à la Renaissance monastique , ascétique , liturgique , scientifique et littéraire , voire même industrielle et agricole , dont jouit , jusqu'à présent le Liban, centre du Catholicisme et de ses Missions en Syrie .

Le tout est relaté d'après des documents la plupart inédits et reproduits textuellement . Ce qui fait de cet ouvrage une source où pourrait puiser quiconque voudrait s'intéresser à L'histoire des Communautés Catholiques de la Syrie et du Liban dans la première moitié du 18e siècle

Beyrouth le 15 mai 1932

PaulCarali

Vie de Mgr.

ABDALLAH CARALI

ARCHÉVÊQUE DE BEYROUTH

FONDATEUR DE L'ORDRE LIBANAIS

AUTEUR DU CODE CIVIL DES CHRÉTIENS DU LIBAN

1672 - 1742

Par

L'abbé Paul Carali

Rédacteur de la Revue Patriarcale Maronite

1re Partie

LE MOINE

1672 - 1716

Imprimerie Al-Alam Beit-Chebab (Liban)

1932

Vie de Mgr.

Prix 20 frs

ABDALLAH GARALI

ARCHEVÊQUE DE BEYROUTH

FONDATEUR DE L'ORDRE LIBANAIS

AUTEUR DU CODE CIVIL DES CHRÉTIENS DU LIBAN

1672 - 1742

Par

l'abbé Paul Carali

Rédacteur de la Revue Patriarcale Maronite

1re Partie

LE MOINE

1672 - 1716

Imprimerie Al-Alam Beit-Ch

1932

GENERAL BOOKBINDING CO.
461WB
72 N 103 8663
QUALITY CONTROL MARK

THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU52877221
DT96 .C3
al-Laali fi hayat al